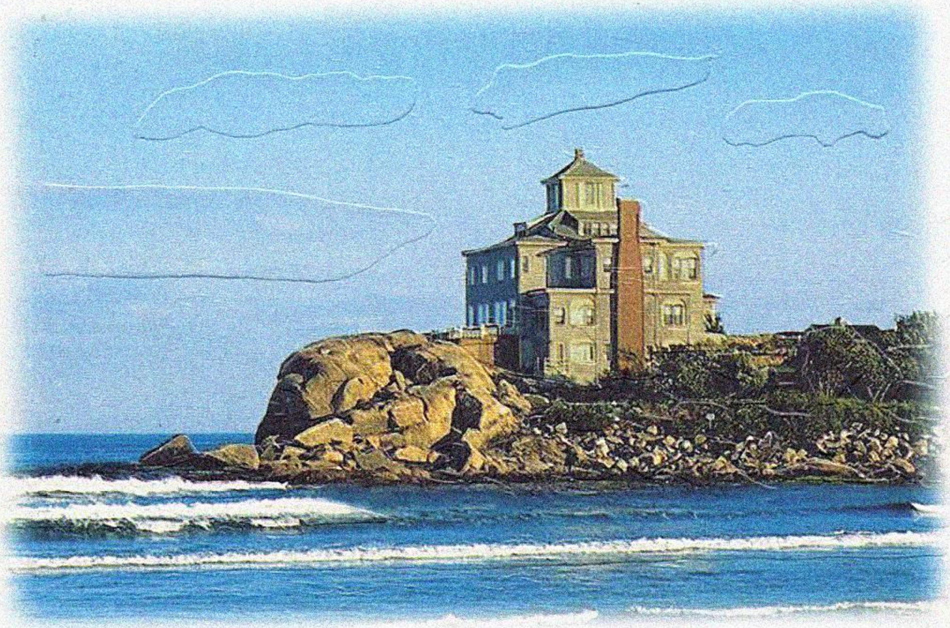
النص الكامل
الطبعة الثانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



ذاكِرَةُ الأفْيَال

٧٣
Agatha Christie
الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

أغاثا كريستي

ذاكرة الأفيال

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٢ بعنوان

Elephants Can Remember

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٠٥

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣ دبي ٢٨٢٦٠٠٥
الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ قطر ٤٨٦٢١٢١ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

ذاكِرَةُ الأفيَال

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٢

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون بدهشة واستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات المهمة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَيْ أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمِعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفِّذ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمع مذكّر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خَجِلٌ»، وقولهم: «مُندهش» والصواب «دَهِشٌ» أو «مَدْهوش»، وقولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«الجِدّيّة» والصواب «الجِدّ»، ومنه: كان الأمر جِدّياً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جِدّاً، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاّ» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب". وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل ،وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها: «إنكليز» و«إنكليزية»؛ لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: cat)، والألف المفخَّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخَّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠ ، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِحٍ مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في بلاد الرافدين». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢، أي لأكثر من نصف قرن!

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

ذاكرَة الأفيَال

الفصل الأول

غداء أدبي

نظرت السيدة أوليفر إلى نفسها في المرآة، وألقت نظرة جانبية قصيرة نحو الساعة على رف الموقد (تلك الساعة التي كانت تراودها فكرة بأنها مُقصِّرة نحو عشرين دقيقة)، ثم تابعت دراستها لتسريحة شعرها. كانت السيدة أوليفر تعترف -عن طيب خاطر- بأن مشكلتها تكمن في أنها دائمة التغيير لأساليب تسريحاتها، فهي لم تكد تترك تسريحة لم تجربها.. جربت يوماً تسريحة «بومبادور» صارمة، حيث يُسرح الشعر عالياً حول الوجه، ثم اتبعت أسلوب الشعر المتطاير، حيث تسرح المرأة خصلات شعرها كلها إلى الخلف لإضفاء مسحةِ وسمتِ المثقفات المُفكِّرات، أو أنها أملت -على الأقل- أن تكون المسحة على هذا النحو. كما حاولت تسريحة الخصلات ذات الترتيب المحكَم، بل وحاولت نوعاً من الفوضى الفنية في تسريحتها. أما اليوم فقد اضطرت للاعتراف بأن أسلوب تسريحتها لن يكون ذا أهمية كبرى؛ لأنها ستضع قبعة، وهو أمرٌ نادراً ما كانت تلجأ إليه.

في أعلى رفٍّ في خزانة السيدة أوليفر كانت أربع قبعات، منها

واحدة مخصصة حصراً للأعراس. فعندما تذهب المرأة للأعراس، تُصبح القبعة «ضرورة». ولكن السيدة أوليفر احتفظت لمثل هذه المناسبة بقبعتين اثنتين؛ واحدة منهما كانت من الريش، وقد وُضعت في علبة دائرية، وكانت تدخل الرأس بشكل مُحكم وتتحمل بشكل جيد هبّات المطر المفاجئة إذا ما داهمت المرء على غير توقع منه وهو ينزل من السيارة. أما القبعة الأخرى (والأكثر تطوراً وتعقيداً) فقد كانت مخصصة حصراً لحضور تلك الأعراس التي تجري في أمسيات الأحد الصيفية، وكانت لها أزهار وأشرطة قماشية رقيقة وغطاء من الشبك الأصفر المُثبّت بزهرة ميموزا الصفراء.

أما القبعتان الأخريان على الرف فكانتا أقرب إلى الطراز متعدد الأغراض، وقد اعتادت السيدة أوليفر على تسمية واحدةٍ منهما «قبعة المنزل الريفي»، وهي مصنوعة من اللباد البني، وتنسجم مع الملابس الصوفية مهما كانت ألوانها تقريباً، مع إطار جميل لها يمكن للمرء رفعه أو خفضه. كان للسيدة أوليفر كنزة من صوف الكشمير لأيام البرد وأخرى رقيقة للأيام الحارة، وكان كلاهما مناسباً لما ترتديه الآن. ولكن، رغم أنها كانت ترتدي الكنزتين كثيراً، إلاّ أنها لم تكن تضع القبعة أبداً في الواقع. فلماذا توضع القبعة لمجرد الذهاب إلى الريف وتناول وجبة مع الأصدقاء؟

كانت القبعة الرابعة أغلى القبعات ثمناً، وذات قدرة فائقة على التحمل والبقاء، وكانت السيدة أوليفر ترى أحياناً أن ذلك ربما كان عائداً لارتفاع ثمنها. كانت تتألف من نوع من العمامة ذات طبقات متعددة ومتداخلة من المخمل، وكلها ذات ظلال لونية من شأنها أن تناسب كل الملابس.

توقفت السيدة أوليفر مترددة ثم نادت طلباً للمساعدة: «ماريا»، ثم نادت بصوت أعلى: ماريا، تعالي لحظة.

جاءت ماريا (التي اعتادت أن تطلب مشورتها فيما تُفكر السيدة أوليفر بارتدائه). قالت: سترتدين قبعتك الأنيقة الجميلة، أليس كذلك؟

- بلى، أردتُ معرفة رأيك فيما إذا كان منظرها هكذا أفضل أم أديرها هكذا.

تراجعت ماريا قليلاً وألقت نظرة، ثم قالت: أراك تضعينها بحيث أصبحت مؤخرتها للأمام، أليس كذلك؟

- بلى، أعرف؛ أعرف ذلك تماماً، ولكني رأيتُ أنها تبدو أجمل هكذا لسببٍ ما.

- آه، ولماذا تبدو أجمل؟

- أحسب أن ذلك مقصود. ولكنه يجب أن يكون مقصوداً مني بالإضافة إلى كونه مقصوداً من المحل الذي باعها.

- لماذا تظنين أنها أفضل إذا ما وُضعت بالمقلوب؟

- لأن ذلك يُظهر هذا الأثر المحبب من اللونين الأزرق والبني، وأظن أن ذلك يبدو أجمل من وضعها بالشكل الآخر، حيث يبدو اللونان الأحمر والبني الغامق.

عند هذه النقطة نزعت السيدة أوليفر القبعة، ثم عادت

فوضعتها على رأسها بالشكل المقلوب، ثم بالشكل الصحيح، ثم بشكل جانبي، الأمر الذي لم تستحسنه لا هي ولا ماريا التي قالت: لا يمكنك وضعها بشكل جانبي. أعني أن هذا لا يناسب وجهك، أليس كذلك؟ بل إنه لا يناسب وجه أحد.

- بلى، لن ينفع ذلك. أظنني سأضعها بالشكل العادي الصحيح في نهاية المطاف.

- أحسب أن هذا آمنُ دائماً.

نزعت السيدة أوليفر القبعة، وساعدتها ماريا في ارتداء ثوب صوفي حسن التفصيل ذي لون خمري رقيق، كما ساعدتها في تعديل قبعتها وقالت: تبدين في غاية الأناقة.

كان هذا ما تحبه السيدة أوليفر كثيراً في ماريا فهي تبادر دوماً إلى الموافقة والمديح كلما أُعطيت لها أضعف المبررات لذلك. سألتها ماريا: هل ستُلقين خُطبة على الغداء؟

قالت السيدة أوليفر مذعورةً: خُطبة! كلا، كلا بالطبع. أنت تعلمين أنني لا ألقي خُطباً.

- ظننتُ أنهم يلقون خُطباً في مناسبات الغداء الأدبي تلك. هذا ما أنت ذاهبة إليه، حفل مشاهير الكُتّاب لهذا العام، أليس كذلك؟

- لا حاجة بي لإلقاء خطبة. سيقوم بذلك العديد من الأشخاص الذين يحبون إلقاء الخُطب، وهم أفضل مني بكثير في ذلك.

- أنا واثقة أن بوسعك أن تُلقي خطبة رائعة إذا ما قصدتِ.

- لا، لن أفعل. أنا أعرف ما أستطيعه وما لا أستطيعه. لا أستطيع إلقاء الخطب؛ فأنا أقلق وأغدو عصبية، وربما تلعثمتُ أو كررتُ كلامي مرتين. ولن أشعر -وقتها- بأنني سخيفة فقط، بل سأبدو سخيفة فعلاً. أما الكلمات المكتوبة فلا بأس بها؛ يمكنك أن تكتبي الكلمات أو تقرئيها لآلة تسجيل أو تُمليها على أحد. بوسعي التعامل مع الكلمات طالما أنني أعرف أن ما أفعله ليس خطبة.

- حسناً، أرجو أن يمضي كل شيء على ما يرام، وهو ما أنا واثقة منه. إنه غداء عظيم، أليس كذلك؟

قالت السيدة أوليفر بصوت عميق الاكتئاب: بلى، عظيم تماماً.

ولكنها فكرت مع نفسها دون أن تقول شيئاً: "..ولماذا أذهب إلى هذا الغداء؟". بحثت قليلاً في عقلها لأنها كانت تحب دوماً أن تعرف ما ستفعله، بدل أن تفعله أولاً ثم تتساءل فيما بعد لماذا فعلته.

قالت لنفسها ثانية (وليس لماريا التي أسرعت إلى المطبخ استجابة لنداء رائحة المربى الذي اندلق على الفرن): أحسب أنني أردتُ أن أرى كيف يشعر المرء في مثل هذه المناسبة؛ إذ أُدعى دائماً إلى ولائم أدبية وما شابهها ولا أذهب أبداً.

* * *

بلغت السيدة أوليفر آخر طبق من مجموعة الأطباق التي تُقدّم

تباعاً في هذا الغداء الضخم وهي تتنهد بارتياح وتعبث ببقايا حلوى الميرنغ في طبقها. كانت مغرمة جداً بهذا النوع من الحلوى، وهي كانت طبقاً لذيذاً يُقدّم في نهاية غداء لذيذ. ومع ذلك فإن على المرء أن يكون حذراً من هذه الحلوى عندما يصل أواسط عمره. أمن أجل أسنانه؟ إن أسنانها تبدو جيدة، وفيها ميزة عظيمة وهي أنها لا يمكن أن تؤلم، وكانت بيضاء وذات شكل مقبول تماماً... تماماً كالأسنان الحقيقية. ولكن كان صحيحاً تماماً أنها لم تكن أسناناً حقيقية، والأسنان غير الحقيقية لا تكون من مادة ممتازة حقاً، أو هكذا رأت السيدة أوليفر. لقد فهمت دوماً أن للكلاب أسناناً من العاج الحقيقي، ولكن للإنسان أسناناً لا تعدو أن تكون من العظم (أو من البلاستيك إن لم تكن أسناناً حقيقية). على أية حال، كانت النقطة الرئيسية هي أن على المرء ألاّ يتورط في منظر يثير الخجل مما قد تقوده إليه الأسنان الصناعية. كان الخس يمثل صعوبة، واللوز المُملّح، والأمور الأخرى من قبيل الشُكُلاتة المحشوة بأشياء قاسية، والكراميل الذي يلصق، واللصوق اللذيذ لحلوى الميرنغ. وبزفرة ارتياح تعاملت مع آخر لقمة. لقد كان غداء لذيذاً جداً.

كانت السيدة أوليفر مغرمة براحتها المادية؛ فقد استمتعت كثيراً بالغداء، وتمتعت بالصحبة أيضاً. وقد كان من حسن الطالع أن الغداء الذي كان مخصصاً للكاتبات المشهورات لم يقتصر عليهن فقط، فقد كان فيه كُتّاب ونقاد، وآخرون ممّن يقرؤون الكتب، وليس مَن يؤلفها فقط. وكانت السيدة أوليفر قد جلست بين اثنين من الرجال. أولهما إيدوين أوبن الذي كانت تستمتع بأشعاره، وكان شخصاً مسلياً جداً خاض تجارب عديدة مسلية في أسفاره إلى الخارج ومغامرات

عديدة أدبية وشخصية، كما كان مهتماً بالمطاعم، وقد تحدثا معاً بكل سعادة عن الطعام تاركين موضوع الأدب جانباً. أما السير ويسلي كينت على جانبها الآخر فقد كان رفيق غداء محبوباً أيضاً. وقد قال لها أشياء لطيفة جداً عن كتبها، وكان له من اللباقة ما جعله يقول أشياء لا تُحرجها، الأمر الذي يمكن لكثير من الناس أن يقعوا به بشكل لا يكاد يكون مقصوداً. لقد أشار لسبب أو اثنين لاستمتاعه بهذا الكتاب أو ذاك من كتبها، وكانت الأسباب التي ساقها صحيحة، ولذا نظرت إليه السيدة أوليفر بعين الرضا. وفكرت مع نفسها بأن المديح الذي يأتي من الرجال مقبول دائماً؛ فالنساء هُنّ اللاتي يُسرفن في الكلام العاطفي الرخيص. يا لسخافة بعض ما تكتبه لها النساء! ليس النساء فقط بالطبع، بل يكتب لها أحياناً شبان من بلدان نائية جداً. في الأسبوع الماضي فقط تلقّت رسالة من مُعجب تبدأ بالقول: «لقد شعرتُ وأنا أقرأ روايتك كم أنت امرأة نبيلة دون شك!». فبعد أن قرأ رواية «السمكة الذهبية الثانية» دخل في حالة من النشوة الأدبية التي شعرت السيدة أوليفر أنها غير مناسبة على الإطلاق. إنها لم تكن ممن يتكلفون التواضع؛ فلقد رأت أن القصص البوليسية التي كتبتها كانت جيدة تماماً ضمن صنفها (لم يكن بعضها بالغة الجودة، فيما كان البعض الآخر أفضل بكثير من غيره). ولكن لم يكن من سبب -حسبما رأت- يجعل أحداً يشعر بأنها امرأة نبيلة. كانت امرأة محظوظة رسّخت لنفسها موهبة موفقة في كتابة ما يريد الكثير من الناس قراءته، ورأت السيدة أوليفر أن ذلك كان حظاً رائعاً.

حسناً، لقد تجاوزت هذه المحنةَ بشكل جيد جداً إجمالاً؛ فقد استمتعت تماماً، وتحدثت مع بعض الأشخاص اللطفاء. كان الجميع

يتنقلون الآن إلى حيث توزع القهوة، وحيث يمكن للمرء أن يغير صحبته ويتحدث إلى أشخاص آخرين. وكانت السيدة أوليفر تعرف تمام المعرفة أن هذه هي لحظة الخطر. هذه هي اللحظة التي يمكن أن تأتي فيها النساء الأخريات ويهاجمنها بمديحهن المتملق الكريه، وحيث كانت تشعر دوماً بنقص محزن في قدرتها على إعطاء الأجوبة الصحيحة؛ إذ لم توجد أي أجوبة صحيحة يمكن للمرء تقديمها. كان ذلك يتم بشكل أشبه بكتاب الرحلات الذي يأخذه المرء معه عندما يسافر إلى الخارج، وبه كل الجمل المطلوبة الصحيحة.

سؤال: "يجب أن أخبرك بمقدار تعلقي بقراءة رواياتك وكم هي رائعة بنظري"... جواب من المؤلفة المرتبكة: "هذا لطف بالغ منكِ؛ إنني سعيدة جداً".

سؤال: "يجب أن تفهمي أنني كنتُ أنتظر لقاءك من أشهر عديدة. إنه لأمر رائع حقاً"... جواب: "آه، هذا لطف كبير منكِ، لطف بالغ فعلاً".

ويمضي الأمر على هذه الشاكلة إلى حدٍّ بعيد، دون أن يبدو أن أحداً من الطرفين قادر على الحديث عن أي شيء خارجي. فلا بد أن يكون الحديث كله عن كتبك (أو عن كتب المرأة الأخرى إن كنتَ تعرف ما هي كتبها). لقد كانت السيدة أوليفر ضمن الدوائر الأدبية، ولم تكن حاذقة في مثل هذه الأمور. يمكن لبعض الناس أن يتقنوا ذلك، ولكن السيدة أوليفر كانت تعي -بمرارة- عدم امتلاكها لمثل هذه القدرة، حتى لقد قامت صديقة أجنبية لها بإدخالها شبه دورة في هذا الأمر عندما كانت في سفرة في الخارج.

كانت ألبرتينا قد قالت لها بصوتها العذب المنخفض ذي اللكنة الأجنبية: لقد كنتُ أصغي إليك، وسمعت ما قُلتِه لذلك الشاب الذي أتى من الصحيفة ليجري مقابلة معك. ليس لديك أبداً الفخر الذي يجب أن تمتلكيه بأعمالك. يجب أن تقولي: "نعم، إنني أكتب بشكل جيد، وأنا أفضل مَنْ كَتَبَ رواياتٍ بوليسية".

وقد قالت لها السيدة أوليفر وقتها: ولكني لستُ كذلك. أنا لستُ سيئة، ولكن...

- آه، لا تقولي «لستُ كذلك» بهذه الطريقة. يجب أن تقولي إنك كذلك؛ حتى لو لم يكن ذلك هو رأيك، يجب أن تقولي إنك الأفضل.

وقالت لها السيدة أوليفر: أتمنى يا ألبرتينا لو أنك تقومين بمقابلة هؤلاء الصحفيين الذين يأتون. من شأنك أن تفعلي ذلك بشكل رائع. ألا يمكنك التظاهر بأنك أنا يوماً ما، وأستمع أنا خلف الباب؟

- بلى؛ أحسب أن بوسعي القيام بذلك، وسيكون ممتعاً تماماً. ولكنهم سيعرفون أنني لستُ أنت؛ فهم يعرفون وجهك. بل يجب أن تقولي: "نعم، نعم، أنا أعرف أنني أفضل من الجميع". يجب أن تقولي ذلك للجميع، ويجب أن يعرفوا ذلك، كما يجب أن يذيعوه ويعلنوه. آه، من الفظيع أن يسمعك المرء وأنت تقولين أشياء كما لو كنتِ تعتذرين عن حقيقتك. يجب ألاّ يكون الأمر على هذا النحو.

رأت السيدة أوليفر أن الأمر كان أشبه بكونها ممثلة ناشئة

تحاول تعلم دورها، وقد وجد المخرج أنها كانت سيئة جداً في تلقّي التوجيهات. حسناً، لن تجد صعوبة كبرى هنا على أية حال. ستجد بعض النساء المُنتظِرات عندما ينهضون جميعاً عن الطاولة... والحقيقة أن بوسعها أن ترى واحدة أو اثنتين منهن يترددن أصلاً وهن واقفات هناك. لن تهتم كثيراً لذلك. ستذهب وتبتسم وتكون لطيفة وتقول: "هذا لطف بالغ منك؛ إنني مسرورة جداً. إن المرء يفرح كثيراً إذ يرى الناس يحبون كتبه"... وغير ذلك من العبارات القديمة البائتة. تماماً كما يُدخل المرء يده في صندوق ويُخرج بعض الكلمات المفيدة التي سُلكت بعضها مع بعض من قبل كحبات عقد. وبعد ذلك لن تلبث طويلاً قبل أن تغادر.

دارت عيناها حول المائدة لأنها قد ترى هناك بعض الأصدقاء أو المعجبين الواعدين. نعم رأت على بُعدٍ أمامها مورين غرانت، التي كانت مُسلية جداً. أتت اللحظة، ونهضت الأديبات ومرافقوهن من الفرسان الذين حضروا الغداء أيضاً، وتوجه الجميع نحو الكراسي، ونحو موائد القهوة، والأرائك، والزوايا النائية الخاصة. لطالما رأت السيدة أوليفر في هذا الموقف لحظةَ الخطر، رغم أن ذلك كان عادة في حفلات الكوكتيل وليس في الحفلات الأدبية، لأنها نادراً ما كانت تذهب إلى الحفلات الأدبية. يمكن للخطر أن ينشأ في أية لحظة، كأن يأتي شخص لا تتذكره ولكنه يتذكرك، أو شخص لا تريد أبداً الحديث معه ولكنك تجد ألاّ مفر من ذلك. وفي هذه الحالة كانت المعضلةِ الأولى هي التي أتت إليها؛ إذ تقدمت منها امرأة ضخمة ذات أبعاد شاسعة وأسنان قارضة ضخمة بيضاء، مما يُطلق عليه الفرنسيون اسم المرأة الفظيعة، ولكنها لم تكن تمتلك فقط

ميزة الفظاعة الفرنسية، بل تمتلك أيضاً ميزة التسلط الإنكليزية. وبدا واضحاً أنها تعرف السيدة أوليفر أو أنها مصممة على التعرف إليها في التو واللحظة. وحدث أن كان الخيار الثاني هو الصحيح.

قالت بصوت عالي النبرة: آه يا سيدة أوليفر، أي سعادة في لقائي بك اليوم! لقد انتظرتُ هذا اللقاء طويلاً. إنني -ببساطة- أعشق رواياتك، وكذلك ابني، وكان زوجي يُصر على عدم السفر دون اصطحاب اثنتين من رواياتك على الأقل. هيا لنجلس؛ فلديّ الكثير من الأمور التي أريد سؤالك عنها.

وفكرت السيدة أوليفر قائلة لنفسها: حسناً، ليست هذه من نوع النساء المفضلات لدي، ولكن غيرها لن يكون أفضل منها.

سمحت لنفسها بأن تُقاد بطريقة مُحكمة كما كان من شأن ضابط شرطة أن يقودها، وأُخِذت إلى أريكة لشخصين في إحدى الزوايا، وتقبلت صديقتُها الجديدةُ كوباً من القهوة، ووضعت كوباً آخر أمامها أيضاً، ثم قالت: حسناً، ها قد جلسنا الآن. لا أحسب أنك تعرفين اسمي. إنني السيدة بيرتن-كوكس.

قالت السيدة أوليفر وقد أُحرجت كعادتها: آه، نعم.

بيرتن-كوكس؟ أهي مؤلفة كتب أيضاً؟ كلا، إنها لا تستطيع تذكّر شيء عنها. ولكن بدا لها أنها سمعت الاسم من قبل. جاءتها فكرة غائمة عابرة، أكان ذلك كتاباً في السياسة أو شيئاً من هذا القبيل؟ لم يكن ضمن خانة الكتب القصصية، ولا هو بالكتاب الممتع أو الذي يتحدث عن الجريمة. أتراه كان كتاباً فكرياً عميقاً ذا تحيز

سياسي ما؟ وفكرت السيدة أوليفر بارتياح بأن التعامل مع موضوع كهذا يجب أن يكون سهلاً. بوسعي أن أكتفي بتركها تتكلم بينما أقول أنا من وقت لآخر: ما أمتع هذا!

قالت السيدة بيرتن-كوكس: ستندهشين كثيراً ممّا سأقوله لك، ولكني شعرت -من قراءتي لرواياتك- بمدى تعاطفك، ومدى فهمك العميق، للنفس البشرية. وأشعر أنه إذا كان من أحد يمكن أن يعطيني جواباً عن السؤال الذي سأسأله فإنه أنت.

- لا أحسب حقاً...

قالت السيدة أوليفر ذلك وهي تحاول التفكير بكلمات مناسبة توضح فيها أنها لا تشعر بالثقة بأنها قادرة على الارتفاع إلى المستوى الذي تنتظره المرأة منها.

ألقت السيدة بيرتن-كوكس قطعة سكر في قهوتها وسحقتها بطريقة وحشية بعض الشيء كما لو كانت عظمة. وفكرت السيدة أوليفر قائلة لنفسها: "ربما كانت أسنانها من العاج!". العاج؟ إن للكلاب أسناناً من العاج، وللفقمة أنياباً من العاج، كما أن للفيلة طبعاً أنياباً عاجية، أنياباً ضخمة طويلة من العاج.

كانت السيدة بيرتن-كوكس تقول: أول شيء أريد سؤالك عنه الآن -رغم أنني واثقة تماماً منه- هو أن لديك ابنة كنتِ أنتِ والدتها بالمعمودية تُدعى سيليا رافينزكروفت، أليس كذلك؟

تأوهت السيدة أوليفر -وقد دُهشت- بشيء من السرور؛ فقد شعرت أن بوسعها التعامل مع موضوع ابنةٍ بالمعمودية. لقد كانت أمّاً

بالمعمودية للكثير من البنات والصبيان، وكانت مضطرة للاعتراف بأنها -مع تزايد سني عمرها- تمرّ بأوقات لا تتذكر فيها كل هؤلاء.

قالت السيدة أوليفر وقد بدا أنها تبذل أفضل جهدها: سيليا رافينزكروفت، نعم، نعم، بالطبع. نعم، بالتأكيد.

لم يعنِ ذلك أن أية صورة لسيليا رافينزكروفت لم تبرز أمام عينيها، أو أنها -على الأقل- لم تتذكرها إلاّ منذ سنين طويلة جداً، منذ التعميد. كانت قد ذهبت إلى تعميد سيليا، ووجدت مصفاة لطيفة جداً يعود عهد صنعها إلى فترة الملكة آن فأخذتها هدية. كانت مصفاة رائعة يمكن أن تُفيد كثيراً في تصفية الحليب، وكانت من تلك الهدايا التي يمكن للابنة بالتعميد أن تبيعها ساعة تشاء إذا ما احتاجت مبلغاً طارئاً في أي وقت. نعم، إنها تتذكر المصفاة بشكل جيد بالفعل؛ فقد كانت من فترة الملكة آن، يعود تاريخ صنعها إلى عام ألفٍ وسبعمئة وأحد عشر، وكانت من ماركة بريتانيا. كم هو أسهل أن يتذكر المرء أباريق الشاي الفضية أو المصافي أو الأكواب من أن يتذكر الطفل نفسه الذي أُهديت له.

قالت: نعم، نعم، بالطبع. أخشى أنني لم أرَ سيليا منذ وقت طويل جداً.

- آه، نعم. إنها -بالطبع- فتاة انفعالية تعمل من وحي اللحظة. أعني أنها غيّرت أفكارها كثيراً. إنها مثقفة جداً، وقد نجحت نجاحاً ممتازاً في الجامعة، ولكن... ولكن المشكلة في آرائها السياسية. أحسب أن لجميع الشباب آراء سياسية في هذه الأيام.

قالت السيدة أوليفر التي كانت السياسة بالنسبة لها دوماً أمراً بغيضاً: أخشى أنني لا أتعامل كثيراً بالسياسة.

- سأثق بك، وأفضي لك بما أريد معرفته منك بالضبط، وأنا واثقة أنك لن تمانعي. لقد سمعتُ الكثير عن لطفك تعاونك.

السيدة أوليفر (التي سبق لها أن عرفت الكثير من الأحاديث التي تبدأ بهذه الافتتاحية) فكرت في نفسها قائلة: أتساءلُ إن كانت ستحاول اقتراض المال مني.

- الحقيقة أن المسألة ذات أهمية كبرى بالنسبة لي؛ فهي شيء أشعر فعلاً بأنني يجب أن أكتشفه. إن سيليا ستتزوج (أو تظن أنها ستتزوج) ابني ديزموند.

- آه، حقاً!

- هذه هي فكرتهما في الوقت الحاضر على الأقل، وعلى المرء -طبعاً- أن يعرف عن الناس، ولديّ شيء أريد كثيراً أن أعرفه. إنه سؤال من المستغرب أن يُطرح على أيٍ كان، ولا أستطيع أن ألجأ.. أو لا يليق أن ألجأ إلى غريب لأسأله، ولكني لا أشعر أنك غريبة يا عزيزتي السيدة أوليفر.

قالت السيدة أوليفر مع نفسها: "ليتك تشعرين بذلك". كانت قد بدأت ترتبك الآن. تساءلت إن كانت سيليا قد أنجبت أو ستنجب طفلاً غير شرعي، وإن كان يُفترض بها هي أن تعرف عن هذا الأمر وتعطي تفصيلاته. من شأن ذلك أن يكون فظيعاً. ولكنها عادت وفكّرت بصمت: أنا لم أرها منذ خمس سنوات أو ست، ولا بد أنها

بلغت الآن خمسةً وعشرين أو ستةً وعشرين عاماً، ولذلك سيكون من السهل تماماً القول إنني لا أعرف شيئاً.

اتكأت السيدة بيرتن-كوكس إلى الأمام وتنفست بقوة قائلة: أريدك أن تخبريني لأنني واثقة أنك تعرفين دون شك، أو أن لديك فكرة جيدة عن الكيفية التي حدث بها الأمر كله... هل قتلت أمُّها أباها، أم أن الأب هو الذي قتل الأم؟

كائناً ما كانت توقعات السيدة أوليفر فإنها لم تتوقع مثل هذا السؤال بالتأكيد. حدقت بالسيدة بيرتن-كوكس غير مصدقة وقالت: ولكني لا. إنني... إنني لا أفهم. أعني... ما السبب...

- يا عزيزتي السيدة أوليفر، لا بد أنك تعرفين. أعني أنها كانت قضية مشهورة جداً. أعرف -طبعاً- أن زمناً طويلاً قد مرّ عليها، أحسبه تجاوز عشر سنوات، ولكنها أثارت كثيراً من الاهتمام وقتها. أنا واثقة أنك ستتذكرين، يجب أن تتذكري.

كان عقل السيدة أوليفر يعمل بشكل محموم. لقد كانت سيليا ابنتها بالمعمودية، هذا صحيح تماماً. ووالدة سيليا... نعم، بالطبع. كانت والدة سيليا هي مولي بريستون-غري، التي كانت صديقة لها، رغم أنها لم تكن صديقة حميمة جداً، وقد تزوجت رجلاً في الجيش، نعم. ماذا كان اسمه؟ السير رافنزكروفت. أم أنه كان سفيراً؟ غريب كيف لا يستطيع المرء تذكر هذه الأمور. بل إنها لا تتذكر إن كانت هي نفسها قد قامت بمهمة وصيفة العروس لصديقتها مولي. رأت أنها قامت بذلك بالفعل، وكان عرساً لطيفاً أُقيم في غاردز تشابل أو في مكان مشابه له. ولكن المرء ينسى كثيراً. وبعد ذلك لم تلتقِ أياً

منهما لسنوات؛ فقد سافرا إلى مكان ما. أكانا في الشرق الأوسط؟ في إيران؟ أم في العراق؟ أتراهما كانا مرة في مصر؟ أم في الملايو؟ عندما كانا يزوران إنكلترا في فترات متباعدة جداً كانت تلتقيهما ثانية. ولكنهما كانا أشبه بتلك الصورة التي يأخذها المرء وينظر إليها، فهو يعرف الناس فيها بشكل غائم، ولكن الصورة تكون باهتة إلى الحد الذي لا يستطيع المرء معه تمييز الناس فيها أو تذكّرهم. ولم تستطع أن تتذكر الآن فيما إذا كان السير رافنزكروفت والليدي رافنزكروفت (التي كان اسمها قبل الزواج مولي بريستن-غري) قد دخلا حياتها بشكل عميق مؤثر. لم ترَ أنهما كانا كذلك. ولكن... ما زالت السيدة بيرتن-كوكس تنظر إليها. تنظر إليها كما لو أن أملها قد خاب بلباقة السيدة أوليفر، أو أنها صُدمت بعدم قدرتها على تذكّر قضية بدا واضحاً أنها كانت قضية شهيرة.

قالت السيدة أوليفر: قُتلا؟ أتعنين... حادثاً؟

- آه، لا. ليس حادثاً. كان ذلك في أحد تلك البيوت قرب البحر، في كورنوول كما أظن. في واحدٍ من تلك الأماكن حيث توجد صخور. كان لهما بيت هناك على أية حال، وقد عُثر على الاثنين على الصخور هناك وقد أطلقت النار عليهما. ولكن لم يكن من شيء يمكن للشرطة الاعتماد عليه لتقرير ما إذا كانت الزوجة هي التي أطلقت النار على زوجها ثم أطلقتها على نفسها، أم أن الزوج هو الذي بدأ بإطلاق النار على زوجته ثم قتل نفسه. وقد تم البحث في دليل الرصاصات والأمور الأخرى، ولكن الموقف كان صعباً جداً. وقد رأى الشرطة أن الأمر قد يكون اتفاقاً على الانتحار... وقد نسيت ما هو الحُكم الذي صدر. صدر حُكم يقول إن الأمر كان

قضاء وقدراً، أو شيئاً من ذلك. ولكن الجميع كانوا يعلمون طبعاً أن الأمر كان مقصوداً دون شك، وسرت قصص كثيرة انتشرت وقتها طبعاً...

قالت السيدة أوليفر بشيء من الأمل وهي تحاول تذكر واحدة من تلك القصص على الأقل: لعلها كانت مُختلقَة كلها.

- هذا ممكن... ممكن. أعرف أن الجزم صعب جداً. رُويت قصص عن مشاجرة حدثت في ذلك اليوم أو في اليوم السابق، وقيل بعض الكلام عن وجود رجل آخر، وأيضاً قيل -بطبيعة الحال- الكلام المعتاد عن امرأة أخرى، ولا يعرف المرء أبداً كيف كان الأمر في الحقيقة. أظن أنه جرى التستر كثيراً على الأمور لأن موقع الجنرال رافنزكروفت كان عالياً بعض الشيء، ولعله قيل إنه كان في مصحة في ذلك العام، وإنه كان ذا نفسية كسيرة، أو ما شابه ذلك، وإنه لم يكن يعرف حقاً ما يفعله.

قالت السيدة أوليفر وهي تتحدث بثبات: أخشى فعلاً أن عليّ أن أقول لك إنني لا أعرف شيئاً عن الموضوع. أذكر بالفعل -الآن، بعدما أشرتِ إلى ذلك- أن قضيةً قد أُثيرت، وأذكر الأسماء، وأذكر أنني عرفت هؤلاء الناس، ولكني لم أعرف أبداً ما الذي حدث. لا أظن حقاً أن لدي أدنى فكرة عن الموضوع.

والحقيقة أن السيدة أوليفر كانت تتمنى لو كان لها من الشجاعة ما يجعلها تقول لها: ولا أدري من أين لك هذه الوقاحة لتسأليني عن شيء كهذا!

قالت السيدة بيرتن-كوكس: من المهم جداً أن أعرف.

وبدأت عيناها -وهما كالرخام القاسي- تصرخان وهي تقول: الأمر مهم بسبب ابني، ابني العزيز الذي يريد الزواج بسيليا.

- أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك؛ فأنا لم أسمع شيئاً أبداً.

- ولكن يجب أن تعرفي. أعني أنك تكتبين قصصاً رائعة جداً، وتعرفين كل شيء عن الجريمة... تعرفين من الذي يرتكب الجرائم، ولماذا يرتكبها، وأنا واثقة أن من شأن كثير من الناس أن يخبروك عن القصة الحقيقية خلف ما يُشاع.

قالت السيدة أوليفر بصوت لم يعد فيه الكثير من الأدب وأخذ يحمل الآن بالتأكيد نبرات تقزز: أنا لا أعرف شيئاً.

- ولكن ألا ترين أن المرء لا يملك من يذهب إليه لسؤاله عن الأمر؟ أعني أن المرء لا يستطيع الذهاب إلى الشرطة بعد كل هذه السنين، ولا أحسب أنهم سيخبرونني على أية حال، لأن من الواضح أنهم كانوا يحاولون التستر على الموضوع. ولكني أشعر أن من المهم الحصول على الحقيقة.

قالت السيدة أوليفر ببرود: أنا أكتب روايات فقط، وهي كلها خيالية. ولا أعرف شيئاً عن الجريمة شخصياً، وليست لدي آراء في علم الجريمة؛ ولذلك فإنني لا أستطيع مساعدتك بأي شكل.

- ولكن بوسعك أن تسألي سيليا.

حدقت بها السيدة أوليفر ثانية وقالت: أسأل سيليا؟! لا أرى

كيف يمكنني فعل ذلك. لقد كانت... يا إلهي! لا بد أنها كانت طفلة تماماً عندما حدثت تلك المأساة.

- ولكن أحسب -مع ذلك- أنها تعرف كل شيء عنها؛ فالأطفال يعرفون كل شيء دوماً، ومن شأنها أن تخبرك. أنا متأكدة أنها ستخبرك.

- أظن أن من الأفضل أن تسأليها بنفسك.

- لا أظن أن بوسعي حقاً القيام بذلك. لا أحسب أن ديزموند سيحب ذلك؛ فهو... فهو حساس قليلاً فيما يتعلق بسيليا، ولا أظن أن... كلا، أنا واثقة أنها ستخبرك.

قالت السيدة أوليفر: "أنا ما كنتُ لأحلم أبداً بسؤالها". ثم تظاهرت بالنظر إلى ساعتها وقالت: آه، يا إلهي! كم طال بنا الوقت في هذا الغداء البهيج. عليّ أن أركض الآن، فلديّ موعد مهم جداً. وداعاً يا سيدة... يا سيدة بيدلي-كوكس. إنني آسفة جداً إذ لا أستطيع مساعدتك، ولكن هذه الأمور حساسة بعض الشيء و... هل في ذلك أي فرق حقيقي بالنسبة لك أنت؟

- آه، أظن أن في ذلك فرقاً كبيراً جداً.

في تلك اللحظة عبرت أمامهما شخصية أدبية تعرفها السيدة أوليفر جيداً، فقفزت لتمسك بذراعها قائلة: عزيزتي لويس، كم هو رائع أن أراك! لم أنتبه إلى وجودك هنا.

- آه، أريادني! لقد مر وقتٌ طويل منذ رأيتك آخر مرة. لقد نَحُل جسمك كثيراً، أليس كذلك؟

قالت السيدة أوليفر وهي تتأبط ذراع صديقتها وتمضي مبتعدة: يا للعبارات الجميلة التي تقولينها لي! إنني مُستعجلة لأن لديّ موعداً.

قالت صاحبتها وهي تلتفت لتنظر إلى السيدة بيرتن-كوكس: أحسبك تورطتِ بصحبة تلك المرأة الفظيعة، أليس كذلك؟

- لقد كانت تسألني أغرب أنواع الأسئلة.

- آه، ألم تعرفي كيف تجيبين عنها؟

- نعم؛ فلم تكن أسئلة من شأني أنا على أية حال، ولا أعرف عنها شيئاً. ومع ذلك ما كنتُ لأرغب بالإجابة حتى لو عرفت.

- أكانت أسئلتها عن أمر مثير؟

قالت السيدة أوليفر وقد سمحت لفكرة جديدة أن تدخل رأسها: أحسب أنه قد يكون أمراً مثيراً، إلاّ أنها...

- إلاّ أنها كانت منهمكة في مطاردتك. هيا، سأشرف على إخراجك وأوصلك إلى أي مكان تريدينه إن لم تكن سيارتك معك.

- أنا لا أستخدم سيارتي داخل لندن؛ فمن العسير العثور على مكان لإيقافها فيه.

- أعرف ذلك، وهو أمر مزعج جداً.

وزّعت السيدة أوليفر عبارات الوداع والشكر وعظيم السرور، وسرعان ما كانت تستقل سيارة صاحبتها في طرقات لندن. قالت الصديقة اللطيفة: عنوانك في أيتون تيراس، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن المكان الذي سأذهب إليه الآن هو... أظنه يُدعى وايتفرايرز مانشينز. لا أستطيع تذكر الاسم تماماً، ولكني أعرف موقعه.

- آه، إنه مجمع للشقق. شقق حديثة بعض الشيء، مربعة الشكل ومتناسقة.

- هذا صحيح.

* * *

الفصل الثاني

أول ذِكر للأفيال

بعد أن فشلت السيدة أوليفر في العثور على صديقها هيركيول بوارو في بيته اضطرت للجوء إلى إجراء بحث عبر الهاتف. سألت: هل ستكون في بيتك الليلة؟

جلست قرب هاتفها وأصابعها تنقر على الطاولة بشيء من العصبية. جاءها صوت بوارو: هل أنت...؟

قالت السيدة أوليفر (التي كانت تندهش دوماً إذ تجد نفسها مضطرة لإعطاء اسمها لأنها كانت تتوقع من كل أصدقائها أن يعرفوا صوتها بمجرد سماعهم له): أريادني أوليفر.

- نعم، سأكون في البيت طوال هذه الليلة. هل يعني ذلك أنني سأُسعد بزيارة منك؟

- لطفٌ بالغ منك أن تُعبِّر عن الأمر بهذا الشكل، لا أحسب أنها ستكون مصدر سعادة إلى هذا الحد.

- إن لمن السعادة دوماً أن أراك يا سيدتي.

- لا أدري، ربما كنتُ... ربما كنتُ سأزعجك بعض الشيء، وأسألك عن بعض الأمور. أريد رأيك في أمرٍ ما.

قال بوارو: هذا ما أنا جاهز لإعطائه لأي شخص.

- لقد استجدّ شيء، شيء مُتعب، ولا أدري ماذا أفعل بشأنه.

- ولذلك ستأتين لرؤيتي؟ هذا شرف لي، شرف كبير حقاً.

- ما الوقت الذي يناسبك؟

- التاسعة؟ وربما شربنا القهوة معاً، إلاّ إذا كنتِ تفضلين عصير الرمان أو شراب التوت الأسود. ولكن، لا؛ تذكرتُ أنك لا تحبينه.

* * *

قال بوارو لخادمه الثمين: جورج، سنسعد هذه الليلة بتلقي زيارة من السيدة أوليفر. ولعلك تصنع لنا قهوة، أو ربما نوعاً من أنواع العصير. إنني لا أستطيع الجزم أبداً بما تحب من شراب.

- لقد رأيتُها تشرب شراب الكرز يا سيدي.

- وأحسبها تشرب أيضاً شراب النعناع، ولكني أظنها تفضل شراب الكرز. حسناً إذن، فليكن كذلك.

* * *

جاءت السيدة أوليفر في الوقت المحدد تماماً. قبل وصولها كان بوارو يتساءل -وهو يتناول عشاءه- عما عساه يدفع السيدة أوليفر إلى زيارته، ولماذا كانت مرتابة كثيراً فيما تفعله. هل ستُحضر له مشكلة صعبة ما، أم أنها تريد تعريفه بجريمة وقعت؟ كان بوارو يعلم جيداً أن الاحتمالات كلها واردة في حالة السيدة أوليفر؛ سواء في ذلك أكثر الأمور طبيعية وشيوعاً أو أكثرها غرابة واستهجاناً، ويمكن للمرء القول إن كل هذه الأمور كانت سواء عندها. رأى أنها كانت قلقة، ثم فكر قائلاً لنفسه إن بوسعه التعامل معها. كان ذلك بوسعه دوماً. كانت تثير جنونه في بعض الحالات، ولكنه كان -مع ذلك- معجباً بها كثيراً؛ فقد اشتركا معاً في خبرات وتجارب عديدة. وكان قد قرأ عنها في الصحيفة شيئاً في ذلك الصباح نفسه... أم أن ذلك كان في صحيفة المساء؟ ينبغي أن يحاول تذكر ذلك قبل أن تأتي... وقد تذكّره في اللحظة التي أُعلن فيها عن وصولها.

دخلت الغرفة، واستنتج بوارو على الفور أن تشخيصه للقلق كان صحيحاً تماماً. كانت تسريحتها (المعقدة إلى حدٍّ بعيد) قد فسدت نتيجة تمريرها أصابعها في شعرها بشكل عصبي محموم بالطريقة التي تلجأ إليها أحياناً. استقبلها بكل علامات السرور. أجلسها على كرسي، وسكب لها بعض القهوة، كما قدم لها كوباً من شراب الكرز.

قالت بزفرة ارتياح: آه! أظنك ستحسبني سخيفة جداً، ولكن مع ذلك...

- لقد رأيتُ في الصحيفة اليوم أنك كنتِ تحضرين غداء أدبياً

للكاتبات الشهيرات... شيء من هذا القبيل. وكنتُ أظنك لا تفعلين مثل هذه الأمور أبداً.

- أنا لا أحضر هذه الدعوات عادة، ولن أحضرها أبداً من بعد.

قال بوارو بلهجة فيها الكثير من التعاطف: آه، أعانيتِ كثيراً؟

كان يعرف لحظات حرج السيدة أوليفر حيث كان الإفراط في مدح رواياتها يزعجها دائماً إلى حدٍّ بعيد؛ لأنها -كما أخبرته ذات يوم- لا تعرف أبداً الإجابات المناسبة لذلك.

- ألم تستمتعي به؟

- استمتعتُ حتى نقطة معينة، ثم حدث أمر مزعج جداً.

- آه، وهذا هو ما جئتِ لرؤيتي من أجله.

- نعم، ولكني لا أعرف السبب فعلاً. أعني أن الأمر لا علاقة له بك، بل إنني لا أحسبه من الأمور التي يمكن أن تهتم بها. وأنا لا أهتم به حقاً. أو... لأقل إنني لا بد مهتمة بهذا الأمر، وإلاّ لما رغبتُ بالقدوم إليك لمعرفة رأيك، ولمعرفة... لمعرفة ما الذي كنتَ ستفعله لو كنتَ مكاني.

- هذا السؤال الأخير صعب جداً. إنني أعرف كيف يمكنني أنا -هيركيول بوارو- أن أتصرف في أي موقف، ولكني لا أعرف كيف ستتصرفين أنت، رغم معرفتي بك.

- لا بد أن لديك فكرة ما؛ فقد عرفتَني منذ زمن طويل.

- منذ متى كان ذلك تقريباً... من عشرين سنة؟

- آه، لا أعرف. أنا لا أستطيع أبداً تذكر الأعوام والتواريخ؛ فهي تختلط علي. أعرف عام ١٩٣٩ لأنه العام الذي بدأت فيه الحرب، وأعرف تواريخ أخرى بسبب أحداث غريبة وقعت فيها هنا وهناك.

- على أية حال، لقد ذهبتِ إلى غدائك الأدبي، ولم تستمتعي به كثيراً.

- بل استمتعتُ بالغداء، ولكن الأمر حصل بعد ذلك.

قال بوارو بلطف طبيب يسأل عن أعراض المرض: لقد قال لك الناس بعض الأشياء.

- الحقيقة أنهم كانوا يتأهبون لقول الأشياء لي، ولقد هبطت عليّ فجأة إحدى أولئك النساء الضخمات المسيطرات اللاتي يتمكنّ دوماً من السيطرة على أي شخص ويمكنهن أن يجعلنه يشعر بعدم ارتياح فظيع. كانت أشبه بشخص يُمسك بفراشة، ولم يكن ينقصها إلاّ شبكة صيد الفراش. لقد حاصرتني تقريباً، ودفعتني إلى أريكة، ثم بدأت تتكلم معي مستهلة بالحديث عن إحدى بناتي بالمعمودية.

- آه، نعم. عن ابنة تحبينها.

- أنا لم أرها منذ سنين طويلة. أعني أنني لا أستطيع متابعة

أمورهن جميعاً. ثم سألتني سؤالاً مزعجاً جداً؛ فقد أرادت مني... آه، يا إلهي! كم هو صعب عليّ قول ذلك!

قال بوارو بلطف: لا، ليس صعباً، بل هو سهل تماماً؛ فالجميع يقولون لي كل شيء عاجلاً أم آجلاً. أنا مجرد أجنبي غريب، ولذلك فإن الأمر لا يهم. إنه سهل لأنني أجنبي.

- من السهل -بعضَ الشيء- قولُ الأشياء لك. الحقيقة أنها سألتني عن والد ووالدة الفتاة. سألتني إن كانت أمها هي التي قتلت أباها، أم أن أباها هو الذي قتل أمها.

- عفواً، ماذا قلتِ؟

- آه، أعلم أن ذلك يبدو جنوناً... ولقد رأيتُ أنا أنه جنون.

- سألتْكِ إن كانت أم ابنتك بالمعمودية قد قتلت أباها، أم أن أباها هو الذي قتل أمها.

- بالضبط.

- ولكن، أكانت تلك حقيقة؟ هل أقدم أبوها على قتل أمها أو أقدمت أمها على قتل أبيها؟

- عُثر على الاثنين وقد أُطلقت عليهما النار فوق قمة صخرة. لا أذكر إن كان ذلك في كورنوول أو في كورسيكا... منطقة كهذه.

- أكان صحيحاً إذن ما قالته؟

- آه، نعم، لقد كان هذا الجزء صحيحاً، وهو قد حدث منذ سنوات طويلة. ولكن ما أعنيه هو: لماذا تأتي إلي؟

- لعل السبب في ذلك أنك تكتبين قصصاً عن الجرائم، ولا شك أنها قالت إنك تعرفين كل شيء عن الجرائم. أكان ذلك الذي حصل أمراً حقيقياً؟

- نعم. لم تكن المسألة مسألة ماذا يمكن لفلان أن يفعل... أو ماذا سيكون رد فعلك إذ قامت أمك بقتل أبيك أو قام أبوك بقتل أمك. كلا، بل كان ذلك أمراً حقيقياً وقع. أحسب أن من الأفضل حقاً أن أخبرك كل شيء عن الأمر. صحيح أنني لا أذكر كل شيء عنه، ولكن الحادث اشتُهر تماماً في ذلك الوقت. كان ذلك منذ نحو... منذ نحو اثني عشر عاماً على الأقل. وبوسعي -كما قلت لك- تذكّر أسماء الناس لأنني كنتُ أعرفهم؛ فقد كانت الزوجة معي في المدرسة وكنتُ أعرفها جيداً؛ كنا صديقتين. وقد ذاعت القضية كثيراً ونُشرت أخبارها في الصحف. إنها قضية السير أليستير رافنزكروفت والليدي رافنزكروفت. كانا زوجين سعيدين تماماً، وكان هو كولونيلاً أو جنرالاً، وكانت ترافقه في أسفاره بحيث تنقّلا في كل أنحاء العالم. ثم اشتريا ذلك البيت في مكان ما... لا أذكر بالضبط أين. ثم ظهرت فجأة تقارير عن هذه القضية في الصحف، ولا يُعرف إن كان شخصٌ ما قد قتلهما أم أن كلاً منهما قد قتل الآخر. أظن أنه كان في المنزل مسدس قديم جداً... ولكن، يُفضَّل أن أخبرك بالأمر قدر ما تسعفني الذاكرة.

وبعد أن استجمعت السيدة أوليفر نفسها قليلاً، تمكنت من

إعطاء بوارو ملخصاً واضحاً بعض الشيء عما قيل لها بشأن القضية. وكان بوارو يستفهم من وقت لآخر عن بعض النقاط. وأخيراً قال لها: ولكن لماذا؟ لماذا تريد هذه المرأة أن تعرف ذلك؟

- هذا ما أريد اكتشافه. أظن أن بوسعي العثور على سيليا. أحسبها ما زالت تعيش في لندن، أو ربما في كامبريدج أو أكسفورد. أحسبها نالت شهادة وأخذت تُدرّس هنا أو هناك، أو تقوم بعمل مشابه. إنها فتاة عصرية جداً وتخرج مع شباب ذوي شعر طويل وملابس غريبة. ولكن لا أحسبها تتعاطى المخدرات؛ فهي فتاة واعية لا غبار عليها... وتصلني منها أخبار في أوقات متباعدة جداً. أي أنها ترسل أحياناً بطاقة في أعياد الميلاد وما شابه ذلك. المرء لا يفكر بأبنائه في المعمودية طوال الوقت، وقد بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً أو ستة وعشرين.

- أهي متزوجة؟

- لا. الظاهر أنها ستتزوج (أو أن هذه هي الفكرة) ابنَ السيدة... ماذا كان اسمها؟ آه، نعم، السيدة بريتل... لا... السيدة بيرتن-كوكس.

- والسيدة بيرتن-كوكس لا تريد لابنها أن يتزوج هذه الفتاة لأن أباها قتل أمها أو لأن أمها قتلت أباها؟

- أحسب الأمر كذلك؛ فهذا هو التفسير الوحيد الذي يمكنني رؤيته. ولكن ما الذي يهمها من معرفة أيهما قتل الآخر؟ إن كان أحد

والديّ قد قتل الآخر، فهل سيكون مهماً بالنسبة لأم الفتى الذي سأتزوجه أن تحدد بالضبط أيهما قتل الآخر؟

- هذا شيء ربما كان على المرء أن يفكر فيه؛ إنه أمر مثير للاهتمام بالفعل. لا أعني بذلك أن قضية السير أليستير رافنزكروفت والليدي رافنزكروفت هي المثيرة للاهتمام. يبدو أنني أتذكر -بشيء من الغموض- قضية كهذه، وربما لا تكون نفس القضية. ولكن المثير للاهتمام بالفعل هو موقف السيدة بيرتن-كوكس الغريب جداً. ربما كانت موسوسة العقل قليلاً. هل هي شديدة التعلق بابنها؟

- ربما. ربما لا تريد له أن يتزوج هذه الفتاة أبداً.

- ألأنها قد تكون ورثت ميلاً لقتل الرجل الذي يتزوجها... أو شيئاً من هذا؟

- وكيف لي أن أعرف؟ لقد بدا أن تلك السيدة تظن أن بوسعي إخبارها، وهي لم تخبرني حقاً بالكثير، أليس كذلك؟ ولكن لماذا برأيك؟ ماذا يوجد خلف هذا الأمر كله؟ ما الذي كانت تعنيه؟

- سيكون من الممتع اكتشاف ذلك.

- حسناً، لهذا جئتُ إليك. أنت تحب اكتشاف الأمور التي لا تستطيع رؤية سبب لها في البداية... بل التي لا يستطيع أحد رؤية سبب لها.

- أتظنين أن لدى السيدة بيرتن-كوكس ما تُفضّله؟

- أتعني تفضيلها قتلَ الأب للأم أو الأم للأب؟ لا أظن ذلك.

- حسناً، إنني أفهم الحيرة التي تعانين منها. إنه أمر يشدّ المرء كثيراً. لقد جئتِ إلى هنا من حفلة، حيث طُلب منك أن تفعلي شيئاً بالغ الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلاً، وأنت تتساءلين عن الطريقة المناسبة للتعامل مع مثل هذا الأمر.

- حسناً، ما هي برأيك الطريقة المناسبة؟

- ليس من السهل عليّ قول ذلك؛ فلستُ امرأة. لقد جاءتك امرأة لا تعرفينها، فوضعت أمامك هذه المشكلة وطلبت منكِ حلّها، دون أن تُعطي سبباً مفهوماً لذلك.

- صحيح. والآن ما الذي تفعله أريادني؟ أو، بعبارة أخرى: ما الذي تفعله «الحائرة أ» لو كنتَ تقرأ ذلك في صحيفة؟

- أحسب أن «أ» تستطيع فعل واحد من ثلاثة أشياء. يمكنك، أولاً، أن تكتبي ملاحظة للسيدة بيرتن-كوكس تقولين فيها: "أنا آسفة جداً، ولكن أشعر حقاً أنني لا أستطيع خدمتك في هذه المسألة"، أو ما شئتِ من كلمات بهذا المعنى. ويمكنك، ثانياً، الاتصال بابنتك بالمعمودية بحيث تقولي لها ما طلبته منك والدة الفتى أو الشاب الذي تفكر بالزواج به وستعرفين منها إن كانت تفكر -فعلاً- بالزواج به. وإن كان الأمر كذلك، يمكنك أن تعرفي إن كانت لديها أية فكرة، أو ما إذا كان الشاب قد قال لها شيئاً عمّا يوجد في رأس الأم. بالاضافة إلى نقاط مثيرة أخرى، كمعرفة رأي الفتاة بأم الشاب

الذي ستتزوجه. أما الأمر الثالث الذي يمكنك فعله (وهو ما أنصحك به بقوة) فهو...

- أعرفه، إنه عبارة من كلمتين.

- «لا شيء».

- بالضبط. أعرف أن هذا هو التصرف المناسب والبسيط؛ أن لا أفعل شيئاً. فمن الوقاحة البالغة أن أذهب وأخبر الفتاة بما تطلبه حماتها المستقبلية من الناس. ولكن...

- أعرف، إنه الفضول البشري.

- أريد أن أعرف لماذا جاءت تلك المرأة الكريهة وقالت لي ما قالته. يمكنني أن أسترخي وأنسى الموضوع كله فور معرفتي بذلك، ولكن حتى ذلك الحين...

- فإنك لن تنامي. نعم، ستستيقظين في الليل وستخطر لك -إن كانت معرفتي بك صحيحة- أغرب الأفكار وأكثرها إسرافاً، وربما لا يطول بك الوقت قبل أن تتمكني من صياغة تلك الأفكار على شكل رواية بوليسية رائعة.

قالت السيدة أوليفر وقد التمعت عيناها قليلاً: أحسب أنني أستطيع القيام بذلك إذا ما فكرتُ في الموضوع على هذا النحو.

- اتركي الأمر وشأنه... هذه نصيحتي لك.

- ولكني أحب أن أتأكد من عدم وجود سبب وجيه.

تنهد بوارو وقال: إن الفضول الإنساني مسألة مثيرة جداً. وكم ندين للفضول في كثير مما شهدناه عبر التاريخ. لا أدري من اخترع الفضول! يقال إنه مرتبط بالقطط، وإن الفضول قتل القطة. ولكني أظن حقاً أن الإغريق هم مخترعوه؛ فقد أرادوا أن يعرفوا، وبقدر ما أعلم فإن أحداً قبلهم لم يحرص كثيراً على أن يعرف. لقد أراد الناس فقط أن يعرفوا قوانين البلد الذي يعيشون فيه وكيف يمكنهم تجنب قطع رؤوسهم أو صلب أجسادهم وتثبيتها بالمسامير أو غير ذلك من الأمور الكريهة التي قد تحدث لهم. ولكنهم كانوا بين مُطيع وعاصٍ، ولم يريدوا أن يعرفوا لماذا. غير أن كثيراً كثيراً من الناس -منذ ذلك الوقت- رغبوا في معرفة الأسباب، وبسبب ذلك حصلنا على كل تلك الإنجازات؛ السفن والقطارات والطائرات والقنابل الذرية والبنسيلين وعلاجات لمختلف الأمراض. صبي صغير يراقب غطاء الإبريق الذي وضعته أمه على النار وهو يرتفع بسبب ضغط البخار، ولا نلبث أن نسمع عن اختراع القطار البخاري، مما أدى -بعد ذلك- لاختراع إضرابات عمال السكك الحديدية... وغير ذلك، وهكذا دواليك.

قالت السيدة أوليفر: قل لي فقط، هل تظنني فضولية فظيعة تدس أنفها في كل شيء؟

- لا، لا أظنك كذلك. لا أظن أنك امرأة ذات فضول عظيم، ولكنني أستطيع تماماً أن أتخيلك وأنت تصلين إلى حالة من الانفعال في حفلة أدبية، مشغولة بالدفاع عن نفسك أمام فيض من اللطف وإفراط في المديح، ثم تصطدمين بمعضلة صعبة جداً، وتكرهين كثيراً المرأة التي أوقعتك فيها.

- نعم؛ إنها امرأة مُتعِبة جداً، وكريهة جداً.

- بالنسبة لجريمة القتل القديمة تلك (التي راح ضحيتها رجل وزوجته يُفترض أنهما كانا في وئام تام ولم توجد أي مؤشرات على شجارات بينهما)، ألها أي سبب حسب معلوماتك؟

- لقد أُطلِقت عليهما النار. نعم، أُطلِقت عليهما النار. من الممكن أن ذلك كان اتفاقاً على الانتحار، وأحسب أن الشرطة ظنوا ذلك في البداية. ولا يمكن للمرء طبعاً أن يكتشف مثل هذه الأمور بعد كل هذه السنين.

- آه، بلى. أحسب أن بوسعي أن أكتشف شيئاً عن الأمر.

- أتعني من خلال أصدقائك الرائعين؟

- ما كنتُ لأصفهم بالرائعين. لديّ -بالتأكيد- أصدقاء واسعو الاطلاع، أصدقاء يمكن لهم الحصول على بعض السجلات، وعلى قراءة الروايات التي ذُكرت في وصف الجريمة وقتها، بالإضافة إلى شيء من القدرة على إيصالي إلى بعض السجلات.

قالت السيدة أوليفر بشيء من الأمل: يمكنك اكتشاف الأمور ثم إبلاغي بها.

- نعم، أظن أن بوسعي مساعدتك في معرفة الحقائق الكاملة عن القضية على الأقل، رغم أن ذلك سيستغرق بعض الوقت.

- أرى أنك إن فعلتَ ذلك (وهو ما أريد منك فعله) فإنّ عليّ أنا أيضاً أن أفعل شيئاً. سيتعين عليّ مقابلة الفتاة، ورؤية ما إذا كانت

تعرف شيئاً عن هذا الأمر كله وسؤالها إن كانت تريد مني أن أطرد حماتها المرتقبة، أو إن كان يمكنني مساعدتها بأية طريقة أخرى. كما أنني أحب أيضاً رؤية الفتى الذي ستتزوجه.

- صحيح تماماً. ممتاز.

- وأحسب أنه قد يوجد أناس...

ثم توقفت وهي عابسة الوجه، فقال لها بوارو: لا أحسب أن الناس سيكونون ذوي فائدة كبيرة؛ فهذه قضية من الماضي، وربما كانت شهيرة في أوانها، ولكن ما قيمة القضية الشهيرة عندما يفكر بها المرء ملياً؟ ما لم تنتهِ بكشف مدهش (وهو ما لا ينطبق على هذه القضية) فإن أحداً لن يتذكرها.

- نعم، هذا صحيح تماماً. لقد كان في الصحف الكثير من أخبار القضية، وبقيت تذكر لفترة ما، ثم ما لبثت أن تلاشت (كما يحدث لكل الأمور الآن). كتلك الفتاة التي أشاروا لها قبل أيام؛ تلك التي تركت بيتها ولم يعثروا لها على أثر في أي مكان. كان ذلك قبل خمس سنوات أو ست، ثم قُدِّر لصبي صغير يلعب فوق كومة من الرمل أن يعثر فجأة على جثتها... بعد كل هذه السنوات!

- هذا صحيح. وصحيح أيضاً أن ما تقدمه الجثة من معلومات عن وقت الوفاة والأشياء التي حدثت في ذلك اليوم يتيح اكتشاف قاتل في النهاية (بعد مراجعة الحوادث العديدة التي يتوفر لها سجل مكتوب). ولكن الأمر سيكون أكثر صعوبة في قضيتك، إذ يبدو أن الجواب لا بد أن يكون واحداً من اثنين: إما أن الزوج كره زوجته

وأراد التخلص منها، أو العكس. ربما كانت الجريمة جريمة عاطفية وربما كانت شيئاً مختلفاً تماماً. وعلى أية حال، لن نجد ما يمكن اكتشافه فيها.. فلئن كان الشرطة قد فشلوا في العثور على شيء في ذلك الحين، فلا بد أن الدافع كان خفياً لا تسهل رؤيته؛ ولذلك لم تشتهر القضية إلاّ لفترة محدودة خبا بعدها بريقها. هذا كل ما في الأمر.

- أحسب أن بوسعي الذهاب إلى الفتاة. ربما كان هذا ما كانت المرأة الكريهة تدفعني إليه وتريده مني. لقد ظننت أن الفتاة تعرف... وربما كانت الفتاة تعرف؛ فالأطفال يعرفون -عادة- كما تعلم. إنهم يعرفون أشياء مذهلة جداً.

- ألديك أي فكرة عن مقدار عمر الفتاة عندما وقع الحادث؟

- يمكنني معرفة ذلك إذا ما حصرتُ ذهني، ولكن لا أستطيع الجزم بداهةً. أظن أنها كانت في نحو التاسعة أو العاشرة، ولكن لا أدري، ربما كانت أكبر من ذلك. لعلها كانت بعيدة في المدرسة وقتها. ولكن قد يكون ذلك خيالاً مني، أو تذكراً لما قرأته.

- ولكنك تظنين أن رغبة السيدة بيرتن-كوكس كانت تقضي بحصولك على المعلومات من الفتاة، أليس كذلك؟ ربما عرفت الفتاة شيئاً، وربما قالت شيئاً للابن فقال الابن بدوره شيئاً لأمه. أحسب أن السيدة بيرتن-كوكس قد حاولت شخصياً التحقيق مع الفتاة فلاقت صداً، ولكنها رأت أن السيدة أوليفر المشهورة يمكنها الحصول على المعلومات باعتبارها أُمّاً بالمعمودية للفتاة، بالإضافة إلى سعة معرفتها بأمور الجرائم، مع أنني ما زلت لا أفهم أهمية ذلك

بالنسبة لها. ولا يبدو لي أن من تسميتهم بغموض: «الناس» يمكنهم المساعدة بعد مرور كل هذا الوقت. هل من شأن أحد أن يتذكر؟

- في مثل هذه المسألة أظن أنهم يمكن أن يتذكروا.

نظر إليها بوارو بوجه حائر بعض الشيء وقال: أنت تدهشينني. وهل يتذكر الناس؟

- حسناً، لقد كنتُ أفكر بالفِيَلة.

- الفيلة؟

وكما فكر بوارو مراراً من قبل، رأى أنها -فعلاً- امرأة لا يمكن التنبؤ بأفكارها؛ فلماذا تذكر الأفيال فجأة؟

قالت: كنتُ أفكر بالأفيال على الغداء يوم أمس.

قال بوارو بشيء من الفضول: ولماذا كنتِ تفكرين بالأفيال؟

- الحقيقة أنني كنتُ أفكر بالأسنان. فكّرت بالأشياء التي يمكن أن يحاول المرء أكلها، وإن كانت لديه أسنان اصطناعية فإنه لن يستطيع أكل تلك الأطعمة بشكل جيد. يتعين عليك عندها أن تعرف ما تستطيع أكله وما لا تستطيع.

قال بوارو بزفرة عميقة: آه! نعم، نعم. يمكن لأطباء الأسنان أن يفعلوا لك الكثير، ولكنهم لا يستطيعون فعل كل شيء.

- بالضبط. ثم فكرتُ بأن أسناننا لا تعدو أن تكون عظاماً فقط، وليست قوية جداً، وكم هو جميل لو أن للمرء أسناناً كأسنان الكلب

ذي الأسنان العاجية الحقيقية. ثم فكرتُ بكل المخلوقات الأخرى ذات الأسنان العاجية، وفكرت بالفقمة و... وبأشياء أخرى كهذه. كما فكرتُ بالأفيال. عندما تفكر بالعاج فلا بد أن تفكر طبعاً بالأفيال، أليس كذلك؟ فهي ذات أنياب ضخمة من العاج.

قال بوارو (وهو لم يفهم بعد العبرة مما تقوله السيدة أوليفر): هذا صحيح جداً.

- وهكذا فكرتُ بأن ما علينا أن نفعله فعلاً هو أن نلجأ إلى أناس كالفيلة؛ إذ يُقال إن الفيلة لا تنسى.

- نعم، لقد سمعتُ هذه العبارة.

- «الفِيَلة لا تنسى». أتعرف تلك القصة التي رُبي عليها الأطفال؟ يروى أن خياطاً هندياً غرز إبرة في ناب فيل. لا، لا، ليس في نابه، بل في جسمه بالطبع. وعندما مر الفيل بجواره مرة أخرى بعد عدة سنوات كان يحمل ملء خرطومه ماءً فقذفه على الخياط فبلّله من رأسه حتى أخمص قدميه، رغم أنه لم يره منذ سنين! إنه لم ينسَ، بل تذكّر. هذه هي النقطة، وهي أن الأفيال تتذكر. إن ما عليّ أن أفعله هو الاتصال ببعض الأفيال.

- ما زلتُ لا أعلم إن كنتُ أفهم تماماً ما تعنينه. مَن الذين تُصنّفينهم باعتبارهم فِيَلة؟ أنت تبدين كمن يريد اللجوء إلى حديقة الحيوانات طلباً للمعلومات.

- الحقيقة أن الأمر ليس على هذا النحو تماماً. ليس مسألة فيلة باعتبارها فيلة، بل مسألة الطريقة التي يشبه الناس بها الفيلة إلى حدٍّ

ما. بعض الناس يتذكرون فعلاً، والحقيقة أن المرء يتذكر أموراً غريبة. أنا -مثلاً- أتذكّر كثيراً من الأمور بشكل جيد جداً. أذكر عيد ميلاد لي عندما كنتُ في الخامسة من عمري وأذكر الكعكة الحمراء الرائعة التي قُدمت وقتها وكان فوقها عصفور من السكر. وأذكر اليوم الذي طار فيه عصفور الكناري الذي أربيه وبكيتُ عليه. وأذكر يوماً آخر ذهبتُ فيه إلى حقلٍ فيه ثور وقال لي أحدهم إن الثور سينطحني فخفتُ وأردت الهرب. إنني أتذكر ذلك تماماً... وكان يوم ثلاثاء أيضاً. لا أدري لماذا أذكر أنه كان يوم ثلاثاء، ولكنه كان كذلك. كما أذكر رحلة رائعة لجنْي التوت البري، وأذكر أنني أُصبتُ بوخزات شديدة من الأشواك، ولكني جنيتُ من التوت أكثر من الآخرين جميعاً.. كانت رحلة رائعة! أظنني كنتُ في ذلك الوقت في التاسعة، ولكن المرء لا يحتاج للعودة إلى كل هذا الماضي السحيق. مثلاً أنا حضرتُ مئات الأعراس في حياتي، ولكني حين أسترجع فكرة العرس لا أتذكّر -بشكل خاص- سوى عرس لصديق لي في البحرية. كان قد أوشك على الغرق في إحدى الغواصات، ثم تم إنقاذه، ثم أن الفتاة التي كان يخطبها لم يوافق أهلُها على زواجها به، ولكنه تزوجها بعد ذلك... إن ما أعنيه هو أنه توجد دوماً أشياء يتذكرها المرء.

- أفهم ما تعنينه وأجده مثيراً للاهتمام. إذن فأنتِ ستخرجين بحثاً عن الفيلة؟

- نعم، وسيتعين عليّ تذكّر التاريخ بشكل صحيح.

- في هذه النقطة آملُ أن أستطيع مساعدتك.

- وبعدها سأفكر في أشخاص كنتُ أعرفهم في ذلك الوقت،

أشخاص يمكن أن أكون قد عرفتهم، وكانوا يعرفون نفس الأصدقاء الذين عرفتهم أنا. وأشخاص ربما عرفوا العائلة في الخارج، وأعرفهم أنا أيضاً، رغم أنني قد لا أكون التقيتهم منذ زمن طويل. الناس -في العادة- يسرّون كثيراً إذ يرون أحداً يظهر لهم من الماضي، حتى لو لم يتذكروا الكثير عنه، وعندها... من الطبيعي أن يتحدث المرء عمّا يتذكره من أمور حدثت في ذلك التاريخ.

- أمر مثير جداً. أحسبك في كامل الاستعداد لما أنتِ مُقدمة عليه. أشخاص عرفوا عائلة رافنزكروفت إما بشكل جيد أو بشكل سطحي... أشخاص عاشوا (أو ربما أقاموا) في نفس الأماكن التي حدثت فيها الأمور. الأمر صعب، ولكن أظن أن بوسع المرء أن يصل إليه. وهكذا، بطريقة أو بأخرى، يمكن للمرء أن يجرب أساليب مختلفة؛ كأن يبدأ حديثاً بسيطاً عما حدث، أو عما يظنون هم أنه قد حدث، أو عما قيل لهم من قِبَل الآخرين، عن أية علاقة غرامية كانت للزوج أو للزوجة، وأية أموال يمكن أن يكون أحدهما قد ورثها... أظن أن بوسعك تجميع الكثير من المعلومات.

- آه، يا إلهي! أخشى أن أكون حقاً مجرد متطفلة تدس أنفها فيما لا يعنيها.

- لقد أُوكلت لك مهمة، ليس من قِبَل شخص تحبينه أو تودين خدمته، بل من قبل شخص تكرهينه تماماً. ولكن هذا لا يهم؛ فأنت ما زلت في مهمة بحث، بحث عن المعرفة. وأنت تسلكين طريقك الخاص؛ طريق الأفيال. يمكن للأفيال أن تتذكر... رحلة سعيدة.

- عفواً، لم أفهمك.

- إنني أرسلك في رحلة اكتشافك... بحثاً عن الأفيال!

قالت السيدة أوليفر بحزن: أحسب أنني مجنونة.

ثم خللت أصابعها بين شعرها ثانية بحيث أصبحت أقرب إلى صور المجانين في الكتب القديمة وقالت: لقد كنتُ أفكر في البدء بكتابة قصة عن كلب صيد ذهبي، ولكنها لم تكن تسير على ما يرام. لم أستطع البدء بها، إن كنتَ تعرف ما أعنيه.

- حسناً، تخلي عن كلب الصيد الذهبي واشغلي نفسك بالأفيال فقط.

* * *

الكتاب الأول

الأفيال

الفصل الثالث

دليل العمة أليس للمعرفة

- أتستطيعين العثور على دفتر عناويني يا آنسة ليفنغستُن؟

- إنه على طاولتك يا سيدة أوليفر، عند الزاوية اليسرى.

- لا أعني ذلك الدفتر، فهذا ما أستعمله الآن. بل أعني آخر دفتر كان لديّ في العام الماضي، أو ربما العام الذي قبله.

قالت الآنسة ليفنغستُن: أترانا رميناه؟

- لا؛ أنا لا أرمي دفاتر العناوين وما شابهها لأن المرء غالباً ما يحتاجها. ربما كان في أحد أدراج المكتبة.

كانت الآنسة ليفنغستُن خادمة جديدة في المنزل حلّت محل الآنسة سيجويك. وقد افتقدت أريادني أوليفر كثيراً خادمتها السابقة الآنسة سيجويك التي كانت تعرف الكثير من الأمور. كانت تعرف الأماكن التي تضع فيها السيدة أوليفر أغراضها، ونوعية الأماكن التي تختارها السيدة أوليفر لحفظ حاجياتها. وكانت تذكر أسماء الناس

الذين كتبت لهم السيدة أوليفر رسائل لطيفة، وأسماء أولئك الذين كتبت لهم رسائل لا تخلو من وقاحة بعد أن طفح كيلها بإلحاحهم. فتاة لا تقدر بثمن، أو بالأحرى كانت فتاة لا تقدر بثمن. قالت السيدة أوليفر لنفسها وهي تسترجع الماضي البعيد: "كانت مثل... ماذا كان اسم ذلك الكتاب؟ آه، نعم، تذكرتُه... كتاب ضخم بني اللون كان جميع الفيكتوريين يقتنونه: «**ابحث في الداخل عن كل شيء**». وكان بوسع المر فعلاً أن يجد فيه كل شيء! كيف تزيل بقع الصدأ عن الشراشف، وكيف تتعامل مع تخثر المايونيز، وكيف تبدأ رسالة ودّية إلى صديق، وغير ذلك الكثير الكثير من الأمور التي تضمها كلها دفّتا «**ابحث في الداخل عن كل شيء**»... الاحتياطي العظيم الجاهز لدى العمة أليس.

كانت الآنسة سيجويك لا تقل جودة عن كتاب العمة أليس، أما الآنسة ليفنغستُن فلم تكن على نفس المستوى أبداً. كانت تقف دوماً هناك بوجهها الطويل جداً وسحنتها الشاحبة، متعمِّدةً إظهار الكفاءة. كان كل خطٍ من خطوط وجهها يقول «إنني قديرة جداً»، ولكن السيدة أوليفر لم ترَها حقاً كذلك؛ فهي لم تكن تعرف إلاّ تلك الأماكن التي كان مُستخدِموها السابقون من الأدباء يحتفظون فيها بأشيائهم، وبدا واضحاً أنها ترى أن على السيدة أوليفر أن تحتفظ بأشيائها في نفس الأماكن.

قالت السيدة أوليفر بثبات وتصميم طفل أفسده الدلال: إن ما أريده هو دفتر عناويني لعام ١٩٧٠، وربما عام ١٩٦٩ أيضاً. يُرجى أن تبحثي عنهما بأسرع ما يمكنك.

- بالطبع، بالطبع.

قالت ذلك وأخذت تنظر حولها بنظرة زائغة لشخص يبحث عن شيء لم يسمع به أبداً من قبل، ولكن الكفاءة قد تستطيع إخراجه بضربة حظٍ ما.

حدثت السيدة أوليفر نفسها قائلة: سأُجنُّ إن لم أُعِد سيجويك. لا أستطيع التعامل مع هذا الأمر إن لم تكن لديّ سيجويك!

بدأت الآنسة ليفنغستُن تفتح العديد من الأدراج في مكتب السيدة أوليفر وفي غرفة كتابتها، ثم ما لبثت أن قالت بسعادة: ها هو دفتر العام ١٩٧١. سيكون هذا مُحَدّثاً أكثر، أليس كذلك؟

- لا أريد عام ١٩٧١.

ثم جاءتها ذكريات مبهمة فقالت: ابحثي في طاولة حفظ أواني الشاي تلك.

نظرت الآنسة ليفنغستُن حولها وقد بدت عليها الحيرة، فأشارت السيدة أوليفر بإصبعها وقالت: تلك الطاولة.

قالت الآنسة ليفنغستُن وهي تُعلم مُستخدمتها الحقائق العامة للحياة: لا يمكن لدفتر عناوين أن يكون في طاولة حفظ أواني الشاي.

- بل هذا ممكن، يبدو أنني أذكر ذلك.

ثم نحّت الآنسة ليفنغستُن جانباً وذهبت إلى تلك الطاولة،

رفعت غطاءها ونظرت إلى النقوش الجميلة فيها من الداخل ثم صاحت: "وها هو هنا"! ورفعت غطاء علبة دائرية مُصممة لحفظ الشاي الصيني، وليس الهندي، ثم أخرجت منها دفتر ملاحظات صغيراً انثنت أطرافه وهي تقول: ها هو.

- ولكن هذا دفتر ١٩٦٨ يا سيدة أوليفر؛ قبل أربعة أعوام.

قالت السيدة أوليفر وهي تأخذ الدفتر إلى الطاولة: هذا -تقريباً- ما هو مطلوب. هذا يكفي في الوقت الحاضر يا آنسة ليفنغستُن، ولكن بوسعك أن تري إن كان بإمكانك العثور على سجل أعياد ميلادي في مكان ما.

- لم أكن أعرف...

- أنا لا أستعمله الآن، ولكن كان لديّ مثل هذا السجل يوماً ما. سجل ضخم تماماً؛ بدأتُ به منذ طفولتي واستمر لسنوات طويلة. أتوقع أن يكون في السقيفة في الأعلى؛ تلك التي نستخدمها غرفةً احتياطية أحياناً عندما لا يعدو الضيوف أن يكونوا أطفالاً جاؤوا لقضاء العطلة. يوجد ما يشبه الصندوق أو المكتب الصغير قرب السرير.

- آه، هل أبحث لأرى إن كان هناك؟

- نعم، هذا ما قصدتُه.

ثم تهللت أساريرها قليلاً عندما خرجت الآنسة ليفنغستُن من الغرفة. أغلقت السيدة أوليفر الباب بإحكام خلف الفتاة، ثم عادت

إلى المكتب وبدأت تبحث في العناوين المكتوبة بحبرٍ بَهُتَ لونه، وقد فاحت من الدفتر رائحة الشاي.

رافنزكروفت... سيليا رافنزكروفت. نعم، ١٤ فيشاكر ميوز، هذا هو عنوانها في تشيلسي. كانت تعيش هناك وقتها. ولكن جاء بعد ذلك عنوان آخر، في مكان ما يبدو أقرب إلى كيو بريدج.

قلّبت بضع صفحات أخرى وقالت: آه، نعم. يبدو هذا عنواناً لاحقاً. ماردايك غروف. أظنه يتفرع عن شارع فولهام... في مكان كهذا. هل لديها رقم هاتف؟ إنه محكوك كثيراً، ولكن أحسب أن هذا الرقم ثمانية، نعم. ثمانية... فلاكسمان. سأجربه على كل حال.

ذهبت إلى الهاتف، ولكن فُتح الباب وأطلت الآنسة ليفنغستُن قائلة: هل تظنين أن...

- لقد وجدتُ العنوان الذي أريده. استمري في البحث عن سجل أعياد الميلاد ذاك؛ فهو مهم.

- أتظنين أنك ربما تركتِه في بيتك السابق في سيلي هاوس؟

قالت السيدة أوليفر: "لا، لا أظن ذلك. استمري في البحث". ثم تمتمت بعد أن أغلقت الفتاة الباب: "وأنفقي في ذلك ما تشائين من الوقت".

أدارت الرقم وانتظرت، ثم فتحت الباب ونادت باتجاه أعلى الدرج: جربي البحث في ذلك الصندوق الإسباني المُطعّم بالنحاس. نسيت مكانه الآن... أظنه في الصالة تحت الطاولة.

لم تكن المحاولة الهاتفية الأولى للسيدة أوليفر موفقة؛ فقد بدا أنها اتصلت بسيدة تُدعى سميث بوتر بدت منزعجة وغير متعاونة، وليست لديها فكرة عن رقم الهاتف الحالي لمن كان يسكن قبلها في تلك الشقة تحديداً.

انكبت السيدة أوليفر على تفحص دفتر العناوين من جديد، واكتشفت عنوانين آخرين تم تسجيلهما على عجل فوق أرقام أخرى ولم يبدُ أنهما سيساعدان كثيراً. ورغم ذلك، ففي المحاولة الثالثة برز -من خلال خطوط الشطب والعناوين والأحرف الأولى- اسم رافنزكروفت مقروءاً بعض الشيء.

أقر صوت في الهاتف بمعرفة سيليا: آه، نعم يا عزيزتي، ولكنها لم تعش هنا منذ سنين. أظنها كانت في نيوكاسل عندما تلقيتُ آخر أخبارها.

قالت السيدة أوليفر: أخشى أنني لا أملك ذلك العنوان.

قالت الفتاة اللطيفة: نعم، ولا أنا أملكه كذلك. أظنها ذهبت لتعمل سكرتيرة لطبيب بيطري.

لم يبدُ في ذلك ما يفيد كثيراً. حاولت السيدة أوليفر مرة أو مرتين أُخريين، فلم تجد فائدة في العناوين التي كانت في آخر دفترين لها، وهكذا عادت إلى الوراء قليلاً. وقد اكتشفت النفط أخيراً (كما يمكن أن يُقال) عندما وصلت إلى آخر دفتر للعناوين، وهو دفتر عام ١٩٦٧. قال لها صوت في الهاتف: آه، تقصدين سيليا؟ سيليا رافنزكروفت، ألم يكن هذا اسمها؟ فتاة قديرة جداً. لقد عملت عندي

لأكثر من عام ونصف العام. نعم، فتاة قديرة جداً، وكنتُ سأسعد تماماً لو أنها بقيت معي أكثر من ذلك. أظنها ذهبت من هنا إلى مكان ما في شارع هارلي، لعل عندي عنوانها. لحظة...

ساد صمت طويل فيما كان السيد مجهول الاسم يبحث، ثم ما لبث أن قال: لديّ عنوان واحد هنا. يبدو أنه في مكان ما في أيلينغتُن. هل تظنين ذلك ممكناً؟

قالت السيدة أوليفر إن كل شيء ممكن. شكرته كثيراً ودونت العنوان وهو يقول لها: من الصعب جداً محاولة العثور على عناوين الناس؛ إنهم يرسلونها لك عادة على شكل بطاقة بريدية أو ما شابه ذلك، ولكن يبدو أنني أُضيعها دائماً.

قالت السيدة أوليفر إنها تعاني من نفس المشكلة هي الأخرى، وبذلك ختمت المكالمة. بعد ذلك حاولت رقم أيلينغتُن. هذه المرة أجابها صوت أجنبي ثقيل: ماذا تريدين، نعم... ماذا تقولين؟

- الآنسة سيليا رافنزكروفت؟

- آه، نعم، هذا صحيح تماماً. نعم، نعم، إنها تعيش هنا. لديها غرفة في الطابق الثاني. إنها خارجة الآن وليست في البيت.

- هل ستعود في وقت لاحق من هذا المساء؟

- آه، أظنها على وشك العودة الآن، ستأتي إلى البيت لتلبس من أجل الحفلة وتخرج.

شكرتها السيدة أوليفر على المعلومات وأقفلت الخط قائلة مع نفسها بشيء من الانزعاج: يا للفتيات!

حاولت أن تستذكر كم مضى على آخر مرة رأت فيها سيليا. لقد فقد المرء اتصاله بالناس... هذه هي القضية. وجدت أن سيليا في لندن الآن. ثم التفتت وقالت: نعم يا آنسة ليفنغستُن؟

وقفت الآنسة ليفنغستُن في الباب وهي تبدو منزعجة وقد تغير حالها وتزينت بالعديد من شبكات خيوط العنكبوت، مع طبقة عامة من الغبار، وهي تحمل رزمة من المجلدات المُغبرّة. قالت: لا أدري إن كان أيٌّ من هذه المجلدات سينفعك يا سيدة أوليفر. يبدو أنها تعود لسنين طويلة خلت.

كان في نبرتها شيء من الاستياء، وردّت أوليفر: هذا طبيعي.

- لا أدري إن كنت تريدين مني البحث عن شيء محدد؟

- لا أظن ذلك. ضعي هذه المجلدات فقط على زاوية الأريكة وسأتمكن من مراجعتها هذه الليلة.

قالت الآنسة ليفنغستُن وهي تبدو ساخطة أكثر فأكثر مع كل دقيقة: حسناً يا سيدة أوليفر. ولكن أحسب أن من الأفضل أن أنفض عنها الغبار قبل ذلك.

- سيكون هذا لطفاً كبيراً منك.

واستطاعت إيقاف نفسها في الوقت المناسب عن أن تقول:

وبالله عليك انفضي عن نفسك الغبار أيضاً. في أذنك اليسرى ستُّ شبكات عنكبوت!

نظرت إلى ساعتها ثم اتصلت برقم أيلينغتُن ثانية. الصوت الذي أجابها هذه المرة كان إنكليزياً بحتاً، وبه شيء من الحدة السريعة التي شعرت السيدة أوليفر أنها مرضية تماماً.

- الآنسة رافنزكروفت؟... سيليا رافنزكروفت؟

- نعم، أنا سيليا رافنزكروفت.

- حسناً، لا أحسب أنك ستتذكرينني جيداً. أنا السيدة أوليفر.. أريادني أوليفر. لم نلتقِ منذ زمن بعيد... أنا أمّك بالمعمودية.

- آه، نعم، بالطبع؛ أعرف ذلك. نعم، نحن لم نلتقِ منذ وقت طويل.

- كنتُ أتساءل إن كان بوسعي أن أراك، إن كان بوسعك القدوم لرؤيتي، أو أية صيغة تحبينها. هل لك أن تأتي لتناول وجبة أو...

- هذا صعب في الوقت الحاضر، حيث أعمل. أستطيع القدوم هذا المساء إن أحببتِ، في نحو السابعة والنصف أو الثامنة. لديّ موعد بعد ذلك ولكن...

- إن فعلتِ ذلك فسأكون سعيدة جداً جداً.

- سآتي بالطبع.

- سأعطيك العنوان.

أعطته لها، فقالت سيليا: حسناً، سأكون هناك. نعم، أعرف المكان جيداً.

سجلت السيدة أوليفر ملاحظة صغيرة على دفتر الهاتف ثم نظرت بشيء من الانزعاج إلى الآنسة ليفنغستُن التي دخلت الغرفة في تلك اللحظة وهي تكافح تحت ثقل ألبوم ضخم قائلة: تساءلتُ إن كان هذا ما تقصدينه يا سيدة أوليفر؟

- لا، ليس هذا. إن في هذا وصفات لطرق الطبخ.

- آه، يا إلهي! هذا ما به إذن.

قالت السيدة أوليفر وهي تأخذ الألبوم منها: حسناً، ربما كان من الأفضل أن أطّلع على بعضها أيضاً. اذهبي وألقي نظرة أخرى. لقد فكرتُ في خزانة حفظ الأغطية والشراشف، المجاورة للحمّام. يجب أن تبحثي في الرف العلوي فوق مناشف الحمّام؛ إنني أدس -أحياناً- بعض الأوراق والكتب هناك. انتظري لحظة، سأصعد وأنظر بنفسي.

بعد عشر دقائق كانت السيدة أوليفر تقلب صفحات ألبوم بهتت ألوانه، وكانت الآنسة ليفنغستُن تقف عند الباب وقد بلغت أقصى درجات المعاناة. قالت السيدة أوليفر إذ لم تعد تتحمل مرأى كل هذه المعاناة: حسناً، هذا جيد. يمكنك فقط أن تلقي نظرة في المكتب الموجود في غرفة الطعام، المكتب القديم المكسور. انظري إن كنتِ تستطيعين العثور على المزيد من دفاتر العناوين، وخاصة القديمة

منها. أي شيء يعود إلى نحو عشر سنوات مضت سيكون من المفيد إلقاء نظرة عليه. وبعد ذلك لا أظن أنني سأحتاج شيئاً آخر اليوم.

غادرت الآنسة ليفنغستُن.

قالت السيدة أوليفر وهي تُطلق زفرة عميقة وتجلس: "إني لأتساءل...". قلّبت صفحات سجل أعياد ميلادها وقالت: من ذا يكون أسعد حالاً؟ هي إذ تذهب أم أنا إذ أراها تذهب؟ بعد أن تأتي سيليا وتذهب ستكون أمامي ليلة كلّها عمل.

أخذت من كومة دفاتر التمارين التي تضعها فوق طاولة صغيرة بالقرب من مكتبها دفتراً جديداً وسجلت عليه بعض التواريخ وبعض الأسماء والعناوين الممكنة، واطّلعت على بعض الأمور الإضافية في دفتر أرقام الهاتف، ثم مضت لتتصل بالسيد هيركيول بوارو.

- آه، أهذا السيد بوارو؟

- نعم يا سيدتي، أنا شخصياً.

- هل فعلتَ شيئاً؟

- عفواً... فعلتُ ماذا؟

- أي شيء، ما سألتُك عنه بالأمس.

- نعم، بالتأكيد. لقد بدأتُ تحريك الأمور ورتبت للقيام ببعض التحريات.

قالت السيدة أوليفر (التي لا تملك إلاّ فكرة متواضعة عن مفهوم الرجال عن القيام بالأشياء): ولكنك لم تقم بها بعد.

- وأنتِ يا سيدتي العزيزة؟

- لقد كنتُ مشغولة جداً.

- آه! وما الذي كنتِ تفعلينه يا سيدتي؟

- أجمع الفِيَلة... إن كان ذلك يعني لك شيئاً.

- نعم، أظن أن بوسعي فهم ما تعنين.

- الغوص في الماضي ليس أمراً سهلاً، وإنه لمن المدهش حقاً أن ترى كم من الناس يمكن للمرء أن يتذكرهم عندما ينكبّ على النظر بالأسماء. ويا للأشياء السخيفة التي يكتبونها في سجلات أعياد الميلاد أحياناً! لا أدري ما الذي جعلني أرغب (وأنا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، أو حتى في الثلاثين) بأن يكتب لي الناس في سجل أعياد ميلادي. إنك تجد استشهاداً من شاعرٍ لكل يومٍ من أيام السنة، وبعض هذه الاستشهادات سخيفة جداً.

- هل وجدتِ في بحثك ما يشجعك؟

- ليس بالمعنى الحرفي تماماً، ولكني ما زلتُ أرى أنني أسير في الطريق الصحيح. لقد اتصلتُ بسيليا...

- آه، وهل سترينها؟

- نعم، ستأتي لرؤيتي... الليلة، بين السابعة والثامنة، إن هي

لم تتنكر لي. لا يمكن للمرء أن يجزم؛ فالشباب لا يُعتمد عليهم أبداً.

- هل بدت مسرورة باتصالك بها؟

- لا أدري، لم يبدُ عليها سرور خاص. إن لها صوتاً حاداً نافذاً. أتذكّر الآن أن آخر مرة رأيتُها فيها كانت قبل نحو ست سنوات، وقد رأيتُ وقتها أنها كانت مخيفة بعض الشيء.

- مخيفة؟ كيف؟

- ما أعنيه هو أنها كانت أقرب إلى أن تترأس هي عليّ من أن أترأس أنا عليها.

- يمكن لهذا أن يكون أمراً جيداً، وليس سيئاً.

- آه، أتظن ذلك؟

- إن كان الناس قد حزموا أمرهم على ألاّ يحبوك وتأكدوا من شعورهم هذا تماماً، فإنهم سيجدون -عندها- متعة أكبر في جعلك تدركين هذه الحقيقة، ولذا فإنهم سيكشفون لك من المعلومات أكثر مما يمكن أن يكشفوه لو كانوا يحاولون إظهار المودة واللطف.

- أتعني أن ذلك أفضل من تذللهم لي؟ نعم، لديك بعض الحق في هذه النقطة. أنت تعني أنهم -لو كانوا يتذللون- لأخبروني بالأشياء التي يرون أنها تسعدني، أما بالطريقة الأخرى فإنهم يكونون منزعجين مني، وسيقولون الأشياء التي يأملون أن تزعجني. أتكون سيليا من هذا الطراز؟ إنني أذكرها وهي في سن الخامسة بشكل

أفضل من تذكّري لها في أي سن آخر. كانت لها مربية، وكانت ترميها بحذائها.

- الطفلة ترمي المربية، أم المربية ترمي الطفلة؟

- بل الطفلة ترمي المربية بالطبع!

أعادت السماعة ثم ذهبت إلى الأريكة لتتفحص ذكريات الماضي المكدسة هناك. تمتمت مع نفسها بأسماء: ماريانا بونتارليه... نعم، بالطبع، لم أفكر بها منذ سنوات... ظننتُ أنها ميتة. آنا بريسبي... نعم، نعم، لقد عاشت في تلك المنطقة... إني لأتساءل الآن...

وفيما هي ماضية في ذلك، كان الوقت يمر... وقد دُهشت تماماً عندما قُرع جرس الباب، وذهبت بنفسها لفتحه.

* * *

الفصل الرابع

سيليا

كانت فتاة طويلة تقف على ممسحة الأرجل خارج الباب. وللحظة فقط، فوجئت السيدة أوليفر وهي تنظر إليها. هذه إذن سيليا. كان سمتُ الحيوية ودفق الحياة بادياً قوياً حقاً، وانتاب السيدة أوليفر الشعور الذي لا ينتاب المرء كثيراً.

رأت أنها أمام شخصية تعني شيئاً. ربما كانت عدوانية، وقد تكون صعبة، بل ربما كادت تكون خطيرة. واحدة من أولئك الفتيات اللاتي يحملن رسالة في الحياة ممّن قد يكرسن أنفسهن للعنف ويسعين وراء القضايا، ولكنها مثيرة للاهتمام. فتاة مثيرة بالتأكيد.

- تفضلي يا سيليا. لقد مر وقتٌ طويل جداً منذ أن رأيتك آخر مرة. كانت آخر مرة -كما أذكر- في أحد الأعراس، وأذكر أنك كنتِ ترتدين ثوباً من الشيفون بلون المشمش مع باقات زينة ضخمة لا أذكر من أي الزهور كانت، ولكنها أشبه بأزهار العصا الذهبية.

قالت سيليا رافنزكروفت: ربما كانت أزهار العصا الذهبية فعلاً؛

فقد كنا نعطس كثيراً... من حساسية غبار الطلع. كان عرساً فظيعاً! أذكره تماماً. عرس مارثا ليغورن، أليس كذلك؟ أبشع ملابس رأيتها في حياتي، وكان ثوبي أبشع ما لبسته في حياتي بالتأكيد!

- نعم، لم تكن الأثواب جميلة في أعين الجميع، ولكنك بدوت أفضل من الأخريات برأيي.

- هذا لطف منك، ولكني لم أشعر أنني بأفضل حالاتي.

أشارت السيدة أوليفر إلى كرسي، وتناولت زجاجة وقالت: أتحبين عصير التوت، أم تفضلين شيئاً آخر؟

- سأشرب عصير التوت.

- حسناً، تفضلي إذن. أحسب أن مكالمتي لك بهذا الشكل المفاجئ قد بدت غريبة لك بعض الشيء.

- آه، لا. لا أحسب أنها بدت كذلك بشكل خاص.

- أخشى أنني لست شديدة الحنان كأم بالمعمودية.

- ولماذا تكونين كذلك وأنا في مثل هذا العمر؟

- أنت محقة في هذه النقطة؛ يشعر المرء أن واجباته تنتهي في وقت معين. ولكن هذا لا يعني أنني أديت واجباتي -دوماً- على أكمل وجه. حسناً، سأقول لك لماذا كنتُ أحاول الاتصال بك: الأمر كله غريب بعض الشيء. أنا لا أخرج كثيراً لحضور الحفلات الأدبية، ولكن حدث وذهبتُ إلى إحداها يوم أمس الأول.

- نعم، أعرف. لقد رأيتُ ذكراً لذلك في إحدى الصحف، وكان اسمك مذكوراً؛ السيدة أريادني أوليفر، وقد استغربتُ بعض الشيء؛ لأنني أعرف أنك لا تذهبين عادة لمثل هذه الحفلات.

- نعم، وليتني لم أذهب إلى تلك الحفلة.

- ألم تستمتعي بها؟

- بل لقد استمتعتُ بها إلى حدٍّ ما. أنا لم أذهب إلى حفلة كهذه من قبل؛ ولذلك... المرء يجد دوماً ما يسليه في المرة الأولى، ولكنه يجد أيضاً ما يزعجه.

- وهل حدث شيء أزعجك؟

- نعم، وهو مرتبط بك بطريقة لا تخلو من غرابة. ولذلك رأيتُ... رأيتُ أن أخبرك به لأنني لم أرتَح لما حدث. لم أرتَح أبداً.

- يبدو أمراً مثيراً للاهتمام.

ثم رشفت من شرابها، فقالت السيدة أوليفر: جاءتني امرأة وتحدثت إليّ. لم أكن أعرفها، كما لم تكن تعرفني.

- ولكن هذا يحدث لك كثيراً فيما أظن.

- نعم، دائماً. إنها من مساوئ الحياة الأدبية. يأتيك الناس ويقولون: "إنني أحب رواياتك كثيراً، وأنا سعيد جداً بمقابلتك"... ومثل هذه الأمور.

- لقد عملتُ سكرتيرة لكاتب ذات يوم، وأعرف مثل هذه الأمور ومدى صعوبتها.

- حسناً، لقد واجهت إزعاجات ولكني كنتُ مستعدة لذلك. وبعد ذلك جاءتني تلك المرأة وقالت: أظن أن لك ابنة بالمعمودية تُدعى سيليا رافنزكروفت.

- لقد كان هذا غريباً بعض الشيء دون شك؛ أن تأتيك هكذا لتقول ذلك فقط. يبدو لي أنه كان عليها أن تصل إلى هذا الموضوع بشكل تدريجي، كأن تتحدث عن كتبك واستمتاعها بآخر رواياتك، أو أشياء مشابهة... ثم تنتقل إلى موضوعي. ماذا كان لديها ضدي؟

- ليس لديها شيء ضدك حسب معلوماتي.

- أكانت صديقة لي؟

- لا أدري.

ساد بعض الصمت، وارتشفت سيليا من شرابها ونظرت إلى السيدة أوليفر نظرة شديدة التفحص، ثم قالت: أنت تشدّين انتباهي فعلاً. لا أفهم تماماً ما الذي تهدفين إليه.

- حسناً، أرجو ألاّ تغضبي مني.

- ولماذا أغضب منك؟

- لأنني سأخبرك بشيء، أو أكرر شيئاً... وربما قلتِ إن الأمر لا يعنيني، أو أنه كان من المُفترض أن أكتمه ولا أذكره.

- لقد أثرتِ فضولي.

- لقد ذكرت لي اسمها، وكانت تُدعى السيدة بيرتن كوكس.

- آه!

كان تأوه سيليا مميزاً تماماً. قالت السيدة أوليفر: أتعرفينها؟

- نعم، أعرفها.

- لقد ظننتُ أنك تعرفينها دون ريب بسبب...

- بسبب ماذا؟

- بسبب شيء قالته.

- ماذا... عني؟ أنها تعرفني؟

- قالت إنها تظن أن ابنها سيتزوجك.

تغيرت تعابير سيليا. ارتفع حاجباها ثم نزلا ثانية. نظرت بكل إمعان إلى السيدة أوليفر وقالت: وأنت تريدين معرفة ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا؟

- كلا، لا أريد أن أعرف ذلك بشكل خاص، وأنا لم أُشر إلى ذلك إلاّ لأنه كان أحد الأمور التي قالتها لي. وقد قالت إنني -بسبب كوني أمك بالمعمودية- قد أستطيع طلب بعض المعلومات منك. وأفترضُ أنها قصدت قيامي بتمرير تلك المعلومات لها إذا ما حصلتُ عليها منك.

- أي معلومات؟

- حسناً، لا أحسب أنك ستحبين ما سأقوله الآن؛ فأنا نفسي لم أحبه. والحقيقة أنه خلّف لديّ شعوراً سيئاً جداً؛ لأنني أرى أنه كان... وقاحة فظيعة، وسوء أدب رهيباً لا يمكن غفرانه أبداً. لقد قالت: "هل تستطيعين أن تكتشفي إن كان أبوها قد قتل أمها أم كانت أمها هي التي قتلت أباها".

- قالت لك ذلك؟ طلبت منك فعل ذلك؟

- نعم.

- وهي لا تعرفك؟ أعني فيما غدا كونك كاتبة وتحضرين حفلة؟

- لم تكن تعرفني أبداً. لم يسبق لها أن قابلتني أبداً، كما لم يسبق لي أن قابلتها.

- هل وجدتِ ذلك بالغ الغرابة؟

- لا أدري إن كنتُ أرى غرابة في أي شيء تقوله تلك المرأة. لقد رأيتُ فيها -إذا صحّ لي القول- امرأة كريهة جداً.

- آه، نعم. إنها امرأة كريهة جداً بالفعل.

- وهل ستتزوجين ابنها؟

- حسناً، لقد فكرنا في هذا الموضوع... لا أدري. أتعرفين عن الموضوع الذي تحدثت عنه؟

- أعرف كل ما يمكن لامرئ يعرف عائلتك أن يعرفه.

- لقد اشترى أبي وأمي -بعد تقاعد أبي من الجيش- بيتاً في الريف، وقد خرجا -ذات يوم- ليمشيا معاً في نزهة على الطريق الصخري، ثم وُجدا هناك وقد أُطلقت النار عليهما كليهما. وُجِد مسدس مُلقى هناك. كان لوالدي، وقد كان يملك مسدسين في البيت. لم يوجد ما يثبت إن كان الأمر اتفاقاً على الانتحار أم أن أحدهما قتل الآخر ثم انتحر... ولكن ربما كنتِ تعرفين هذا كله من قبل.

- أعرف ذلك على علاّته... أظنه حدث قبل اثني عشر عاماً.

- نعم، نحواً من ذلك.

- وكنتِ أنتِ في نحو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة وقتها.

- نعم.

- لا أعرف الكثير عن الموضوع، حتى إنني لم أكن في إنكلترا وقتها. في ذلك الحين كنتُ في جولة لإلقاء محاضرات في أمريكا، وقرأت الخبر في الصحف التي كانت قد خصصت له مساحات واسعة لأنه كان من الصعب معرفة الحقائق الفعلية. لم يبدُ أيّ دافع؛ فقد كان والداك يعيشان دوماً حياة سعيدة معاً، وأذكر أن ذلك مما ذُكر. وقد اهتممتُ بالأمر لأنني كنتُ أعرف والديك عندما كنا أصغر من ذلك بكثير، وخاصة أمك؛ فقد كنتُ معها في مدرسة واحدة. وبعد ذلك تفرقت مسالكنا؛ تزوجتُ أنا وذهبت إلى مكان آخر، وتزوجت هي وسافرت... إلى الملايو فيما أذكر، إو إلى بلد مشابه، وذلك مع

زوجها العسكري. ولكنها طلبت مني أن أكون أماً بالمعمودية لك. ولأن والديك كانا يعيشان في الخارج فإنني لم أرَهما كثيراً لسنوات طويلة، وكنتُ أراك في مناسبات بعيدة.

- نعم. كنتِ تُخرجينني من المدرسة، أذكر ذلك... وتطعمينني طعاماً خاصاً جيداً أيضاً. كنتِ تقدمين لي طعاماً رائعاً.

- لقد كنتِ طفلة غير عادية، وكنتِ تحبين الكافيار.

- وما زلتُ أحبه، مع أنني لا أجد الآن من يقدمه لي كثيراً.

- لقد صُدمتُ إذ رأيت ذكر ذلك الحادث في الصحيفة. وكان ما ذُكر قليلاً جداً. فهمتُ أن ما صدر عن جلسة التحقيق كان حُكماً مفتوحاً يُقر وقوع الجريمة دون الإشارة إلى المجرم؛ فليس من دافع خاص، ولا ما يثبت أية نظرية... لا ذكر لمشاجرة، ولا إشارة إلى احتمال اعتداء خارجي. لقد صدمني ذلك، وبعدها نسيت الأمر. تساءلت بضع مرات عما عساه قد أدى إلى هذه الفاجعة، ولكن بما أنني لم أكن في البلد (بل في جولة في أمريكا كما أسلفت) فقد مرّ الأمر كله وخرج من ذاكرتي. ومرت عدة سنوات بعد ذلك إلى أن رأيتك من جديد، ومن الطبيعي أنني لم أتكلم معك في الأمر.

- نعم، إنني أقدر ذلك.

- تصادف المرءَ -خلال حياته- أمور غريبة جداً تحدث لأصدقاء له أو لمعارفه. فإذا كان الأمر أمر أصدقاء فإن المرء غالباً ما تكون لديه فكرة عن الأسباب والدوافع... كائناً ما كان الحدث. ولكن إذا كان وقت طويل قد مرّ منذ أن سمعتِ لأصدقائك ذكراً أو

تحدثتِ معهم فإنك تكونين جاهلة تماماً بأحوالهم، ولا يوجد أحدٌ يمكنك أن تُظهري له الكثير من الفضول حول الموضوع.

- لقد كنتِ دوماً لطيفة جداً معي؛ كنتِ ترسلين إليّ هدايا جميلة، وأذكر أنك أرسلتِ لي هدية رائعة جداً في عيد ميلادي الحادي والعشرين.

- ذلك هو الوقت الذي تحتاج فيه الفتيات لبعض النقود الإضافية في متناول أيديهن؛ إذ يوجد لديهن الكثير من الأمور التي يرغبنَ بأن يفعلنها أو يشترينها في مثل هذا الوقت.

- نعم، لقد رأيتُ فيك دوماً امرأة متفهمة وليس... أنت تعرفين كيف هي طبائع بعض الناس؛ يحققون ويطرحون أسئلة ويريدون معرفة كل شيء عن المرء. أنت لم تطرحي أسئلة أبداً... كنتِ تُخرجينني لرؤية بعض العروض، أو تقدمين لي وجبة رائعة، وتتحدثين معي كما لو كان كل شيء على ما يرام، وكما لو كنتِ إحدى قريبات العائلة البعيدات. وقد قدّرتُ ذلك منك؛ فلقد سبق لي أن عرفت في حياتي الكثير من الفضوليات اللاتي يدسسن أنوفهن في كل شيء.

- نعم. نحن -جميعاً- نعاني من أمثال هؤلاء عاجلاً أو آجلاً. لعلك تفهمين الآن ما أزعجني كثيراً في هذه الحفلة بالذات. لقد بدا أمراً غريباً جداً يطلب منكِ القيامَ به شخصٌ غريب تماماً كالسيدة بيرتن-كوكس. لم أستطع تخيل سبب يجعلها تريد أن تعرف؛ فلم يكن ذلك من شأنها بالتأكيد. ما لم...

- نعم، لقد قلتِ لنفسك: ما لم يكن الأمر متعلقاً بزواجي بابنها بديزموند.

- نعم، أحسب ممكناً أن يكون الأمر متعلقاً به، ولكني لم أستطع فهم كيفية ذلك، أو ما هو شأنها في ذلك.

- كل شيء هو شأنها. إنها فضولية جداً، والحقيقة أنها كما أسميتِها: امرأة كريهة!

- ولكني فهمتُ أن ديزموند ليس كريهاً.

- نعم، أبداً. أنا وديزموند متحابّان، ولكنّي لا أحب أمه.

- هل يحب هو أمه؟

- لا أدري حقاً، أحسب أنه قد يحبها... كل شيء ممكن، أليس كذلك؟ وعلى أية حال، فإنني لا أريد الزواج حالياً، لا أشعر بالرغبة في ذلك. كما أن أمامنا الكثير من الـ... من المصاعب... ولكن لا شك أن الأمر أشعرك بشيء من الفضول. أعني لمعرفة السبب الذي دفع السيدة فضولية-كوكس إلى أن تطلب منك محاولة نبش المعلومات مني ثم الركض للإفضاء بتلك المعلومات كلها لها... هل تحاولين أنت طرح ذلك السؤال المحدد بالمناسبة؟

- هل تعنين أنني أسأل ما إذا كنتِ تظنين أو تعرفين إن كانت أمك قد قتلت أباك أم أن أباك قتل أمك، أم أنه كان انتحاراً مزدوجاً. هل هذا ما تعنينه؟

- أحسب أن هذا ما أعنيه إلى حدٍّ ما. ولكن أظن أن عليّ أن

أسألك أيضاً -إن كنتِ تريدين أن تسأليني ذلك- فيما إذا كنتِ تفعلين ذلك بهدف إعطاء السيدة بيرتن-كوكس المعلومات التي تحصلين عليها... في حال حصولك على معلومات مني.

- كلا، كلا بكل تأكيد؛ ما كنتُ لأحلم بإخبار تلك المرأة الكريهة بشيء من هذا القبيل. سأخبرها بكل صرامة بأن ذلك ليس من شأنها، كما أنه ليس من شأني أنا، وأنني لا أنوي الحصول على أية معلومات منك ونقلها إليها.

- حسناً، هذا ما ظننتُه. ظننتُ أن بوسعي أن أثق بك إلى هذا المدى. لا مانع عندي من إخبارك بما أعرفه، على عِلاّته.

- لا حاجة بك لذلك؛ فأنا لا أطلبه منك.

- نعم، يمكنني أن أرى ذلك تماماً، ولكني سأعطيك الجواب مع ذلك. الجواب هو: لا شيء.

قالت السيدة أوليفر بتأمل: لا شيء.

- نعم. لم أكن هناك وقتها، أعني أنني لم أكن في البيت في ذلك الوقت. لا أذكر الآن تماماً أين كنت، ربما كنتُ في المدرسة في سويسرا، أو كنتُ أقيم مع إحدى صديقات المدرسة خلال عطلة المدارس. إن الأمر كله مختلط تماماً في عقلي بعد هذه السنين.

قالت السيدة أوليفر بارتياب: أحسب أن من غير المرجح أن تعرفي شيئاً، إذا ما أخذنا عمرك وقتها بعين الاعتبار.

- سأكون مهتمة بمعرفة شعورك إزاء هذا الموضوع. أتظنين أن من المرجح أن أعرف كل شيء عن الأمر؟ أم ألاّ أعرف؟

- حسناً، لقد قلتِ إنك لم تكوني في البيت. ولو أنك كنتِ في البيت وقتها لقلتُ: "نعم"، سيكون من المرجح أن تعرفي شيئاً ما عن الموضوع؛ فالأطفال يعرفون عادة... والمراهقون كذلك. الناس في مثل هذه الأعمار يعرفون الكثير ويرون الكثير، ولكنهم لا يتكلمون عن ذلك كثيراً. إنهم يعرفون -بالفعل- أشياء ما كان للعالم الخارجي أن يعرفها، كما يعرفون أشياء ليس من شأنهم أن يُظهروا استعداداً لقولها لمحققي الشرطة.

- نعم. أنت محقة تماماً فيما تقولين. ما كنتُ لأعرف... ولا أحسبني عرفت فعلاً، ولا أحسب أن لدي أية فكرة عن الموضوع. ماذا كان رأي الشرطة؟ أرجو ألاّ يكون لديك مانع من سؤالي هذا، لأنني مهتمة بمعرفة ذلك؛ فأنا لم أقرأ أية تقارير عن جلسة التحقيق أو غيرها، أو عن التحريات التي سبقتها.

- أظنهم رأوا أنه كان انتحاراً مزدوجاً، ولكن لا أحسب أنهم قد توصلوا إلى أي مؤشر عن سبب الانتحار.

- أتريدين معرفة رأيي؟

- لا أريده إن كنتِ لا تريدين إطلاعي عليه.

- ولكني أحسبك مهتمة؛ فأنت -في نهاية الأمر- تكتبين قصصاً بوليسية عن أناس يقتلون أنفسهم أو يقتل بعضهم بعضاً!

- نعم، سأعترف لك بذلك. ولكن آخر ما أريده هو جرح مشاعرك بالسعي إلى معلومات ليس من شأني معرفتها.

- الحقيقة أنني تساءلتُ... تساءلتُ كثيراً من وقت لآخر: "لماذا وكيف؟"، ولكني لم أعرف إلاّ القليل عن الأمور. أعني عن الكيفية التي كانت الأمور تجري بها في البيت؛ ففي العطل التي سبقت تلك الحادثة كنتُ في القارة الأوروبية ضمن برنامج تبادل، ولم أكن قد رأيت أبي وأمي كثيراً قبل ذلك. صحيح أنهما جاءا إلى سويسرا وأخرجاني من المدرسة مرة أو مرتين، ولكن الأمر لم يتعدّ ذلك. وقد ظهرا كما هو شأنهما دائماً إلى حدٍّ بعيد، ولكن بدا أنهما أكبر سناً. وأظن أن والدي كان مريضاً أو أنه كان يضعف. لا أدري إن كان ذلك بسبب القلب أو غير ذلك، فالمرء لا يفكر في معرفة السبب. وأمي أيضاً كانت قد بدأت تصبح عصبية... لم يكن الأمر وسواساً مرضياً تجاه صحتها، ولكنها أصبحت تميل قليلاً للتخوف على صحتها. وقد كانا على علاقات طيبة ودودة تماماً، ولم ألاحظ وجود شيء، باستثناء أن المرء... أن المرء تنتابه الأفكار أحياناً. ولا يرى المرء أنها صحيحة أو مُصيبة بالضرورة، ولكن المرء يتساءل فقط إن كان...

- لا أظن أنه يحسن الحديث في الأمر أكثر من هذا. لا حاجة بنا لأن نعرف أو نكتشف شيئاً. لقد مضى وانقضى الأمر كله، وقد كان الحكم الذي صدر مُرضياً تماماً. ما من أدلة تثبت شيئاً، وما من دافع أو أي شيء كهذا. ولكن لم تُطرح مسألة قيام والدك بقتل أمك عامداً، أو قيام أمك بقتل أبيك عامدة.

- لئن كان لي أن أفكر بأيِّ الأمرين كان أرجح لرأيتُ أن الأرجح أن والدي هو الذي قتل أمي؛ ذلك لأني أظن أن إقدام الرجل على قتل شخص هو أكثر طبيعية! لا أظن أن امرأة، أو امرأة كأمي، يُحتمل أن تقتل. وإني أرى أنها -لو أرادت القتل- لاختارت طريقة أخرى لذلك. لا، لا أحسب أن أياً منهما أراد موت صاحبه.

- إذن فقد يكون الفاعل خارجياً.

- نعم، ولكن ماذا يعني المرء بكلمة خارجي؟

- مَن كان يعيش في المنزل غير أبويك؟

- مدبرة منزل كهلة، نصف عمياء ونصف صماء، وفتاة أجنبية كانت نزيلة لتعلم الإنكليزية، وكانت مربيةً لي؛ فتاة لطيفة جداً، وقد عادت لتعتني بأمي التي كانت في المستشفى... وأقامت في البيت خالةٌ لي لم أحبها كثيراً. لا أظن أن أياً من هؤلاء يمكن أن يكون قد حمل ضغينة على والديّ. ولم يكن أحد ليستفيد من موتهما، باستثنائي أنا وأخي إدوارد الذي يصغرني بأربع سنوات. لقد ورثنا ما هو موجود من مال، ولكنه لم يكن كثيراً. كان لوالدي راتبه التقاعدي طبعاً، وكان لوالدتي دخل صغير خاص بها. لا، لم يوجد شيء ذو أهمية في هذا الجانب.

- إني آسفة، آسفة إذ أحزنتك بطرح كل هذه الأسئلة.

- لم تحزنيني، بل أعدتِ الأمر قليلاً إلى عقلي، وقد أثار ذلك اهتمامي، والسبب أنني الآن في عمر أتمنى معه لو كنتُ أعرف. لقد كنتُ مغرمة بهما، كما يُغرم المرء بأبويه. ليس بشكل جارف، بل

بالشكل الطبيعي، ولكني أدرك أنني لا أعرف كيف كانا حقاً؛ كيف كانت حياتهما، وماذا كانت اهتماماتهما. لا أعرف شيئاً عن الأمر كله. أتمنى لو كنتُ أعرف. الأمر أشبه بنبتة شائكة، أو شيء يعلق بك ولا تستطيعين تركه وشأنه. نعم، بودي لو أعرف؛ لأنني لن أضطر -وقتها- للتفكير في الأمر أكثر من ذلك.

- إذن فأنت تفكرين... تفكرين في الأمر؟

نظرت سيليا إليها للحظاتٍ وقد بدت وكأنها تحاول الوصول إلى قرار، ثم قالت: نعم.. أفكر طوال الوقت تقريباً، وقد بدأ ذلك يصبح وسواساً إن كنتِ تفهمين قصدي... وديزموند يشعر بنفس الشيء.

* * *

الفصل الخامس

للخطايا القديمة ظلالٌ طويلة

ترك هيركيول بوارو الباب الدوار يدور به، ثم أمسك بطرفه بإحدى يديه وخرج منه إلى مطعم صغير. لم يكن في المطعم الكثير من الناس؛ فقد كان الوقت غير مناسب، ولكن عينيه سرعان ما رأتا الرجل الذي جاء لمقابلته. نهض المفوض سبينس مربوع القامة المتين عن الطاولة في إحدى الزوايا وقال: جيد، لقد وصلت هنا. ألم تجد صعوبة في العثور على المكان؟

- أبداً؛ فقد كانت تعليماتك مناسبة جداً.

- دعني أُعرِّفكما الآن. هذا كبير المفوضين غاروي... السيد هيركيول بوارو.

كان غاروي رجلاً طويلاً ضعيفاً ذا وجه نحيل يوحي بالزهد والتقشف، وشعر أشيب تساقط عند قمة رأسه تاركاً بقعة دائرية صغيرة كأنها حلاقة الرهبان.

قال بوارو: هذا رائع.

قال غاروي: أنا متقاعد الآن بالطبع، ولكن المرء يتذكر. نعم، توجد أشياء معينة يتذكرها الإنسان، رغم أنها مضت وانتهت ولم يعد الجمهور يذكر شيئاً منها... نعم.

أوشك بوارو على القول: «الأفيال تتذكر»، ولكنه سيطر على نفسه في الوقت المناسب. كانت تلك العبارة مرتبطة في عقله الآن بالسيدة أريادني أوليفر إلى الحد الذي وجد صعوبة في كبحها عن لسانه كي لا تدخل في تفسيرات غير مناسبة أبداً.

قال المفوض سبينس: أرجو ألاّ يكون صبرك قد نفد.

سحب كرسياً إلى الأمام، وجلس الثلاثة. جيء بقائمة الطعام، وقام المفوض سبينس -الذي بدا واضحاً أنه مدمن على ارتياد هذا المطعم- بتقديم بعض النصائح الحذرة فيما يخص الطعام.

اختار بوارو وغاروي ما يريدانه، ثم استندا إلى الخلف في كرسييهما وأخذ كل واحد منهما يتأمل الآخر صامتاً للحظات قبل الكلام. ثم قال بوارو: يجب أن أعتذر لك. يجب -حقاً- أن أعتذر لك عن مجيئي إليك بمطالبي التي تخص قضية مضت وانتهت.

قال سبينس: ما يثير اهتمامي هو معرفة ما أثار اهتمامك أنت. رأيتُ -بدايةً- أن النبش في الماضي ليس من خصائصك، وهذا يعني أن الأمر مرتبط بشيء حدث في أيامنا هذه، أم أنه فضول مفاجئ إزاء قضية يتعذر تفسيرها؟ هل توافقني على ذلك؟

ثم نظر عبر الطاولة وأضاف: لقد كان كبير المفوضين غاروي

-وكان حينها مفتشاً- مسؤولاً عن التحقيق في قضية رافنزكروفت. وكان صديقاً قديماً لي، ولذلك لم أجد صعوبة في الاتصال به.

قال بوارو: وقد كان من اللطف بحيث جاء إلى هنا اليوم. ويجب أن أعترف بوجود فضول لديّ ليس من حقي -بالتأكيد- أن أشعر به إزاء قضية مضت وانتهت.

قال غاروي: ما كنتُ لأقول ذلك، فلدينا -جميعاً- اهتمامات ببعض القضايا التي مضت... هل قتلت ليزي بوردن أباها وأمها حقاً بفأس؟ بعض الناس ما زالوا لا يرون ذلك. من الذي قتل تشارلز برافو ولماذا؟ وُجدت عدة أفكار مختلفة، وأغلبها لا يُعتبر تفسيراً يستند إلى أساس مكين.

ثم نظرت عيناه الحادتان الذكيتان إلى بوارو وقال: وقد أظهر السيد بوارو في بعض الأحيان -إن لم تخنّي ذاكرتي- ميلاً للنظر في قضايا ماضية والعودة إلى الماضي... بحثاً عن جريمة قتل إذا صح التعبير، ولعل ذلك حدث مرتين، وربما ثلاثاً.

قال المفوض سبينس: ثلاث مرات بالتأكيد.

- وأظن أن تحقيقه في إحدى تلك القضايا كان بناء على طلب فتاة كندية.

قال بوارو: هذا صحيح. فتاة كندية متحمسة جداً، وعاطفية جداً، وقوية جداً، جاءت إلى إنكلترا للتحقيق في قضية قتل اتهمت بها أمُّها وحُكم عليها بالإعدام (رغم أنها ماتت قبل تنفيذ الحكم)، وكانت الفتاة مقتنعة بأن أمها بريئة.

سأله غاروي: وهل وافقتَها على ذلك؟

- لم أوافقها حين أخبرتني بالقصة بدايةً، ولكنها كانت شديدة الحماسة والثقة.

قال سبينس: كان من الطبيعي بالنسبة لفتاة أن تتمنى براءة أمها وأن تحاول إثبات براءتها رغماً عن كل الدلائل.

أجابه بوارو: كان الأمر أكثر من ذلك قليلاً؛ فقد أقنعتني بنوعية شخصية أمها.

- أكانت امرأة غير قادرة على القتل؟

- كلا، أنا واثق أنكما ستتفقان معي على أن من الصعب جداً القول بوجود شخص غير قادر أبداً على القتل (إن كان المرء يعرف طبيعة الناس وطبيعة الظروف التي أدت للقتل). ولكن في تلك القضية -تحديداً- لم تحتجّ الأم ببراءتها. بدت وكأنها مقتنعة تماماً بصدور الحكم عليها، وكان هذا الأمر غريباً بحد ذاته. أكانت المرأة انهزامية؟ لم يبدُ الأمر هكذا؛ فحين بدأت بتحقيقاتي أصبح واضحاً أنها ليست بالانهزامية، بل بوسعي القول إنها كادت تكون على العكس تماماً.

بدا الاهتمام على غاروي، وانحنى نحو الطاولة وهو يقتطع قطعة خبز من الرغيف على طبقه وقال: وهل كانت بريئة؟

- نعم، كانت بريئة.

- وهل أدهشك ذلك؟

- ليس بعدما أدركت الحقائق. كان لديّ أمر... أمر واحد بالتحديد، يُظهر أنه لم يكن ممكناً أن تكون مذنبة. حقيقة واحدة لم يدرك أحد قيمتها في ذلك الوقت. وكأن الجميع قد ظنوا أن عليهم أن ينظروا إلى قائمة الحقائق الماثلة أمامهم فقط، كما ينظر المرء إلى قائمة الطعام التي تمنع النظر إلى أماكن أخرى.

وُضعت أمامهم في تلك اللحظة سمكة مشوية. وقال سبينس: لقد وُجدت قضية أخرى غُصتَ فيها أيضاً في الماضي، وإن لم يكن بنفس الطريقة تماماً. قضية فتاة قالت في إحدى الحفلات إنها رأت ذات يوم جريمة قتل تُرتكب.

قال بوارو: في تلك الحالة أيضاً اضطُر المرء لأن... كيف أُعبّر عن ذلك؟ لأن يوجه خطاه إلى الخلف بدلاً من توجيهها إلى الأمام. نعم، هذا صحيح تماماً.

- وهل رأت الفتاة جريمةَ القتل تُرتكب؟

قال بوارو: "لا، لأنها كانت الفتاة الخطأ إذا صح التعبير". ثم أضاف بشيء من التقدير: هذه السمكة لذيذة!

قال المفوض سبينس: "إنهم يُعدون جميع أنواع السمك بشكل جيد جداً هنا". ثم أخذ شيئاً من طبق الصلصة الذي قُدم له قائلاً: صلصة لذيذة جداً.

شُغلت الدقائق الثلاث التي أعقبت ذلك بتقدير صامت للطعام، وأخيراً قال كبير المفوضين غاروي: عندما جاءني سبينس يسألني إن كنتُ أذكر شيئاً عن قضية رافنزكروفت، شعرت بالاهتمام والفرح.

- ألم تنسَ كل شيء عنها إذن؟

- إلاّ قضية رافنزكروفت؛ فليست بالقضية التي يسهل نسيانها.

سأله بوارو: أتوافقني على أنه كانت بها تناقضات؟ نقص في الأدلة، وحلول بديلة؟

- لا، لم يكن فيها شيء من ذلك. لقد سجلت كل الشهادات الحقائقَ المرئية؛ وفاتين كان لهما العديد من السوابق المماثلة، نعم، كان كل شيء واضحاً. ومع ذلك...

قال بوارو: نعم، أكمل.

- ومع ذلك كل الأمر كله خطأ.

قال سبينس وقد بدا عليه الاهتمام: آه!

التفت إليه بوارو وقال: هذا ما شعرتَ به أنت أيضاً ذات يوم، أليس كذلك؟

- بلى؛ في قضية السيدة ماغنتي.

- لم تكن مقتنعاً عندما اعتُقل ذلك الشاب الذي كان صعب المراس إلى أبعد الحدود. كانت كل الأسباب تدفعه لارتكاب الجريمة، وبدا وكأنه قد فعلها، ورأى الجميع أنه هو مرتكبها. ولكنك عرفتَ أنه لم يفعل ذلك، وقد كنتَ واثقاً من ذلك إلى الحد الذي جعلك تأتي إليّ وتطلب مني التدخل لأرى ما يمكنني فعله.

- أردتُ أن أرى إن كان بوسعك المساعدة... وقد ساعدتَ فعلاً، أليس كذلك؟

تنهد بوارو وقال: بلى، لحسن الحظ. ولكن كم كان ذلك الشاب مُتعِباً يستحق الشنق! لا لأنه قتل، بل لأنه ما كان ليساعد أحداً ليثبت أنه لم يقتل. لدينا الآن قضية رافنزكروفت. أتقول يا سيد غاروي إن شيئاً خطأ كان في القضية؟

- نعم، لقد شعرتُ بأنني واثق تماماً من ذلك، إن كنتَ تفهم ما أعنيه.

- نعم، أفهم ذلك، وكذلك سبينس. إن المرء يواجه مثل هذه الأمور أحياناً. تكون الأدلة ساطعة، والدافع، والفرصة، والمؤشرات الدالة، والإخراج، كلها تكون واضحة. صيغة متكاملة إذا صح التعبير، ولكن مع ذلك فإن أهل الصنعة يعرفون... يعرفون أن التركيبة كلها خطأ، تماماً كما يعرف ناقد في عالم الفن متى تكون لوحةٌ مزورةً. يعرف متى تكون زائفة وليست اللوحة الحقيقية.

قال كبير المفوضين غاروي: كما لم يكن أمامي شيء يمكنني عمله إزاء الأمر. نظرت في القضية، وحولها، ومن فوقها ومن تحتها إذا صح التعبير. تحدثتُ مع الناس المعنيين. فلم أجد شيئاً في الأمر. بدا الحادث وكأنه اتفاق على الانتحار، وكانت له كل علامات الاتفاق على الانتحار. وفي المقابل طبعاً، كان يمكن أن يكون الزوج هو الذي أطلق النار على زوجته ثم على نفسه، أو تكون الزوجة أطلقت النار على زوجها ثم على نفسها. كلٌ من هذه الخيارات الثلاثة يمكن

أن يحدث، وعندما يصادفها المرء فإنه يعرف أنها حدثت. ولكن يكون لديه في أغلب الحالات فكرة عن السبب.

سأل بوارو: وفي هذه القضية لم تكوّنوا أية فكرة حقيقية عن السبب، ألم تكن هذه هي المشكلة؟

- بلى، هذه هي. الحقيقة أنك فور أن تبدأ التحقيق في قضية، وفي الناس والأشياء، تصبح لديك صورة واضحة عموماً عن الكيفية التي كانوا يعيشون فيها حياتهم. كان أمامنا زوجان يكبران، للزوج سجل جيد، والزوجة مُحبة، مرحة... والزوجان على وفاق تام. هذا شيء سرعان ما يكتشفه المرء. كانا سعيدين في العيش معاً، يخرجان في نزهات، ويلعبان الورق والألعاب المنزلية الأخرى في الليالي، وكان لهما طفلان لا يسببان لهما أي قلق خاص؛ صبي في المدرسة في إنكلترا، وفتاة في مدرسة داخلية في سويسرا. لم يكن في حياتهما خطأ أو خلل حسبما يراه المرء. ومن الشهادة الطبية التي استطعنا الحصول عليها، يمكن أن نتأكد أنهما لم يعانيا من خلل صحي محدد. كان الزوج قد عانى من ارتفاع ضغط الدم ذات يوم، ولكنه اعتمد دواء مناسباً جعله في حالة جيدة وأبقاه طبيعياً. وكانت زوجته ضعيفة السمع، كما كانت تعاني من متاعب بسيطة في القلب، ولكن لم يوجد شيء مقلق فعلاً. قد يكون ممكناً بالطبع -كما يحدث أحياناً- أن تكون لأحدهما مخاوفه على صحته؛ فالكثير من الناس يتمتعون بصحة جيدة ولكنهم مقتنعون تماماً بأن لديهم سرطاناً، ويكونون واثقين تماماً من أنهم لن يعيشوا حتى العام القادم. ولكن الزوجين رافنزكروفت لم يكونا من هذا النوع؛ فقد بدا أنهما كانا متزنين وهادئين تماماً.

سأل بوارو: ماذا كان رأيك إذن؟

- المشكلة كانت في أنني لم أستطع التفكير بتفسير معقول. قلتُ لنفسي -وأنا أعيد النظر في القضية- إنها كانت انتحاراً؛ إذ لا يمكن أن تكون غير ذلك. لقد قررا -لسبب أو لآخر- أن الحياة لم تعد تُحتمل بالنسبة إليهما. ليس بسبب متاعب مالية، ولا لصعوبات صحية، ولا بسبب التعاسة. وهنا وصلتُ إلى طريق مسدود. كانت كل علامات الانتحار موجودة، ولم أستطع رؤية أي شيء آخر يمكن أن يكون قد حصل باستثناء الانتحار. لقد خرجا في نزهة، وأخذا معهما مسدساً، وكان المسدس مُلقى بين الجثتين وعليه بصمات مُبهمة لكليهما. لقد تناولاه كلاهما في الحقيقة، ولكن لم يكن عليه ما يشير إلى هوية آخرِ من أطلق الرصاص منهما. ويميل المرء إلى الظن بأن الزوج هو الذي أطلق على الزوجة النار ثم على نفسه. وهذا التفسير لا يخطر بالبال إلاّ لأنه يبدو أكثر احتمالاً. حسناً، لماذا؟ لقد مرت سنوات طويلة، ولكن عندما يُذكّرني شيء ما بالقضية بين الحين والآخر، وعندما أقرأ في الصحف عن جثتي رجل وزوجته ميتين في مكان ما بعدما انتحرا، فإنني أعود للتفكير، ثم أتساءل ثانية عمّا حدث في قضية رافنزكروفت. لقد مر أكثر من اثني عشر عاماً وأنا ما أزال أذكر قضية رافنزكروفت وأتساءل، وأحسب أنها دوماً الكلمة نفسها: لماذا... لماذا... لماذا؟ هل كرهت الزوجة زوجها حقاً وأرادت التخلص منه؟ هل استمرا في كراهية بعضهما بعضاً حتى لم يعودا يتحملان ذلك؟

أخذ غاروي قطعة أخرى من الرغيف وراح يمضغها، ثم قال:

ألديك فكرة ما يا سيد بوارو؟ هل جاءك أحدهم وأخبرك بشيء أيقظ اهتمامك بشكل خاص؟ هل تعرف شيئاً يمكن أن يُفسر «السبب»؟

- كلا. ومع ذلك لا بد أنه كانت لديك نظرية ما. هيّا، قل... كانت لديك نظرية، أليس كذلك؟

- أنت مُحق تماماً بالطبع؛ تكون للمرء عادة نظريات. ويتوقع المرء صحتها جميعاً، أو صحة واحدة منها على الأقل، ولكنها لا تصح عادة. أحسب أن نظريتي -في النهاية- كانت أنك لا تستطيع البحث عن السبب؛ لأنك لا تعرف ما يكفي من الحقائق. فما الذي كنتُ أعرفه عنهما؟ لقد كان الجنرال رافنزكروفت يقترب من الستين من عمره، وكانت زوجته في الخامسة والثلاثين. كان كل ما أعرفه عنهما -إذا توخيت الدقة- منحصراً في السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياتهما. كان الجنرال قد تقاعد وأحيل للمعاش، وكانا قد عادا إلى إنكلترا من الخارج، وكل الشهادات التي جاءتني وكل ما أعرفه كان يتعلق بفترة وجيزة امتلكا خلالها بيتاً في بورنماوث، ثم انتقلا إلى حيث عاشا في المنطقة التي وقعت فيها المأساة. كانا قد عاشا هناك حياة هادئة سعيدة، وكان ابناهما يعودان إلى البيت لقضاء العطل المدرسية. أظنها كانت فترة هادئة في خاتمة حياة يفترض المرء أنها كانت هادئة أيضاً. أنا أعرف عن حياتهما بعد التقاعد في إنكلترا وعن العائلة عموماً... لا وجود لدافع مادي، ولا لدافع كراهية، ولا لدافع تورط بعلاقة غرامية تقتحم عليهما حياتهما. كلا، ولكن كانت قبل ذلك فترة. فما الذي أعرفه عنها؟ ما كنتُ أعرفه هو أنها حياة قُضي معظمها في الخارج، مع زيارات متباعدة للوطن، وسجل جيد للرجل، وذكريات رائعة تحتفظ بها صديقات الزوجة عنها.

لا وجود لأي مأساة بارزة. ولكن، مع ذلك، ربما كنتُ لا أعرف الحقائق. لا يمكن للمرء أن يجزم؛ لقد غابت عني فترة تبلغ نحواً من عشرين سنة أو ثلاثين، منذ طفولتهما إلى أن تزوجا، والفترة التي عاشاها في الملايو وغيرها من الأماكن. ربما كانت جذور المأساة هناك. يوجد مَثَلٌ اعتادت جدتي ترديده يقول: «**للخطايا القديمة ظلال طويلة**». أكان سبب المأساة كامناً في أحد الظلال الطويلة... في ظل من الماضي؟ ليس من السهولة اكتشاف أمر كهذا. يمكنك إكتشاف ما يخص سجل رجل ومعرفة ما يقوله أصدقاؤه ومعارفه عنه، ولكنك لا تعرف أية تفصيلات داخلية. وأحسب أن النظرية بدأت تنمو شيئاً فشيئاً في عقلي وفحواها أن الماضي هو المكان الذي ينبغي أن يتم البحث فيه... إن كنتُ أستطيع البحث فيه! لا بد أنه شيء حدث هناك، وربما في بلد بعيد... شيء ظُنّ أنه نُسي ومرّ وانتهى، ولكنه بقي موجوداً. ضغينة من الماضي... حدثٌ لم يعرف أحدٌ به، وقع في مكان ما... لو كان بوسع المرء أن يعرف أين يبحث عنه.

قال بوارو: أنت تعني أن مثل هذا الأمر ليس من الأمور التي يمكن لأحد أن يتذكرها، وأعني بذلك تذكرها في أيامنا هذه. شيء لا يعرفه أحدٌ من أصدقائهما في إنكلترا.

- يبدو أن صداقاتهما في إنكلترا لم تبدأ إلاّ بعد التقاعد، رغم أنني أرى أن الأصدقاء القدامى كانوا يأتون لزيارتهما ورؤيتهما بين آونة وأخرى. ولكن المرء لا يسمع عن الأمور التي حدثت في الماضي، والناس ينسون.

كرر بوارو متأملاً: نعم، الناس ينسون.

قال كبير المفوضين غاروي وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: الناس ليسوا كالفِيَلة... يقولون دوماً إن الأفيال تتذكر كل شيء.

أجابه بوارو: من الغريب أن تقول ذلك.

- أتعني قولي الخاص بالخطايا القديمة؟

- لا، ليس ذاك. بل إن إشارتك للفيلة هي التي أثارت اهتمامي.

نظر غاروي إلى بوارو بشيء من الدهشة وبدا أنه ينتظر المزيد، كما ألقى سبينس -بدوره- نظرة إلى صديقه القديم وقال: ربما كان شيء قد حدث في الشرق. أعني... أعني أن ذلك هو المكان الذي تأتي منه الأفيال، أليس كذلك؟ أو أنها تأتي من أفريقيا. على كل حال، مَن الذي كان يتحدث معك عن الأفيال؟

قال بوارو: "صدف أن ذكرتها صديقة لي". ثم وجّه كلامه للمفوض سبينس قائلاً: صديقة تعرفها؛ السيدة أوليفر.

- آه، السيدة أريادني أوليفر. عجباً!

- لماذا العجب؟

- هل تعرف صاحبتنا شيئاً إذن؟

- لا أظن ذلك حتى الآن.

ثم أضاف متأملاً: ولكنها قد تعرف شيئاً عما قريب. إنها من تلك النوعية من الناس... تحوم وتتقصى، إن كنتَ تفهم قصدي.

قال سبينس: نعم، نعم. هل لديها أية أفكار؟

سأل غاروي بشيء من الاهتمام: هل تقصدان السيدة أريادني أوليفر الكاتبة؟

- نعم، هي.

- هل تعرف الكثير عن الجرائم؟ أعرف أنها تكتب روايات عن الجرائم، ولم أعرف أبداً من أين تأتي بأفكارها أو بحقائقها.

قال بوارو: أما أفكارها فتأتي بها من رأسها، وأما حقائقها... فذلك أمر أكثر صعوبة.

ثم سكت لحظة فسأله سبينس: أنت تفكر بشيء يا بوارو؟

- نعم. لقد أفسدتُ واحدة من رواياتها مرة، أو هذا ما قالته لي. كانت قد خطرت لها فكرة ممتازة تخص إحدى الحقائق، شيء ذو علاقة بسترة صوفية ذات أكمام طويلة. وقد سألتُها عن شيء في الهاتف فأدت مكالمتي لإخراج فكرة القصة من رأسها، وهي تؤنبني على ذلك بين الحين والآخر!

قال سبينس: يا إلهي، يبدو هذا أشبه بحكاية عرق البقدونس الذي انغمس في الزبدة في يوم حار... أو كقصة شيرلوك هولمز والكلب الذي لا يفعل شيئاً في الليل.

سأل بوارو: أكان لديهما كلب؟

- عفواً، ماذا قلت؟

- هل كان لديهما كلب؟ أعني الجنرال والليدي رافنزكروفت؟ هل أخذا كلباً معهما في تلك النزهة يومَ مقتلهما؟

قال غاروي: كان لهما كلب... نعم، أظن... أظن أنهما كانا يأخذانه في نزهات في غالب الأيام.

علّق سبينس قائلاً: لو كانت هذه إحدى قصص السيدة أوليفر لكنتَ وجدتَ الكلب يعوي منتحباً عند الجثتين، ولكن ذلك لم يحدث.

هز غاروي رأسه بالنفي، وقال بوارو: أتساءل أين يمكن أن يكون الكلب الآن؟

أجابه غاروي قائلاً: أظنه مدفوناً في مكان ما؛ لقد مر على الأمر أربعة عشر عاماً.

قال بوارو متأملاً: لا يسعنا -إذن- أن نذهب ونسأل الكلب، أليس كذلك؟ أمر مؤسف. أتعلم أن ما تعرفه الكلاب أمر مدهش؟ حسناً، من كان هناك في البيت بالضبط؟ أعني يوم وقوع الجريمة؟

- أحضرتُ لك قائمة لترجع إليها إن أردت. السيدة ويتكر، وهي طباخة ومدبرة منزل عجوز، وقد كان ذلك اليوم يوم عطلتها؛ ولذلك لم نستطع الحصول منها على كبير فائدة (وقد كانت السيدة ويتكر ضعيفة السمع وتكاد تكون عمياء أيضاً، ولم تستطع إبلاغنا بشيء ذي أهمية، باستثناء أن الليدي رافنزكروفت كانت مؤخراً في مستشفى أو مصحة... للأعصاب، وليس لمرض جسمي فيما يبدو).

وكانت تقيم في البيت زائرة كانت سابقاً مربيةً لطفلَي رافنزكروفت فيما أظن... وكان يوجد بستاني أيضاً.

- ولكن كان يمكن أن يأتي غريبٌ من الخارج... غريبٌ من الماضي. أليست هذه فكرتك يا سيد غاروي؟

- ليست فكرة مؤكدة بقدر ما هي نظرية.

صمت بوارو. كان يفكر في أزمنة عاد فيها إلى الماضي في قضايا مثيرة، ولكنها كانت مُجزية في النهاية؛ إذ أنه اكتشف الحقيقة فيها.

* * *

الفصل السادس

صديقة قديمة تذكر

حين عادت السيدة أوليفر إلى البيت صباح اليوم التالي وجدت الآنسة ليفنغستُن تنتظرها قائلة: لقد جاءتكِ مكالمتان هاتفيتان يا سيدة أوليفر.

- ممّن؟

- الأولى من شركة كريشتُن آند سميث، وقد أرادوا معرفة ما إذا كنتِ قد اخترتِ قطعة القماش الخضراء أم الزرقاء الفاتحة.

- لم أحزم أمري بعد. ذكِّريني بذلك صباح غدٍ، إذ أريد رؤيتهما في ضوء الليل مساء.

- والمكالمة الأخرى كانت من أجنبي، شخص يدعى بوارو.

- آه، نعم. وماذا أراد؟

- سأل إن كان بوسعك الذهاب لرؤيته بعد ظهر اليوم.

- سيكون ذلك مستحيلاً تماماً. هل لك أن تتصلي به؟ عليّ أن أخرج ثانية على الفور. هل ترك رقم هاتف؟

- نعم.

- حسناً إذن؛ لن نضطر للبحث عن الرقم ثانية. اتصلي به وأخبريه أنني آسفة لعدم تمكني من الذهاب إليه، وأنني خرجتُ في أثر أحد الأفيال.

- عفواً، ماذا قلتِ؟

- قولي له إنني في أثر أحد الأفيال.

- آه، نعم.

قالتها الآنسة ليفنغستُن وهي تَنظر بحدة إلى مُستخدِمتها لترى إن كانت محقة في المشاعر التي تنتابها أحياناً وتحس معها بأن السيدة أوليفر -رغم أنها روائية ناجحة- فإنها في نفس الوقت غير متمكنة تماماً من قواها العقلية.

قالت السيدة أوليفر: أنا لم أصطد أفيالاً من قبل أبداً، رغم أنها عملية مثيرة تماماً.

ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس ففتحت المجلد العلوي المستقر فوق رزمة الدفاتر على الأريكة، تلك الدفاتر التي بدا عليها البلى أكثر من ذي قبل، بعد أن قضت الليلة السابقة وهي تعبث بها إلى أن كتبت ورقة مليئة بمختلف العناوين. قالت: حسناً، لا بد للمرء أن يبدأ من مكان ما. وعموماً فإنني أظن أن بوسعي أن أبدأ بجوليا إذا

لم تكن قد خرفت تماماً بعد مرور كل هذا الوقت. فقد كانت دوماً صاحبة أفكار، وهي -فوق ذلك- تعرف تلك المنطقة من البلد لأنها عاشت قريباً منها. نعم، أظنني سأبدأ بجوليا.

قالت الآنسة ليفنغستُن: هنا أربعة رسائل تنتظر توقيعك.

- لا وقت لدي الآن. لا أستطيع أن أضيع دقيقة فعلاً؛ عليّ أن أذهب إلى هامبتن كورت، وهي مسافة بعيدة تماماً.

* * *

جاهدت الليدي جوليا كارستيرز ببعض الصعوبة لتنهض عن كرسيها، تلك الصعوبة التي يجدها من تجاوزوا سن السبعين إذ يريدون النهوض بعد فترة راحة، أو حتى بعد سِنَة من النوم، ثم تقدمت قليلاً وهي تحدق لترى من هي تلك التي أنبأتها بوصولها وصيفتها المخلصة التي تتقاسم معها الشقة التي تسكنها بحكم منزلتها عضوةً في جمعية «بيوت ذوي الامتيازات». وبما أنها كانت ضعيفة السمع، فإنها لم تسمع الاسم بوضوح. أكان الاسم هو السيدة غوليفر؟ ولكنها لا تذكر أحداً بهذا الاسم. تقدمت قليلاً على ركبتين ترتعشان قليلاً وهي تحدق أمامها.

- لا أتوقع أن تتذكريني؛ فقد مرت سنوات طويلة على آخر لقاء لنا.

كشأن معظم العجائز، كان بوسع السيدة كارستيرز أن تتذكر الأصوات بشكل أفضل من تذكرها للوجوه. هتفت: آه، يا إلهي، أريادني! يا عزيزتي، كم هو رائع أن أراك!

ومرت التحيات. فقالت السيدة أوليفر تفسيراً لزيارتها: لقد صدف وكنتُ في هذه المنطقة، إذ اضطررتُ للمجيء لرؤية شخص في مكان قريب من هنا. ثم تذكرتُ أنني شاهدتُ في دفتر عناويني بالأمس أن هذا المكان قريب جداً منك ومن شقتك.

ثم أضافت وهي تتلفت حولها: شقة بهيجة، أليس كذلك؟

- ليست سيئة كثيراً. إنها لا ترقى تماماً إلى الوصف المكتوب لها، ولكن لها الكثير من الحسنات؛ إذ يمكن للمرء أن يأتي إليها بأثاثه وما شابه ذلك، كما يوجد هنا مطعم مركزي يمكنك فيه تناول وجبة، أو يمكنك -بالطبع- إعداد طعامك الخاص. نعم، إنها شقة جيدة حقاً والحدائق المحيطة رائعة وتنال عناية دائمة. ولكن اجلسي يا أريادني، اجلسي. تبدين في أحسن حال. قرأتُ في الصحيفة أنك كنتِ في غداء أدبي قبل أيام. كم هو غريب أن يقرأ المرء عن شخص في الصحيفة ثم لا يلبث أن يراه في اليوم التالي. أمر غريب جداً.

قالت السيدة أوليفر وهي تأخذ الكرسي الذي قُدِّم لها: أعرف، الأمور تجري على هذا النحو أحياناً، أليس كذلك؟

- أما زلتِ تعيشين في لندن؟

أجابتها السيدة أوليفر بالإيجاب، ثم سألتها عن ابنتها وعن حفيديها، وسألت عن الابنة الأخرى التي بدا أنها تعمل في نيوزيلاندا، ولكن لم يبدُ أن السيدة كارستيرز واثقة تماماً من طبيعة عملها، ربما كان نوعاً من البحوث الاجتماعية.

ضغطت السيدة كارستيرز على زر جرس كهربائي مثبت على

ذراع كرسيها، وطلبت من إيما إحضار الشاي. وقد رجتها السيدة أوليفر ألاّ تزعج نفسها، ولكن جوليا كارستيرز قالت: لا بد لأريادني أن تشرب شاياً بالطبع.

اتكأت المرأتان في كرسييهما تتذكّران أطفال الآخرين، وموت الأصدقاء. قالت السيدة كارستيرز: لقد مرت سنوات طويلة منذ أن رأيتك آخر مرة.

- أظن أن ذلك كان في عرس ليويلينز. نعم، لا بد أنه كان في مثل ذلك التاريخ. وكم بدت مويرا فظيعة بذلك اللون المشمشي الكريه الذي كانت ترتديه!

- نعم، لم يناسبها.

- لا أظن أن الأعراس جميلة الآن كما كانت في أيامنا؛ فبعض النساء يرتدين ثياباً غريبة تماماً... بل والرجال كذلك! قبل أيام حضرت إحدى صديقاتي عرساً وقالت إن العريس كان يرتدي نوعاً من الساتان الأبيض المُبطن، مع زركشات عند العنق. أمر في غاية الغرابة! وكانت الفتاة ترتدي بدلة غريبة ببنطال. وكانت البدلة بيضاء أيضاً، ولكنها مُبقّعة كلها بنقشة أوراق النفل.

- أيُعقل هذا يا عزيزتي أريادني، إنه لأمر غريب حقاً، وفي الكنيسة أيضاً! لو كنتُ أنا الكاهن لرفضت عقد قرانهما.

جاء الشاي، واستمر الحديث.

- لقد قابلتُ قبل أيام ابنتي بالمعمودية، سيليا رافنزكروفت. هل تذكرين عائلة رافنزكروفت؟ كان ذلك منذ سنين طويلة بالطبع.

- رافنزكروفت؟ انتظري لحظة. إنهما صاحبا تلك المأساة المؤسفة التي حدثت، أليس كذلك؟ ألم يروا فيها وقتها انتحاراً مزدوجاً كما أذكر؟ قرب بيتهما في أوفركليف.

- إن لك ذاكرة رائعة يا جوليا.

- نعم، كانت ذاكرتي دوماً قوية، رغم أنني ألاقي صعوبة في الأسماء أحياناً. نعم، لقد كان حادثاً مأساوياً جداً.

- في غاية المأساوية بالفعل.

- كان أحد أبناء عمومتي يعرفهم معرفة جيدة في الملايو، وهو رودي فوستر. كان الجنرال رافنزكروفت قد أمضى حياة مهنية متميزة جداً، ولكنه كان ضعيف السمع عندما تقاعد؛ لم يكن يسمع دوماً ما يُقال له.

- هل تتذكرينهما جيداً؟

- آه، نعم. إن المرء لا ينسى الناس حقاً، أليس كذلك؟ لقد عاشا في أوفركليف لأكثر من خمس سنوات أو ست سنوات.

- لقد نسيتُ اسم الزوجة الأول الآن.

- أظنه مارغريت، ولكن الجميع كانوا ينادونها مولي. نعم،

مارغريت. كان الكثير من النساء يُسمّون مارغريت في تلك الفترة، أليس كذلك؟ وكانت عادة ما تضع باروكة، أتذكرين؟

- آه، نعم؛ لا أذكر التفصيلات تماماً، ولكني أذكر ذلك.

- كانت تقنعني بالحصول على باروكة؛ قالت إنها مفيدة جداً عندما يسافر المرء للخارج، وكان لديها أربع باروكات مختلفة. واحدة للمساء، والأخرى للسفر، وواحدة... أمر غريب جداً. كانت لديها واحدة يمكنك وضع قبعة فوقها دون أن يفسد ترتيبها.

- لم أكن أعرف باروكاتها كما تعرفينها أنت. وعندما وقعت المأساة كنتُ في جولة لإلقاء المحاضرات في أمريكا؛ ولذلك فإنني لم أسمع فعلاً أية تفصيلات.

- الحقيقة أن الحادث كان لغزاً كبيراً... المرء لا يدري بما حصل، ولكن دارت الكثير من القصص حول الموضوع.

- ما الذي قالوه في جلسة التحقيق؟ أظن أن جلسة تحقيقٍ عن الموضوع قد عُقدت، أليس كذلك؟

- آه، بلى، بالطبع. اضطر الشرطة للتحقيق في القضية، وكانت واحدة من تلك القضايا التي لا يمكن الجزم فيها، واكتفوا بالقول إن الوفاتين نتجتا عن طلقات مسدس. لم يستطيعوا الجزم بطبيعة ما حدث. بدا ممكناً أن يكون الجنرال رافنزكروفت قد أطلق النار على زوجته ثم على نفسه، ولكن بدا واضحاً أن العكس ممكن بنفس الدرجة. على أن الذي رُجّح -فيما أظن- أن يكون الأمر اتفاقاً على الانتحار، إلا أن الشرطة لم يستطيعوا الجزم بكيفية حدوث ذلك.

- ألم يُطرح احتمال كونها جريمة؟

- أبداً. لقد قيل -بكل وضوح- إنه ما من مؤشر على تدخل إجرامي. أعني أنه لم يُعثر على بصمات أو إشارات على اقتراب أحد منهما. لقد غادرا البيت في نزهة بعد شرب الشاي عصراً كما كانا يفعلان في غالب الأيام، ولم يعودا إلى البيت لتناول العشاء، وهكذا خرج الخادم (أو البستاني) للبحث عنهما، ووجدهما ميتين كليهما، وكان المسدس قرب الجثتين.

- كان مسدسه، أليس كذلك؟

- بلى. كان لديه مسدسان في البيت؛ فالعسكريون السابقون هؤلاء يحتفظون عادة بسلاح، أليس كذلك؟ أعني أنهم يشعرون بأمان أكثر بسبب ما يحدث في أيامنا هذه. وكان لديه مسدس ثان أبقاه في الدُرج في البيت، بحيث يُفترض... يُفترض أنه قد خرج حاملاً مسدسه عن عمد. لا أظن أن من المحتمل أن تخرج الزوجة في نزهة وهي تحمل مسدساً.

- كلا، كلا، ما كان ذلك بالأمر السهل.

- لم يكن -في الأدلة التي قُدِّمت- ما يُظهر وجود أية تعاسة أو شجار بينهما أو أي سبب يدفعهما للانتحار، ولكن المرء لا يعرف -طبعاً- الأشياء الحزينة التي توجد في حياة الناس.

- نعم، نعم. لا يمكن للمرء أن يعرف. كم هي صحيحة هذه العبارة يا جوليا! هل كانت لديك أية فكرة شخصياً؟

- حسناً، إن المرء يتساءل دوماً يا عزيزتي.

- نعم، يتساءل المرء دائماً.

- قد يكون الأمر وجود مرضٍ ما لديه. أظن أنه ربما أُبلغ بأنه سيموت من السرطان. ولكن الأمر لم يكن كذلك كما بينت الشهادة الطبية. كان بصحة جيدة، رغم أنه كان يعاني من... ماذا يسمون ذلك المرض؟... التاجي؟ أهذا ما أعنيه؟ يبدو ذلك وكأننا نتحدث عن التيجان، ولكن المقصود مرض يتعلق بالنوبات القلبية، أليس كذلك؟ كان يعاني من ذلك، ولكنه شفي منه، وكانت هي عصبية جداً. كانت دوماً عُصابية.

قالت السيدة أوليفر: "نعم، كأنني أتذكر ذلك. أنا لم أعرفهما جيداً بالطبع، ولكن..."، ثم سألت فجأة: أكانت تضع باروكة؟

- الحقيقة أنني لا أذكر ذلك. كانت تضع باروكتها دائماً... أعني واحدة من باروكاتها.

- كنتُ أتساءل فقط، فقد شعرتُ -على نحو ما- بأنكِ إن كنتِ تعتزمين إطلاق النار على نفسك... أو حتى على زوجك... فلا أحسبك ستضعين باروكتك، أليس كذلك؟

ناقشت المرأتان هذه النقطة ببعض الاهتمام، ثم قالت السيدة أوليفر: ما الذي ترينه حقاً يا جوليا؟

- كما قلتُ يا عزيزتي: إن المرء يتساءل. قيلت أشياء، ولكن الأقاويل ليست أمراً جديداً في نهاية الأمر.

- أقاويل عنه أم عنها؟

- لقد قيل إنه كانت توجد شابة. نعم، وأظنها كانت تقوم له ببعض أعمال السكرتارية؛ فقد كان يكتب مذكراته عن حياته المهنية في الخارج (وأظن أن ناشراً كلّفه بذلك) وكان يملي عليها تلك المذكرات. بعض الناس قالوا... لا أدري، ولكنك تعلمين كلام الناس أحياناً. قالوا إنه ربما ارتبط بتلك الفتاة بطريقة ما. لم تكن صغيرة السن كثيراً، بل تجاوزت الثلاثين... كما لم تكن بالغة الجمال، ولا أظن... لم تحدث أية فضائح فيما يتعلق بها، أو أي شيء آخر، ولكن مع ذلك، فإن المرء لا يدري. لقد ظن الناس أنه ربما أطلق النار على زوجته لأنه أراد... لأنه ربما أراد الزواج بها، نعم. ولكني لم أُصدق تلك الأمور أبداً.

- ماذا كان رأيك أنت؟

- حسناً، لقد تساءلتُ قليلاً بشأنها هي.

- أتعنين أن رجلاً قد ذُكر؟

- أظن أن شيئاً من هذا كان في الملايو... قصةً سمعتُ بها تقول إنها تورطت مع شاب يصغرها كثيراً، وسبّب الأمر شيئاً من الفضيحة. نسيت أين كان ذلك. ولكنه كان -على أية حال- قبل زمن طويل، ولا أحسب أن شيئاً قد ترتب عليه.

- ألا تظنين أن أية أقاويل قد ثارت هنا في الوطن؟ ألم تكن لأيٍ منهما علاقات خاصة مع أحدٍ في الجوار؟ ألم يقم أي دليل على مشاجرات بينهما، أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا أظن ذلك. لقد قرأت كل شيء عن الموضوع وقتها. وقد ناقشتُ الأمر بالطبع؛ لأن المرء لا يملك إلاّ الشعور بأن الأمر لا يخلو... لا يخلو حقاً من قصة حب مأساوية من نوعٍ ما.

- ولكنك ترين أن مثل هذه القصة لم توجد، أليس كذلك؟ لقد كان لهما طفلان، وكانت ابنتي بالمعمودية أحدهما طبعاً.

- آه، نعم، وكان لهما ابن أيضاً. أظنه كان صغيراً تماماً وقتها، في مدرسة في مكان ما. ولم تكن الفتاة قد تجاوزت الثانية عشرة، لا، بل كانت أكبر من ذلك، وكانت مع عائلة في سويسرا.

- أكانت في العائلة -فيما تظنين- متاعب عقلية؟

- آه، تعنين لدى الصبي؟ نعم، ربما كان يوجد شيء من ذلك؛ فالمرء يسمع أموراً غريبة جداً؛ كمثل ذلك الصبي الذي أطلق النار على أبيه... في مكان ما قرب نيوكاسل كما أظن. حدث ذلك قبل سنوات من قضية رافنزكروفت. كان الفتى مكتئباً جداً، وأظن أنهم قالوا إنه حاول -في البداية- شنق نفسه في الجامعة، ثم جاء وأطلق النار على أبيه، ولم يعرف أحدٌ السبب تماماً. ولكن -في كل الأحوال- لم يكن في عائلة رافنزكروفت شيء من هذا القبيل. كلا، لا أظن ذلك، بل الحقيقة أنني متأكدة من ذلك. ولكن بطريقة ما، فإنني لا أملك إلاّ أن أشعر...

- نعم، بماذا يا جوليا؟

- لا أملك إلاّ أن أشعر بأنه ربما كان يوجد رجل ما.

- أتعنين أنها...

- نعم، الحقيقة... الحقيقة أن المرء يرى ذلك محتملاً، فلديك الباروكات مثلاً.

- لا أفهم تماماً علاقة الباروكات بالأمر.

- هذا يعني أنها تريد تحسين شكلها.

- أظنها كانت في الخامسة والثلاثين.

- بل أحسبها كانت في السادسة والثلاثين. كما أنني... حسناً، لقد أرتني باروكاتها ذات يوم، وكان بعضها يجعلها تبدو جميلة تماماً، وكانت تستخدم الكثير من المساحيق... وقد بدأ هذا كله بعد أن قدما للعيش هناك فيما أظن. كانت امرأة على جانب من الجمال.

- أتعنين أنها ربما قابلت أحداً، أو رجلاً؟

- حسناً، هذا ما كنتُ دوماً أظنه. فالحقيقة أن الرجل -عندما يخرج مع فتاة- فإن الناس يلاحظون ذلك عادة لأن الرجال ليسوا بارعين في التغطية على آثارهم. أما المرأة فيمكن أن تغطي على آثارها... أعني كأن يكون رجلاً قابَلَته ولا يعرف به أحد.

- آه، أتظنين ذلك حقاً يا جوليا؟

- لا، لا أظن ذلك حقاً، ولكن الناس عادة ما يعرفون. أعني أن الخدم يعرفون، والبستانيين يعرفون، ويعرف -كذلك- سائقو

الحافلات، أو ربما أحد من الجيران. فهم يعرفون، كما أنهم يتكلمون. ربما كان يوجد شيء من هذا القبيل، فإن يكن هو قد علم به...

- أتعنين أنها كانت جريمة بدافع الغيرة؟

- أظنها كذلك، نعم.

- إذن فأنت ترين أن الأرجح أن يكون هو الذي أطلق النار عليها ثم على نفسه، وليس العكس.

- إنني أميل إلى هذا الرأي؛ لأنها إن كانت تحاول التخلص منه فلا أظن أنهما كانا سيخرجان في نزهة معاً حيث سيتعين عليها أن تأخذ المسدس معها في حقيبتها، وإن كان الأمر كذلك فستكون الحقيبة كبيرة. يجب على المرء أن يفكر بالجانب العملي للأمور.

- أعرف، والمرء يفكر بذلك عادة. إنها نقطة مثيرة جداً.

- لا بد أنها مثيرة بالنسبة لك يا عزيزتي؛ لأنك تكتبين تلك الروايات البوليسية، ولذلك فإنني أتوقع -فعلاً- أن تكون لك أفكار أفضل من غيرك وأن تعرفي طبيعة ما يُحتمل وقوعه أكثر من غيرك.

- لا أدري ما الذي يُحتمل وقوعه، لأنني -في كل الروايات التي أكتبها- أخترع الجرائم. أعني أن ما أريده أن يحدث هو الذي يحدث في قصصي، ولا يكون ذلك شيئاً قد وقع بالفعل أو يُحتمل وقوعه؛ ولذلك فإنني -بالفعل- أسوأ مَن يمكنه التحدث في هذا الموضوع. إنني مهتمة بمعرفة رأيك لأنك تعرفين الناس جيداً، كما

كنتِ تعرفين عائلة رافنزكروفت جيداً. وأظن أنها ربما كانت قد قالت لك شيئاً في يوم ما... أو ربما قال هو شيئاً.

- نعم، نعم. انتظري لحظة، فقد ذكّرني قولك هذا، يبدو أن هذا يذكرني بشيء ما.

اتكأت السيدة كاستيرز إلى الخلف في كرسيها، وهزّت رأسها بارتياب، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وراحت فيما يشبه الغيبوبة. وبقيت السيدة أوليفر ساكتة وعلى وجهها نظرة كتلك التي تُظهرها النساء وهن ينتظرن أول إشارة على غليان الماء في إبريق.

- أذكر أنها قالت لي شيئاً ذات يوم، وقد تساءلتُ -وقتها- ما الذي تعنيه بقولها. شيئاً ما عن البدء بحياة جديدة...

بدت السيدة أوليفر وكأنها قد جفلت قليلاً، وقالت: ولكن ما معنى هذا تماماً؟

- الحقيقة أنني لا أدري. قالت إنه من الرائع كيف أن النساء يحصلن على دورة ثانية في الحياة! لم تكن هذه هي العبارة التي استخدمتها بالضبط، ولكنها قالت شيئاً بهذا المعنى.

قالت السيدة أوليفر: كم يبدو هذا أمراً غريباً!

* * *

الفصل السابع
عودة إلى الطفولة

نظرت السيدة أوليفر بشيء من الارتياب إلى الدرجات الثلاث والباب الأمامي لبيت صغير يكاد يكون مهدماً في الشارع الجانبي، وتحت النوافذ كانت بعض البصيلات تنمو، ومعظمها من الزنبق.

وقفت السيدة أوليفر قليلاً، وفتحت دفتر العناوين الصغير في يدها، وتأكدت من أنها في المكان الذي قصدته فعلاً، ثم طرقت بلطف على الباب مستخدمةً المطرقة الحديدية، بعدما حاولت ضغط جرس توسمت فيه أثراً لقدرة كهربائية ولكنه لم يؤدِّ إلى أي رنين في الداخل. وعندما لم تحصل على جواب عادت فطرقت الباب ثانية، وفي هذه المرة سمعت أصواتاً في الداخل؛ صوت جرجرة أقدام وأنفاس تُنبئ بالربو ويدين تعالجان مقبض الباب. ومع هذه الأصوات جاءت بعض الأصداء المبهمة من خلال فتحة صندوق الرسائل في الباب: آه، تباً، تباً! عَلِقتَ ثانية أيها الباب التعس.

وأخيراً لاقت هذه الجهود نجاحاً، وانفتح الباب ببطء مُصدِراً صريراً يوحي بالارتياب. ظهرت امرأة عجوز طاعنة في السن ذات

وجه ملأته التجاعيد وكتفين محدودبين ومظهر عام ينبئ عن الإصابة بالربو، ونظرت إلى زائرتها. كان وجهها خالياً من أي ترحيب، ولم تظهر عليه أية علامات للخوف، بل مجرد التقزز من أولئك الذين أتوا ليقرعوا باب «عرين امرأة إنكليزية». لعلها كانت في السبعين أو الثمانين من عمرها، ولكنها ما تزال مدافعة شجاعة عن عرينها.

- لا أدري ما الذي جاء بك، وأنا...

توقفت فجأة وهتفت: من؟... الآنسة أريادني. يا للمفاجأة! الآنسة أريادني!

- أنت رائعة إذ تتذكرينني. كيف حالك يا سيدة ماتشام؟

- الآنسة أريادني! مَن كان يتصور ذلك؟!

أدركت السيدة أوليفر أن زمناً طويلاً قد مر دون أن يناديها أحد بلقب آنسة أريادني، ولكن نبرة الصوت كانت ذات وقع مألوف رغم ما ألحقه بها تقدم العمر. قالت العجوز: ادخلي يا عزيزتي، ادخلي. أنت تبدين في أحسن حال. لا أدري كم سنة مرت منذ أن رأيتك آخر مرة... خمسة عشر عاماً على الأقل؟

كانت المدة أطول بكثير من خمسة عشر عاماً، ولكن السيدة أوليفر لم تُصحح للعجوز. دخلت وراحت السيدة ماتشام تصافحها، ولكن بدا وكأن يديها غير راغبتين بإطاعة أوامر صاحبتهما. تمكنت من إغلاق الباب، ثم دخلت -وهي تجرجر قدميها وتعرج- إلى غرفة صغيرة بدا واضحاً أنها مخصصة لاستقبال أي زائر محتمل (أو غير محتمل...) يمكن أن تسمح له السيدة ماتشام بدخول بيتها. كانت

في الغرفة أعداد كبيرة من الصور؛ بعضها لأطفال رُضّع، وبعضها لبالغين، كما كان بعضها مؤطراً بأُطر جلدية لطيفة كان البلى يلحق بها تدريجياً ولكنها لم تتمزق إرباً بعد، كان منها صورة بإطار فضي فقد بريقه بعد هذا الزمن تمثل شابة في ملابس التقديم في البلاط وقد ظهر الريش فوق رأسها، وصور لضابطي بحرية ورجلين عسكريين، وأخرى لبعض الأطفال الرضّع وقد تمددوا على بطانيات. كانت في الغرفة أريكة وكرسيان، وقد جلست السيدة أوليفر -كما أُمرت- على أحد الكرسيين بينما استراحت السيدة ماتشام على الأريكة وسحبت وسادةً وضعتها خلف ظهرها بشيء من الصعوبة.

- حسناً يا عزيزتي، من ذا كان يتوقع رؤيتك! أما زلتِ تكتبين رواياتك الجميلة تلك؟

- بلى.

وافقت السيدة أوليفر على ذلك رغم بعض الشك في المدى الذي يمكن أن يُقال فيه عن القصص البوليسية وقصص الجرائم إنها «قصص جميلة».

أضافت السيدة ماتشام قائلة: أنا وحدي تماماً الآن. أتذكرين أختي غريسي؟ لقد توفيت في الخريف الماضي... بسبب السرطان. وقد أجروا لها عملية، ولكن كان الوقتُ قد فات.

- آه، يا عزيزتي، يؤسفني جداً سماع ذلك.

مضى الحديث للدقائق العشر التالية حول موضوع وفاة مَن تبقّى من أقارب السيدة ماتشام واحداً بعد الآخر. بعدها قالت السيدة

ماتشام: وأنت... هل أنت بخير؟ هل لك زوج الآن؟ آه، لقد تذكرتُ الآن، لقد مات منذ سنين طويلة، أليس كذلك؟ وما الذي أتى بك إلى هنا، إلى ليتل سالتيرنماينور؟

- صدف وكنتُ في المنطقة فقط، وبما أن عنوانك موجود في دفتر العناوين الذي أحمله فقد فكرتُ بالمرور بك قليلاً و... ورؤية أحوالك والاطمئنان عليك.

- آه! وربما للتحدث عن الأيام الخوالي أيضاً. يكون ذلك رائعاً دوماً عندما تسنح الفرصة للمرء، أليس كذلك؟

- بلى، بالتأكيد.

شعرت السيدة أوليفر بشيء من الارتياح لأن هذا الموضوع قد طُرح عليها تحديداً، وهو الموضوع الذي جاءت لأجله. أضافت قائلة: لديك صور كثيرة جداً.

- آه، لدي الكثير منها. عندما كنتُ في ذلك البيت... (وكان له اسم سخيف هو «بيت الغروب لسعادة المُعمّرين»، أو شيء من هذا القبيل). عشت فيه سنة وثلاثة أشهر حتى لم أعد أتحمله؛ فقد كان القائمون عليه أناساً سيئين، يقولون إنك لا تستطيعين إحضار شيء من أغراضك الخاصة معك إلى البيت على أساس أن كل الأثاث يعود للبيت نفسه. لا أقول إنه لم يكن مريحاً، ولكني أحب أن تكون أغراضي حولي، كالصور والأثاث. وبعد ذلك جاءت سيدة لطيفة جداً... من هيئة أو جمعية ما، وقد أخبرتني بوجود مكان آخر يكون للمرء فيه بيته الخاص ويمكنه أن يأخذ إليه ما يشاء، مع

وجود مساعِدة لطيفة جداً تأتي كل يوم لترى إن كنتِ على ما يرام. آه، إنني مرتاحة جداً هنا. مرتاحة جداً بالفعل، ولدي كل أغراضي الخاصة.

قالت السيدة أوليفر وهي تنظر حولها: من كل بقعة شيء ما.

- نعم، تلك الطاولة النحاسية... طاولة الكابتن ويلسُن، أرسلها لي من سنغافورة، أو من بلد شبيه بها. وتلك الآنية الهندية نحاسية أيضاً. جميلة، أليس كذلك؟ وتلك تحفة غريبة مصرية. إنها ما يسمونه الخنفساء المصرية، رمز الفراعنة، وهي مصنوعة من حجر ما؛ أزرق لامع، أزورد، أو مازرد أو لازورد... شيء من هذا القبيل.

- نعم، حجر اللازورد.

- نعم، هذا هو، وهي جميلة جداً. أرسلها إليّ «ابني» الذي يعمل بالتنقيب عن الآثار.

- يا لماضيك الجميل كله!

- نعم، مع كل أبنائي وبناتي الذين عملت مربيةً لهم. بعضهم رعيتهم أطفالاً رُضّعاً، وبعضهم منذ كانوا في شهرهم الأول، وبعضهم كانوا أكبر من ذلك. وقد رعيت عدداً منهم عندما ذهبتُ إلى الهند، وفي المرة الأخرى عندما كنتُ في سيام. نعم، تلك صورة الآنسة مويا في ثياب البلاط. آه، لقد كانت فتاة رائعة الجمال، وقد طلّقت زوجين، نعم. صادَفَتْها مشكلات مع سيادة اللورد، زوجها الأول، ثم تزوجت مغنياً شعبياً، وما كان ذلك لينجح بالطبع. وأخيراً

تزوجت رجلاً من كاليفورنيا، وكان لهما يخت يسافران به من مكان لآخر، وقد توفيت منذ سنتين أو ثلاث فقط ولما يتجاوز عمرها الثانية والستين. من المؤسف أن تموت في مثل هذا السن المُبكر!

- لقد تنقلتِ في الكثير من أقطار العالم، أليس كذلك؟ الهند وهونغ كونغ، ثم مصر، وأمريكا الجنوبية؟

- آه، بلى. لقد سافرتُ وتنقلتُ كثيراً.

- أذكر عندما كنتُ في الملايو أنكِ كنتِ -وقتها- مربية مع عائلة ضابط في الجندية، أليس كذلك؟ الجنرال... انتظري لحظة، لا أستطيع تذكر الاسم. ألم يكن الجنرال والليدي رافنزكروفت؟

- أظنك قد أخطأتِ في الاسم. أنت تفكرين في الفترة التي كنتُ فيها مع عائلة بارنابي. هذا صحيح، وجئتِ أنت للإقامة معهم. أتذكرين؟ كنتِ في جولة، وجئتِ و ِمتِ مع عائلة بارنابي. كنتِ صديقة قديمة لزوجته، وكان هو يعمل قاضياً.

- نعم. الأمر صعب بعض الشيء؛ فالأسماء تختلط على المرء.

- كان لهما طفلان لطيفان، وقد التحقا بالمدارس في إنكلترا طبعاً. التحق الصبي بمدرسة هارو، فيما التحقت الفتاة بمدرسة رويدين فيما أظن، ولذلك انتقلتُ إلى أسرة أخرى. آه، لقد تغيرت الأمور في هذه الأيام؛ إذ لا يوجد الكثير من المرضعات كما كان الأمر سابقاً. ومع ذلك كانت المرضعات يسببن بعض المتاعب من حين لآخر! لقد انسجمتُ بشكل جيد مع تلك التي كانت ترضع

أطفال عائلة بارنابي حين عملت مربية لديهم. مَن هؤلاء الذين تحدثتِ عنهم؟... عائلة رافنزكروفت؟ إنني أتذكرهم. نعم... نسيت الآن اسم المكان الذي كانوا يعيشون به، ولكنه لم يكن بعيداً عنا، وكانت بين العائلتين معرفة. آه، نعم، صحيح أنه زمن بعيد جداً، ولكني أتذكر كل شيء. كنتُ ما زلت هناك مع أسرة بارنابي، أُعنى بأغراض السيدة وأصلحها وغير ذلك. نعم، كنتُ هناك عندما حدث ذلك الأمر الفظيع... لا أعني بذلك أسرة بارنابي، بل أسرة رافنزكروفت. نعم، لن أنسى ذلك أبداً... أعني سماعي به. من الطبيعي أنني لم أكن على صلة مباشرة بالأمر شخصياً، ولكن حدوث ذلك كان فظيعاً، أليس كذلك؟

- أحسب أنه لا بد كان كذلك.

- كان ذلك بعد أن عُدتِ أنت إلى إنكلترا، بعد وقت طويل من ذلك كما أظن. لقد كانا زوجين لطيفين، لطيفين جداً، وكان الأمر صدمة لهما.

- أنا لا أذكر -حقاً- الآن.

- أعرف؛ فالمرء ينسى الأمور، أما أنا لا أنسى. لقد قالوا إنها كانت دوماً غريبة الأطوار... منذ أن كانت طفلة، ورويت بعض القصص القديمة... مثل أنها أخذت طفلاً من عربته وألقته في النهر. قال البعض إن ذلك من الغيرة، فيما قال آخرون إنها أرادت أن يذهب الطفل إلى الجنة ولا ينتظر.

- أتعنين... أتعنين بذلك الليدي رافنزكروفت؟

- كلا، كلا بالطبع. آه، أنت لا تتذكرين بشكل جيد مثلي... كانت تلك هي الأخت!

- أختها؟!

- لستُ واثقة -الآن- إن كانت أختها أم أخته هو. قالوا إنها كانت في نوع من المصحات العقلية لفترة طويلة، منذ أن كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها. أبقوها مقيمة هناك، ثم رأوا إنها أصبحت بحالة جيدة فخرجت. بعد ذلك تزوجت شخصاً في الجيش. ثم حدثت مشكلات، وأظن أنها أُعيدت -بعد ذلك- إلى أحد المصحات العقلية حيث يُعالج المرء بشكل ممتاز. وأحسب أنهما كانا يذهبان لزيارتها... أعني الجنرال وزوجته. أما الطفلان فأظن أنهما قد رُبيا على يد آخرين؛ لأن الزوجين كانا خائفين نوعاً ما. وعلى كل حال فقد قيل في النهاية إنها أصبحت بحال جيدة، فعادت لتعيش مع زوجها، ثم مات الزوج (من ضغط الدم أو القلب) فعادت لتقيم مع أخيها، أو مع أختها -إذ لا أذكر أخت مَنْ كانت- وبدت سعيدة تماماً هناك. كانت تحب الأطفال كثيراً. ولم يكن الصبي الصغير هناك؛ فقد كان في المدرسة... أظنها كانت البنت الصغيرة، وكانت معها بنت صغيرة أخرى جاءت تلعب معها مساء ذلك اليوم. آه، إنني لا أذكر التفصيلات الآن؛ فقد مر زمن طويل جداً على ذلك، وقد دار الكثير من اللغط حول هذا الأمر. البعض قالوا إنها لم تكن هي الفاعلة أبداً، وقد ظنوا أن المرضعة هي التي فعلت ذلك... ولكنها كانت تحبهما، وقد حزنت حزناً شديداً. لقد أرادت أن تأخذهما بعيداً عن البيت؛ إذ قالت إنهما لم يكونا في أمان هناك، ولكن الآخرين لم يصدقوا ذلك بالطبع. ثم حدث ذلك

الأمر، وفهمتُ أنهم رأوا أنها هي التي فعلته... كائناً ما كان اسمها، تلك الأخت؛ فأنا لا أذكره الآن. على كل، هذا ما حدث.

- وماذا حدث لتلك الأخت، سواء كانت أخت الجنرال أم أخت الليدي رافنزكروفت؟

- أحسب أن طبيباً قد أخذها ووضعها في مكان ما، ثم عادت إلى إنكلترا في النهاية كما أظن. لا أدري إن كانت قد ذهبت إلى نفس المصحة السابقة، ولكنها كانت موضع عناية جيدة في مكان ما. ربما عادت لتصبح على ما يرام من جديد، ولكنني لم أفكر في هذا الأمر منذ سنوات طويلة. ليس قبل أن تأتي أنت إليّ لتطرحي أسئلة عن الجنرال رافنزكروفت وزوجته! أتساءل أين هما الآن. لا بد أن الجنرال قد تقاعد منذ فترة طويلة.

- إنه لأمر مُحزن جداً، لا بد أنك قرأتِ عنه في الصحف.

- قرأتُ ماذا؟

- لقد اشتريا بيتاً في إنكلترا، ثم...

- آه، إنني بدأتُ أتذكر. أذكر أنني قرأتُ شيئاً عن ذلك في الصحف. نعم، وفكرتُ -وقتها- بأني أعرف اسم رافنزكروفت، ولكني لم أستطع أن أذكر تماماً متى وكيف. لقد وقعا عن صخرة، أليس كذلك؟ شيء من هذا القبيل.

- بلى، شيء من هذا القبيل.

توقفت السيدة ماتشام قليلاً ثم قالت: اسمعيني الآن يا عزيزتي،

إنه لمن اللطيف جداً أن أراك. ينبغي أن تسمحي لي بتقديم كوب من الشاي لك.

- أنا لا أحتاج حقاً أي شاي... لا أريد فعلاً.

- بل تريدين بالطبع. إذا سمحتِ الآن، تعالي إلى المطبخ. إنني أقضي معظم وقتي فيه الآن؛ فهناك يسهل عليّ التحرك أكثر. ولكنني آتي بضيوفي إلى هذه الغرفة لأنني فخورة بأشيائي فيها. فخورة بأغراضي، وفخورة بكل أبنائي وبالآخرين.

- أظن أن أمثالك من الناس يعيشون حياة رائعة بوجود كل أولئك الأطفال الذين اعتنيت بهم.

- نعم. أذكر عندما كنتِ فتاة صغيرة، كنتِ تحبين الإصغاء للقصص التي أرويها لك. كنت أحكي -فيما أذكر- قصة عن النمر، وأخرى عن القردة... قردة على شجرة.

- نعم. أذكر تلك القصص؛ كان ذلك منذ زمن بعيد جداً.

عاد عقل السيدة أوليفر إلى الماضي لتفكر بنفسها، طفلة في السادسة أو السابعة، تمشي في حذاء ذي أزرار كان ضيقاً عليها قليلاً، وتصغي لقصة من الهند ومصر تحكيها لها «ماما المربية». وكانت هذه هي ماما... كانت السيدة ماتشام هي ماما المربية. نظرت حولها إلى الغرفة وهي تتبع مضيفتها للخارج. نظرت إلى صور فتيات وصبيان المدارس، والأطفال، والعديد من الأشخاص في أوسط أعمارهم، وكلهم قد صُوّروا بأحسن ما لديهم من ملابس، وأرسلوا صورهم بأفضل الأُطُر؛ لأنهم لم ينسوا ماما. وربما كان الفضل لهم

في تمتع ماما بحياة مريحة في شيخوختها، بما في ذلك تزويدهم لها بالمال. شعرت السيدة أوليفر برغبة مفاجئة بأن تنفجر باكية. وقد كان ذلك مغايراً لطبيعتها إلى الحد الذي استطاعت معه منع نفسها من ذلك بتحكيم جُهد إرادي. تبعت السيدة ماتشام إلى المطبخ، وهناك أخرجت الهدية التي أحضرتها معها.

- آه، يا إلهي! علبة شاي ثاثام الفاخر؟ كان دوماً الشاي المفضل لدي. كيف تذكرتِ ذلك؟ إنني لا أكاد أجده في هذه الأيام، وهذا هو البسكوت المفضل لدي مع الشاي أيضاً. أنت رائعة لا تنسين شيئاً. ماذا كانوا يسمونك قديماً؟... أعني ذينك الطفلين اللذين كانا يأتيان للعب... كان أحدهما يسمّيك السيدة فيلة والآخر يسمّيك السيدة بجعة. وكان ذلك الذي يسميك السيدة فيلة يجلس على ظهرك وتمشين أنت على الأرض على أربع وتتظاهرين بأن لك خرطوماً تلتقطين به الأشياء.

- أنت لا تنسين الكثير من الأمور، أليس كذلك يا ماما؟

- آه، الأفيال لا تنسى! هذا هو المثل القديم.

* * *

الفصل الثامن

السيدة أوليفر تنخرط بالعمل

دخلت السيدة أوليفر محل ويليامز آند بارنيت، وهو عبارة عن صيدلية جيدة التجهيز، تتعامل أيضاً بمختلف مستحضرات التجميل. توقفتْ قليلاً أمام واحد من رفوف العرض يحتوي على علاجات مختلفة لمسامير القدمين، وترددت قليلاً عند جبل من اللِيَف الإسفنجية، ثم تمشت قليلاً على غير هدى باتجاه الطاولة التي تُقدم عبرها الوصفات الطبية، وعبرت ركناً أُحسن عرضه لمُكمِّلات التجميل التي أبدعتها إليزابيث آردن وهيلينا روبنشتاين وماكس فاكتور وغيرهم ممن يقدمون منتجاتهم لفائدة النساء.

توقفت أخيراً عند فتاة ممتلئة الجسم وسألت عن نوع معين من أحمر الشفاه، ثم أطلقت صيحة دهشة وقالت: مَن؟ مارلين... ألستِ مارلين؟

- يا إلهي، السيدة أوليفر! يسرني أن أراك. أليس هذا رائعاً؟ ستنفعل الفتيات جميعاً عندما أخبرهن بأنك أتيت إلى هنا.

- لا حاجة لأن تخبريهن.

- آه، إنني واثقة أنهن كُنّ سيُخرجن أوتوغرافاتهن!

- أفضل ألاّ يفعلن ذلك. وكيف حالك أنت يا مارلين؟

- لا بأس، لا بأس.

- لم أعرف أنك ما زلت تعملين هنا.

- إنه مكان جيد كأي مكان جيد آخر، وهم يعاملونني بشكل جيد جداً هنا. تلقيتُ زيادة على راتبي في العام الماضي، وأنا مسؤولة تقريباً الآن عن جناح مستحضرات التجميل هذا.

- وكيف حال أمك؟ أهي بخير؟

- آه، نعم. ستسعد أمي إذا عرفت أنني قابلتك.

- أما تزال تعيش في نفس بيتها في... في شارع المستشفى؟

- آه، نعم، ما نزال هناك. لم تكن صحة أبي جيدة مؤخراً، وقد بقي في المستشفى لفترة، ولكن والدتي ما تزال بصحة جيدة، وسوف سيسعدها أن تعرف أنني رأيتك. هل تقيمين هنا؟

- لا، أنا -في الحقيقة- مارة من هنا فقط. كنتُ أزور صديقة قديمة، وإنني أتساءل الآن...

ثم نظرت إلى ساعتها وقالت: أتكون أمك في البيت الآن

يامارلين؟ يمكنني المرور بها وتبادل بضع كلمات معها قبل مغادرتي.

- آه، نعم، سوف تُسر كثيراً بذلك. إنني آسفة إذ لا أستطيع مغادرة عملي والذهاب معك، ولكني لا... أعني أنهم لن يحبذوا ذلك؛ فأنا لا أستطيع المغادرة قبل مرور ساعة ونصف من الآن.

- لا بأس، ربما رأيتُك في مرة قادمة. لا أذكر تماماً... أكان رقم البيت ١٧ ، أم أن له اسماً؟

- إنه يُسمى لوريل كوتيج.

- آه، نعم، بالطبع. ما أغباني! حسناً، كان رائعاً أن أراك.

سارعت بالخروج وهي تحمل في حقيبتها أحمر شفاه إضافياً لا حاجة لها به، ثم قادت سيارتها في الشارع العام لقرية تشيبنغ بارترام، وبعد أن اجتازت المستشفى استدارت ودخلت شارعاً ضيقاً بعض الشيء تحف به من الجانبين بيوت صغيرة جميلة تماماً.

تركت سيارتها خارج لوريل كوتيج ودخلت. فتحت لها الباب امرأة نحيلة نشيطة ذات شعر أشيب في نحو الخمسين من عمرها، وقد أظهرت -على الفور- إشارات تعرفها إلى السيدة أوليفر: مَن؟! هذه أنت إذن يا سيدة أوليفر؟ أهلاً بك. لم أرك منذ سنين طويلة.

- نعم، لقد مر وقت طويل جداً.

- تفضلي، تفضلي. هل أُعد لك كوباً رائعاً من الشاي؟

- لا أستطيع، أرجوك؛ فقد شربتُ الشاي مع صديقة لي، وعليّ العودة إلى لندن. الحقيقة أنني مررتُ بالصيدلية لشراء شيء أحتاجه فرأيتُ مارلين هناك.

- نعم، إن لها عملاً ممتازاً هناك، وهي تلقى كل تقدير منهم. يقولون إن لها موهبة وجرأة في عملها.

- هذا رائع. وكيف أنت يا سيدة باكل؟ تبدين في أحسن حال. يوشك ألاّ يبدو عليك الكبر منذ أن رأيتك آخر مرة.

- آه، ما كنتُ لأقول ذلك؛ فقد شاب الشعر، وفقدتُ الكثير من وزني.

قالت السيدة أوليفر وهي تدخل إلى غرفة جلوس صغيرة تراكم أثاثها بشيء من عدم الترتيب: هذا يوم رائع أقابل فيه الكثير من صديقاتي السابقات. لا أدري إن كنتِ تذكرين السيدة كارستيرز... السيدة جوليا كارستيرز.

- آه، أذكرها بالطبع. نعم، إلى حدٍّ ما. عساها تكون بخير.

- نعم، إنها بخير. تحدثنا عن بعض الأيام الخوالي، والحقيقة أننا عدنا بالحديث حتى تلك المأساة التي وقعت. كنتُ في أمريكا وقتها، ولذلك لم أعرف الكثير عن الأمر؛ عن عائلة رافنزكروفت.

- آه، إنني أذكر ذلك جيداً.

- لقد عملتِ لدى تلك العائلة في يوم ما، أليس كذلك يا سيدة باكل؟

- بلى؛ كنتُ أذهب إليهم ثلاثة أيام في الأسبوع، وقد كانوا لطفاء جداً. زوجان من الطراز العسكري الحقيقي، من الطراز القديم.

- كان حدوث ذلك الأمر مأساوياً جداً.

- نعم، لقد كان كذلك بالفعل.

- أكنتِ ما تزالين تعملين لديهما في ذلك الوقت؟

- كلا، الحقيقة أنني كنتُ قد توقفت عن الذهاب إليهما؛ فقد جاءت عمتي العجوز إيما للعيش معي، وكانت شبه عمياء وصحتها على غير ما يرام، ولم أعد أستطع توفير وقت للقيام بأعمال للناس، ولكنني بقيت معهما حتى ما قبل شهر أو شهرين من وقوع المأساة.

- لقد بدا حدوث ذلك فظيعاً. وقد فهمتُ أن الرأي السائد هو أنه كان اتفاقاً على الانتحار.

- لا أُصدِّق ذلك. أنا متأكدة من أنهما لم ينتحرا معاً؛ فهذا لا يأتي من أناس كهؤلاء، وهما يعيشان معاً بكل سعادة. ولكنهما لم يعيشا في تلك المنطقة طويلاً بالطبع.

- نعم، أظن ذلك صحيحاً؛ فقد عاشا في مكان ما قرب بورنماوث عندما جاءا -بدايةً- إلى إنكلترا، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنهما وجدا المنطقة بعيدة بعض الشيء إذا ما أرادا الذهاب إلى لندن، ولهذا السبب جاءا إلى تشيبنغ بارترام. وكان بيتهما رائعاً جداً، وله حديقة جميلة.

- أكان الاثنان بصحة جيدة عندما كنتِ تعملين لديهما؟

- الحقيقة أن الجنرال كان يشعر بتقدم العمر كما يشعر أغلب الناس؛ كان لديه شيء من المتاعب في القلب. وكان الاثنان يتناولان حبوباً، ويستريحان قليلاً بين الحين والآخر.

- وماذا عن الليدي رافنزكروفت؟

- أظن أنها كانت تفتقد الحياة التي عاشتها في الخارج؛ فما كانا يعرفان كثيراً من الناس هنا، رغم أنهما تعرفا -بالطبع- إلى العديد من العائلات، باعتبارهما ينتميان إلى تلك الطبقة من الناس. ولكني أحسب أنها لم تكن كالحياة في الملايو أو غيرها من تلك الأماكن، حيث يكون لديك الكثير من الخدم والحفلات البهيجة وغير ذلك.

- أتظنين أنها افتقدت حفلاتها البهيجة؟

- الحقيقة أنني لا أعرف ذلك تحديداً.

- لقد قيل لي إنها كانت معتادة على وضع الباروكات.

قالت السيدة باكل وهي تبتسم قليلاً: آه! كان لها العديد من الباروكات. كانت باروكاتها جميلة جداً وباهظة الثمن، وكانت ترسل -من وقت لآخر- واحدة منها إلى حيث اشترتها في لندن، حيث يقومون بتجديدها وإعادتها ثانية. كانت لديها مختلف الأنواع من الباروكات؛ إحداها بلون مُحمر قليلاً، والثانية ذات خصلات رمادية على الرأس، وكانت تبدو جميلة حقاً بهذه الباروكة الأخيرة. كانت لديها -أيضاً- اثنتان... لم تكونا جميلتين، ولكنهما مفيدتان تماماً

في الأيام التي تشهد رياحاً، عندما يريد المرء وضع شيء على رأسه عند احتمال سقوط المطر. كانت تفكر كثيراً بشكلها، وتصرف كثيراً من مالها على الملابس.

- ماذا كان سبب المأساة برأيك؟ فأنت تعلمين أنني لم أكن هنا وقتها ولم أرَ أياً من صديقاتي لأنني كنتُ في أمريكا، وبذلك فاتني سماع أي شيء عن الموضوع. المرء لا يحب أن يطرح أسئلة أو يكتب رسائل عن أمور من هذا النوع. لا أحسب أن ذلك كان دون سبب. ألم يكن المسدس للجنرال رافنزكروفت نفسه كما فهمت؟

- آه، بلى؛ كان لديه مسدسان في البيت، لأنه قال إنه ما من بيت آمن دون سلاح... وربما كان محقاً في ذلك. هذا لا يعني أنهما تعرضا لأية مشكلات من قبل بقدر ما أعرف. ولكن في إحدى الأمسيات جاء رجل إلى الباب. لم يعجبني شكله، وقد أراد رؤية الجنرال قائلاً إنه كان في فوجه عندما كان شاباً. وقد سأله الجنرال بضعة أسئلة، وأظنه رأى أنه ليس... رأى أنه ليس موثوقاً، ولذلك صرفه.

- أتظنين أن شخصاً من الخارج هو الذي ارتكب الجريمة؟

- الحقيقة أنني أعتقد أن ذلك ما حدث دون ريب؛ لأنني لا أرى أي تفسير آخر. اعلمي أنني لم أرتَح كثيراً للرجل الذي عمل لديهما بأعمال البستنة. لم تكن له سمعة حسنة، وقد فهمتُ أنه قضى فترات في السجن في وقت سابق من حياته، ولكن الجنرال قبِل بكتب التزكية التي أحضرها الرجل وأراد أن يعطيه فرصة.

- فأنت ترين -إذن- أن البستاني ربما قتلهما؟

- الحقيقة أنني... أنني ظننتُ ذلك دوماً. ولكن ربما كنتُ مخطئة رغم ذلك. لم يبدُ لي... أعني أن ما قيل عن وجود قصة فضائحية ما، أو ما شابه ذلك، سواء عنها هي أو عن الجنرال، وأنه قد قتلها، أو أنها قتلته... أعني أن كل ذلك هراء برأيي. كلا، لقد كان الأمر من فعل شخص خارجي. لعله واحد من أولئك الأشخاص. صحيح أن الأمر لم يكن على تلك الدرجة من السوء التي نشهدها في أيامنا هذه، إذ يجب أن تتذكري أن ذلك حصل قبل أن يشهد الناس كل هذا العنف. ولكن انظري إلى ما تقرأينه في الصحف كل يوم الآن: شباب يتعاطون المخدرات فيفقدون رشدهم ويندفعون في كل مكان يُطلقون النار على الناس دون أدنى سبب، أو يطلبون من فتاة في حانة أن تتناول مشروباً معهم، وفي اليوم التالي يُعثر على جثتها في حفرة. يسرقون الأطفال من أمهاتهم أو من عربات الأطفال، ويأخذون فتاة للرقص فيقتلونها أو يخنقونها في طريق العودة. ويكاد المرء يشعر أن بوسع أي واحد أن يفعل أي شيء... على أية حال، خرج هذان الزوجان اللطيفان، الجنرال وزوجته، في نزهة لطيفة مساءً، وهناك كانت جثتاهما، وفي رأس كل منهما رصاصة.

- أكانت الإصابة في الرأس؟

- الحقيقة أنني لا أذكر تماماً الآن، كما أنني لم أرَ شيئاً بنفسي. ولكنهما لم يخرجا إلاّ في نزهتهما كما كانا يفعلان عادة.

- ألم يكن لها صديق، أو له صديقة؟

- لا أدري إن كان بالإمكان استخدام هذا التعبير على أناس في مثل عمرهما. بعض الأحاديث دارت هنا وهناك، ولكنها كانت هراء كلها؛ لا يوجد أبداً ما يؤيدها. يحب الناس دوماً ترديد أمور كهذه.

- ربما كان أحدهما... مريضاً.

- الليدي رافنزكروفت ذهبت إلى لندن مرة أو مرتين لاستشارة طبيب حول أمر ما، وأكاد أظن أنها كانت تريد دخول مستشفى، أو تخطط لدخول مستشفى لإجراء عملية من نوع ما، ولكنها لم تخبرني أبداً عن طبيعة تلك العملية. أظن أنهم تمكنوا من تصحيح وضعها... مكثت في ذلك المستشفى لفترة قصيرة... ولا أظنها أجرت عملية. وعندما عادت بدت أصغر بكثير من حالها السابق. أجرت الكثير من العلاج لوجهها، وبدت جميلة جداً بتلك الباروكة ذات الخصلات.. وكأنها قد مُنحت حياة مختلفة جديدة.

- والجنرال رافنزكروفت؟

- لقد كان سيداً لطيفاً جداً، ولم أسمع أو أعرف بأية فضيحة طالته، ولا أرى وجود أية فضيحة لديه. إن الناس يقولون كلاماً، ولكن لا بد لهم من قول شيء عندما تقع مأساة من أي نوع. مثلاً ربما تعرض لضربة على رأسه في الملايو، أو لشيء من هذا القبيل.. لقد كان لي عمٌّ وقع عن فرسه ذات يوم، وقد وقع رأسه على مدفع أو ما شابه ذلك، وبعدها صار غريب الأطوار تماماً. بقي عادياً نحواً من ستة أشهر، ثم اضطروا لوضعه في مصحة عقلية لأنه أصبح يُصرّ

على قتل زوجته قائلاً إنها تلاحقه وإنها جاسوسة لدولة أخرى! آه، لا يمكن التنبؤ بالأشياء التي تقع أو يمكن أن تقع للعائلات.

- ولكنك -على أية حال- لا ترين صحة للقصص التي سمعتُها عنهما، كوجود ضغينة بينهما أدت إلى أن يقتل أحدهما صاحبه ثم يقتل نفسه.

- آه، نعم؛ لا أرى ذلك.

- أكان طفلاهما في البيت في ذلك الحين؟

- كلا؛ فقد كانت الآنسة... ماذا كان اسمها، روزي؟ كلا، بينيلوب؟

- بل [illegible] ابنتي بالمعمودية.

- آه، إنها كذلك بالطبع. نعم، أعرف ذلك الآن. أذكر مجيئك واصطحابك لها خارج البيت ذات يوم. كانت فتاة تضج بالحياة، ولا تخلو من المزاج الحاد في بعض الجوانب، ولكن أظنها كانت شديدة التعلق بأمها وأبيها... كلا، كانت وقتها في مدرستها في سويسرا، ويسعدني ذلك؛ إذ كان من شأن الحادث أن يسبب لها صدمة فظيعة لو كانت في البيت أو كانت هي من رأى الجثتين.

- وقد كان لديهما صبي أيضاً، أليس كذلك؟

- بلى، إدوارد. وأظن أن أباه كان قلقاً عليه بعض الشيء.

- أكان شديد التعلق بأمه؟

- أظنها كانت تبالغ قليلاً في العناية به، الأمر الذي كان يزعجه؛ فالفتية لا يحبون مبالغة الأم في الحدب عليهم، والتشديد على ارتدائهم سترة إضافية أو بلوزة أسمك قليلاً. ولم يكن والده يحب طريقة إرساله لشعره. صحيح أنهم لم يكونوا يتركون شعورهم بالطريقة التي يفعلها شباب اليوم، ولكنهم كانوا قد وضعوا أرجلهم على أول هذه الطريق، إن كنتِ تفهمين قصدي.

- وهل كان الصبي في البيت وقت المأساة؟

- لا.

- لا بد أنها كانت صدمة بالنسبة له؟

- لا بد أنها كانت كذلك. ولكني لم أكن أذهب إلى البيت في ذلك الوقت طبعاً، ولذلك لم أسمع الكثير. ولو أردتِ رأيي لقلتُ إنني لم أرتح لذلك البستاني. ماذا كان اسمه... أظنه كان فريد... فريد ويزل. اسم كهذا. يبدو لي أنه لو كان قد مارس شيئاً من الـ... شيئاً من الخداع أو غيره واكتشف الجنرال أمره وكان بصدد طرده لما استغربتُ إقدامه على مثل هذه الجريمة.

- أتعنين إطلاق النار على الزوج والزوجة؟

- الحقيقة أنني توقعت أن الأدعى للقبول كان أن يكتفي بقتل الجنرال. ولكن لو فعل ذلك وجاءت الزوجة فإنه سيضطر لإطلاق النار عليها أيضاً. إن المرء يقرأ عن مثل هذه الأمور في الروايات.

قالت السيدة أوليفر بتأمل: نعم، يقرأ المرء -بالفعل- عن كل أنواع الحوادث في الروايات.

- كذلك لدينا المُدرِّس الذي لم أرتح له كثيراً.

- أي مُدرِّس؟

- كان للصبي مدرس قبل ذلك؛ إذ لم يستطع النجاح في أحد الامتحانات في حياته الدراسية الأولى (وكان في المدرسة الابتدائية) فأحضروا له مدرساً. أظنه بقي هناك نحواً من سنة، وقد أحبته الليدي رافنزكروفت كثيراً؛ فقد كانت تهوى الموسيقى كما تعلمين، وكان المدرس كذلك. أحسب أن اسمه كان السيد إدموند. كان شاباً رأيتُ فيه أنا شيئاً من الميوعة، أما رأيي فهو أن الجنرال رافنزكروفت لم يهتم به كثيراً.

- ولكن الليدي رافنزكروفت اهتمت به.

- آه، كان لديهما الكثير من الاهتمامات المشتركة فيما أظن. أحسب أنها هي التي اختارت المُدرس، وليس الجنرال. ولكن الحقيقة أنه كان ذا سلوك لطيف جداً، وكان يتحدث مع الجميع بأدب، إلى آخر هذه الصفات...

- وهل أَحبّه السيد... ماذا كان اسمه؟

- إدوارد؟ آه، نعم، أظنه أَحبّه تماماً. بل كاد يبلغ به الأمر حدّ ما يسمونه عبادة الأبطال. ولكن لا تصدقي -على أية حال- أي قصص تسمعينها عن فضائح في العائلة، أو عن علاقة للمرأة بأحد،

أو علاقة للجنرال رافنزكروفت بتلك الفتاة التي كانت تقوم بحفظ ملفاته وغير ذلك. كلا، فكائناً من كان ذلك القاتل الأثيم فإنه شخص جاء من خارج دائرة البيت. لم يصل الشرطة لأحد، وقد شوهدت سيارة قرب المكان ولكن ذلك لم ينتهِ إلى شيء، ولم يحقق الشرطة أي تقدم. ولكني أحسب -مع ذلك- أن على المرء أن يبحث عن شخص ربما كانا قد عرفاه في الملايو أو في الخارج، أو حتى عندما كانا هنا بداية في بورنماوث. فالمرء لا يدري.

- ماذا كان رأي زوجك بالأمر؟ صحيح أنه ما كان ليعرف بقدر ما تعرفين عنهما بالطبع، ولكن ربما سمع الكثير من الأشياء.

- لقد سمع كلاماً كثيراً بالطبع في الأمسيات التي يقضيها في مقهى جورج آند فلاغ؛ فقد روى الناس كل أنواع القصص. قالوا إنها كانت تشرب، وإن صناديق من الزجاجات الفارغة أُخرِجت من البيت، وهو ما أعرف حق المعرفة أنه ليس صحيحاً على الإطلاق.

- ألم يعِش أحد آخر في البيت باستثناء الجنرال وزوجته؟

- كانت لليدي رافنزكروفت أخت تأتي أحياناً. ربما كانت أختاً غير شقيقة، أو شيئاً من هذا القبيل، وكانت تشبه الليدي رافنزكروفت إلى حد ما. وقد كنتُ أظن دائماً أنها تثير شيئاً من المشكلات بينهما عندما تأتي. كانت من أولئك النسوة اللاتي تستهويهن إثارة المشكلات، إن كنتِ تفهمين ما أعنيه. كانت تقول أشياء لمجرد إزعاج الناس.

- أكانت الليدي رافنزكروفت تحبها؟

- رأيي أنها لم تحبها أبداً. أظن أن تلك الأخت كانت تحب القدوم أحياناً، ولم تكن الليدي رافنزكروفت تحب عدم استقبالها، ولكن أظن أنها كانت تحس بأن استضافتها أمر متعب جداً. كانت تروق للجنرال كثيراً لأنها كانت تجيد لعب الورق وكانت تلعب معه الشطرنج، وهو كان يستمتع بذلك؛ كانت امرأة مسلية على نحو ما. أظنها كانت أرملة، كما أظن أيضاً أنها كانت تقترض المال منهما.

- هل أحببتِها أنت؟

- الحقيقة أنني لم أحبها، إن كنتِ لا تمانعين هذا التعبير مني. لقد كرهتُها كثيراً؛ فقد رأيتُ أنها واحدة من مثيرات المشكلات. ولكنها لم تكن قد زارتهما لفترة قبل وقوع المأساة... أنا لا أذكر الكثير من الأشياء عنها حقاً.

- حسناً، لا أحسب أن أحداً سيعرف الحقيقة أبداً. ليس الآن، بعد مرور كل هذا الزمن. لقد رأيتُ ابنتي بالمعمودية قبل أيام.

- أرأيتِها حقاً؟ أحب سماع أخبار الآنسة سيليا. أهي بخير؟

- نعم، تبدو بأحسن حال. أظنها تفكر بالزواج، أو أن لها...

- لها صديق دائم، أليس كذلك؟ آه، كلنا مررنا بذلك. وهذا لا يعني أننا تزوجنا جميعاً أول رجل لقيناه.

- ألا تعرفين امرأة تُدعى السيدة بيرتن-كوكس؟

- بيرتن-كوكس؟ يبدو أنني أعرف هذا الاسم. ولكن... لا، لا أظن ذلك. أكانت تعيش هنا أو تأتي لزيارتهما أو ما شابه ذلك؟

لا، لا أذكر أحداً بهذا الاسم. لست متأكدة... أيكون صديقاً قديماً للجنرال رافنزكروفت، عرفه في الملايو؟ لا أدري.

ثم هزت رأسها حيرة. فقالت السيدة أوليفر: حسناً، لا ينبغي لي البقاء وممارسة المزيد من النميمة معك. لقد كان من الرائع أن أراك وأرى مارلين.

* * *

الفصل التاسع

نتائج البحث الفِيَلي

قال جورج خادم هيركيول بوارو: جاءتك مكالمة هاتفية، من السيدة أوليفر.

- آه، نعم يا جورج.. وماذا لديها؟

- لقد تساءلت إن كان بوسعها أن تأتي لرؤيتك هذه الليلة، بعد العشاء.

- سيكون ذلك رائعاً. لقد أمضيتُ نهاراً متعِباً، وستكون رؤية السيدة أوليفر تجربة مُنشِّطة؛ فهي مُسلية دوماً، بالإضافة إلى مجيئها بالغريب غير المتوقع فيما تقوله. هل ذكرت الأفيال بالمناسبة؟

- الأفيال يا سيدي؟ لا، لا أظن ذلك.

- آه، يبدو -إذن- أن الأفيال كانت مُخيبة للآمال.

نظر جورج إلى سيده بشيء من الارتياب. كانت تمرّ أوقات

لا يفهم فيها تماماً ملاحظات بوارو. قال الأخير: اتصل بها وأخبرها إنني سأكون سعيداً باستقبالها.

ذهب جورج لتنفيذ هذا الأمر، ثم عاد ليقول إن السيدة أوليفر ستأتي في نحو التاسعة إلاّ ربعاً، فقال له بوارو: حضِّر لنا قهوة وبعض الكعك.

- هل ستحتاجان أي شراب آخر يا سيدي؟

- لا، لا أظن ذلك. أنا سأشرب عصير التوت الأسود.

- نعم يا سيدي.

❊ ❊ ❊

وصلت السيدة أوليفر في وقتها المحدد تماماً، وقد حياها بوارو بكل مظاهر الود، ثم قال: وكيف حالك يا سيدتي العزيزة؟

قالت: "مرهَقة"... ثم رمت نفسها على الكرسي الوثير الذي أشار له بوارو وأضافت: مرهقة تماماً.

- «كيف كان الصيد...»، لا أستطيع تذكر المثل.

- أنا أذكره؛ فقد تعلمتُه وأنا طفلة: «كيف صيدك في هذا المكان الضائع؟».

- أنا واثق أن هذا لا ينطبق على رحلة الصيد التي قمتِ بها. أعني بشأن ملاحقتك للأفيال، ما لم تكن تلك مجرد عبارة بلاغية.

- أبداً. لقد كنتُ ألاحق الفِيَلة بجنون، هنا وهناك وفي كل مكان. لو تعرف كم استهلكتُ من وقود للسيارة، وكم ركبتُ من قطارات، وكم كتبتُ من رسائل، وأرسلتُ من برقيات... ما كنتَ لتصدق كم هو متعب هذا الأمر.

- استريحي إذن، وتناولي بعض القهوة.

- نعم، سأشرب قهوة سوداء قوية رائعة. هذا ما أريده تماماً.

- هل توصلتِ إلى أي نتائج... إن كان لي أن أسأل؟

- الكثير من النتائج. المشكلة أنني لا أعرف إن كان أيٌّ منها مفيداً.

- ولكنك حصلتِ على حقائق، أليس كذلك؟

- ليس تماماً. لقد علمتُ بأشياء قال الناس إنها حقائق، ولكني -شخصياً- أشك كثيراً فيما إذا كانت كذلك.

- أكانت مجرد أقاويل؟

- لا. كانت كما توقعتُ لها... ذكريات. لقيت كثيراً من الناس ممن لديهم ذكريات، والمشكلة أنك عندما تتذكر الأمور فإنك لا تتذكرها دوماً بالشكل الصحيح، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنها مع ذلك يمكن أن توصف بأنها حقائق. أليس كذلك؟

- وماذا فعلتَ أنت؟

- أنت دوماً عنيدة يا سيدتي. إنك تطلبين مني أن أتراكض هنا وهناك، أن أفعل أشياء أنا الآخر.

- حسناً، هل تراكضت؟

- لم أتراكض، ولكنني أجريت بعض المشاورات مع آخرين من أبناء مهنتي.

- يبدو هذا أكثر راحة بكثير مما كنتُ أفعله. آه، هذه قهوة رائعة، قوية حقاً. لن تصدق مقدار تعبي، ومقدار ارتباكي.

- هيا، هيا. دعينا نسمع ببعض الفرص المُبشّرة. لديك أشياء، أحسب أن لديك شيئاً ما.

- لدي الكثير من الاقتراحات والقصص المختلفة، ولا أدري إن كان أيٌّ منها صحيحاً.

- قد لا تكون صحيحة وتبقى مع ذلك مفيدة.

- أعرف ما تعنيه، وهذا ما أراه أيضاً. أعني أن هذا ما فكرتُ به عندما بدأت هذا الأمر. فعندما يتذكر الناس شيئاً ويخبرونك به فإنه لا يكون -غالباً- الشيء الفعلي الذي حصل بالضبط، ولكنه ما يظنون هم أنه قد حصل.

- ولكن لا بد أن لديهم شيئاً يعتمدون عليه فيما يروونه.

- لقد أحضرتُ لك قائمة من نوع ما. لا حاجة بي للدخول في تفصيلات عن الأماكن التي ذهبتُ إليها وما قلتُه ولماذا قلتُه. لقد

خرجت عامدة بحثاً عن... بحثاً عن معلومات قد لا يستطيع المرء الحصول عليها من أحد في هذا البلد الآن، وهي كلها من أشخاص عرفوا شيئاً عن عائلة رافنزكروفت، حتى ولو لم يعرفوها بشكل جيد جداً.

- أتعنين أخباراً من مناطق أجنبية؟

- كان الكثير منها من مناطق أجنبية. من أشخاص عرفوهم هنا معرفة سطحية، أو من أشخاص كان أعمامهم أو عماتهم قد عرفوا العائلة منذ أمد بعيد.

- ولكل شخص ممن أدرجتِهم في القائمة قصةٌ يرويها... هل من إشارة ما إلى المأساة أو مَن كان معنياً بها من أشخاص؟

- تلك هي الفكرة. هل لي أن أخبرك بالأمر بشكل عام؟

- نعم، تفضلي قطعة كعك.

- شكراً.

أخذت قطعة مُحلاّة كثيراً وبُنية اللون وازدردتها بكل نشاط، ثم قالت: إنها حلوى لذيذة، تعطيك حقاً الكثير من الطاقة، هذا ما أراه دوماً. حسناً، إن لديّ الفكرة التالية: لقد قيلت لي دوماً هذه الأشياء التي تبدأ بعبارات من قبيل: "آه، نعم، بالطبع!"، "كم كان تلك القصة كلها مؤسفة!"، "أظن -بالطبع- أن الجميع يعرفون حقاً ما حدث"، أشياء من هذا القبيل.

- نعم.

- لقد ظن هؤلاء الناس أنهم قد عرفوا ما حدث. ولكن لم تكن لديهم -فعلاً- أية أسباب وجيهة لآرائهم تلك. كانت آراؤهم مجرد أشياء قالها لهم شخص أو سمعوها من صديق أو خادم أو قريب أو ما شابه ذلك، وإن الآراء كلها -كما يمكن أن تتوقع لها أن تكون- أن الجنرال رافنزكروفت كان يكتب مذكراته عن أيامه في الملايو، وكانت لديه فتاة تعمل سكرتيرة يملي عليها مذكراته فتساعده بها وتطبعها له، وأنها كانت فتاة جميلة ولا شك أنه كان بينهما شيء. أما بالنسبة للنتيجة التي تُبنى على ذلك فيبدو أن في الرأي اتجاهين مختلفين؛ يقول الأول منهما إنه أطلق النار على امرأته على أمل الزواج بالفتاة، وبعد أن قتلها أصيب بنوبة رعب مما فعله فأطلق النار على نفسه.

- تفسير رومانسي تماماً.

- والفكرة الأخرى تعتمد على وجود مُدرّسٍ كان يأتي لإعطاء دروس للابن الذي كان مريضاً فانقطع عن مدرسته الابتدائية طوال ستة أشهر... وكان المدرس شاباً وسيماً.

- آه، نعم. وقد وقعت الزوجة في حب الشاب، وربما أقامت علاقة معه، أليس كذلك؟

- كانت تلك هي الفكرة، ولكن لا يوجد أي دليل... مجرد أفكار رومانسية أخرى.

- ولذلك؟

- ولذلك أظن أن الفكرة كانت تقول إن الجنرال ربما أطلق

النار على زوجته، ثم عاد -في نوبة ندم- ليطلق النار على نفسه. وقد رويت قصة أخرى مفادها أن الجنرال كانت له علاقة، وقد كشفت زوجتُه أمرها، فأطلقت النار عليه ثم على نفسها. لقد كانت الروايات تختلف قليلاً في كل مرة، ولكن أحداً لا يعرف شيئاً في الواقع. أعني أن رواياتهم كانت دوماً مجرد قصة محتملة؛ فقد كان يمكن للجنرال أن تكون له علاقة مع فتاة، أو مع الكثير من الفتيات، أو قد تكون الزوجة هي صاحبة العلاقة مع شخص ما. وقد كان هذا الشخص مختلفاً في كل قصة قيلت لي. لم يوجد أي شيء محدد ونهائي في تلك القصص، ولا أي دليل عليها. إنها لا تعدو أن تكون الشائعات التي راجت قبل نحو اثنتي عشرة سنة، وكاد الناس ينسون أمرها الآن. ولكنهم يتذكرون منها ما يكفي ليخبروا المرء ببعض الأسماء ويتذكروا الأمور التي حدثت بهامش مقبول من الخطأ. لقد كان يعيش في البيت بستاني حاد المزاج، وكانت فيه طباخة عجوز لطيفة هي في نفس الوقت مدبرة منزل، وكانت شبه عمياء وضعيفة السمع، ولكن يبدو أن أحداً لا يشك بأن لها علاقة بالأمر، وهكذا... لقد جئتُ بكل الأسماء والاحتمالات مدونةً لديّ. وقد فهمتُ أن الزوجة كانت مريضة لوقت قصير، وأظن أن ما أصابها كان نوعاً من الحمى، ولا بد أن كثيراً من شعرها قد تساقط لأنها اشترت أربع باروكات. كانت لديها أربع باروكات -على الأقل- عُثر عليها بين أغراضها.

- نعم، أنا أيضاً سمعتُ ذلك.

- ممّن سمعته؟

- من صديق لي في الشرطة؛ فقد راجع التقارير التي كُتبت عن

التحقيق والأشياء المختلفة التي وُجدت في البيت. أربع باروكات! بودي أن أسمع رأيك في هذا الأمر يا سيدتي. أتظنين أن أربع باروكات تبدو أكثر قليلاً من المعقول؟

- الحقيقة أنني أراها كذلك فعلاً. لقد كانت لي عمة عندها باروكة، واشترت باروكة أخرى، ولكنها كانت ترسل واحدة منهما ليعاد ترتيب الشعر عليها وتضع الأخرى على رأسها. لم أسمع أبداً بامرأة لها أربع باروكات.

أخرجت السيدة أوليفر دفتر ملاحظات صغيراً من حقيبتها، وقلبت صفحاته بحثاً عن استشهادات معينة، ثم قالت: السيدة كارستيرز، عمرها سبعة وسبعون عاماً، وتكاد تكون خرفة. وهذا مُقتطف مما قالته: "إنني أذكر عائلة رافنزكروفت بشكل جيد تماماً. نعم، نعم، كانا زوجين رائعين. وأظن أن مأساتهما محزنة جداً. نعم، كان ذلك هو السرطان!". سألتها من كان يعاني من السرطان منهما، ولكن السيدة كارستيرز نسيت -فيما يبدو- تفصيلات الأمر. قالت إنها تظن أن الزوجة جاءت إلى لندن واستشارت طبيباً وأجرت عملية، ثم عادت إلى البيت وكانت تعِسة جداً، وكان زوجها حزيناً جداً عليها. ولذلك فهو بالطبع الذي أطلق النار عليها ثم على نفسه.

- أكانت تلك نظريتها أم أنها تعرف ذلك معرفة دقيقة؟

- أظنها كانت مجرد نظرية.

ثم أضافت السيدة أوليفر وهي تركز -بشكل خاص- على ما بذلته من جهود: بقدر ما أتيح لي أن أرى وأسمع خلال تحرياتي

فإن أي شخص يسمع بأن أحد أصدقائه -ممن لا يعرفهم معرفة وثيقة- قد تعرض لمرض مفاجئ أو استشار طبيباً فإنه يظن دوماً أن الأمر ينطوي على السرطان. وهذا ما يراه المرضى أنفسهم باعتقادي. توجد امرأة أخرى... لا أستطيع قراءة اسمها هنا، أظنه يبدأ بحرف التاء... قالت إن الزوج هو الذي كان يعاني من السرطان، وإنه كان تعِساً جداً، وكذلك زوجته. وقد تحدثا في الأمر معاً ولم يستطيعا تحمل هذا الأمر كله، ولذلك قررا الانتحار.

- اقتراح حزين ورومانسي.

- نعم، ولا أظنه صحيحاً حقاً. إنه لأمر مُقلق، أليس كذلك؟ أعني أن يتذكر الناس كل ذلك وأن يبدو غالباً أنهم إنما يلفقونه تلفيقاً.

- لقد وضعوا حلاً لشيء عرفوا به. أي أنهم عرفوا أن شخصاً قد جاء إلى لندن لاستشارة طبيب مثلاً، أو أن ذلك الشخص قد أقام في مستشفى لشهرين أو ثلاثة. تلك هي حقيقة عرفوها.

- نعم، وعندما يأتون للحديث عنها -بعد ذلك بوقت طويل- فإنهم يضعون لها حلاً يبتدعونه بأنفسهم. وهذا لا يساعد كثيراً، أليس كذلك؟

- بل يساعد. أتعلمين، لقد كنتِ محقة كثيراً فيما قلتِهِ لي.

سألت السيدة أوليفر بشيء من الارتياب: عن الأفيال؟

- نعم، عن الأفيال. إن من المهم معرفة حقائق معينة بقيت

في ذاكرة الناس، رغم أنهم قد لا يعرفون -بالضبط- ماذا كانت تلك الحقيقة، ولماذا حدثت، وما الذي قاد إليها. ولكن ربما كانوا يعرفون شيئاً لا نعرفه نحن وليست لدينا وسائل معرفته. لقد وجدتِ -إذن- ذكريات تقود إلى نظريات... عن خيانة زوجية، ومرض، وغيرة، واتفاق على الانتحار... كل هذه الأمور ذُكرت لك. يمكن إجراء بحث إضافي على هذه النقاط إذا ما بدا أيٌّ منها محتملاً.

- يحب الناس الحديث عن الماضي، ويحبون الحديث عنه أكثر بكثير مما يحبون الحديث عما يحدث الآن؛ فمثل هذا الحديث يعيد إليهم الأشياء. إنهم يخبرونك بدايةً -بالطبع- بالكثير عن أناس آخرين لا تريد سماع شيء عنهم، ثم تبدأ بسماع ما عرفه أولئك الناس الآخرون الذين تم تذكّرهم عن أشخاص آخرين لا يعرفهم محاوروك ولكنهم سمعوا عنهم. وهكذا يصبح الجنرال والليدي رافنزكروفت اللذان تسمع قصتهما أبعد بمرحلة إذا صح التعبير. وهذا يشبه القرابة والنسب، فابن عمك يبعد عنك مرحلة، وابن عم أبيك يبعد مرحلتين، وهكذا. ومع ذلك لا أظنني كنتُ ذات عون كبير.

- يجب ألاّ تظني ذلك. أنا واثق جداً من أن بعض هذه الأشياء المدونة في دفتر ملاحظاتك الجميل الأحمر هذا ستكون وثيقة الصلة بمأساة الماضي. بوسعي أن أخبرك -من واقع تحرياتي عن التقارير الرسمية الخاصة بتلك المأساة- أنها بقيت لغزاً غامضاً من وجهة نظر الشرطة. فقد كانا زوجين متحابين، ولم يُسمع الكثير من الأقاويل أو الشائعات عن أية مشكلات تخصهما، ولم يتم اكتشاف مرض من شأنه أن يسبب إقدام أحدهما على الانتحار. ولعلك تعرفين أنني

أتحدث الآن عن الوقت الذي سبق المأساة مباشرة... ولكن زماناً كان قبل ذلك، قبل ذلك بكثير.

- أعرف ما تعنيه، وقد حصلتُ على شيء عن ذلك الماضي البعيد من مربية قديمة لي. مربية عجوز تبلغ الآن... لا أدري، أظن أنها في الثمانين تقريباً. إنني أذكرها من سنوات طفولتي، وكانت تروي لي القصص عن أناس يؤدون الخدمة العسكرية في الخارج... في الهند ومصر وسيام وهونغ كونغ وغيرها.

- وهل أثار اهتمامك شيء مما قالته؟

- نعم، فقد تحدثت عن مأساة ما. بدت غير متأكدة تماماً من طبيعة تلك المأساة، ولست واثقة من وجود صلة لتلك المأساة بعائلة رافنزكروفت، ربما تخص عائلة أخرى في الخارج؛ لأنها لا تتذكر اسم العائلة بشكل جيد. وتتحدث القصة عن حالة عقلية لامرأة في إحدى العائلتين، إما أنها أخت الجنرال رافنزكروفت أو أخت زوجته. امرأة قضت سنوات طويلة في مصحة عقلية. وقد فهمتُ أنها قتلت أطفالها، أو حاولت قتلهم قبل فترة طويلة، ثم افتُرض أنها قد عولجت وشفيت، وسافرت إلى مصر أو الملايو... أو غير ذلك من الأماكن. وقد ذهبت لتقيم مع العائلة، ثم حدثت -فيما يبدو- مأساة أخرى، أحسب أن لها صلة أيضاً بالأطفال أو ما شابه ذلك، ولكنها كانت أمراً تم التستر عليه. ولقد تساءلتُ وتعجبت... أعني أنني تساءلت إن كان في إحدى العائلتين عرق من جنون، عائلة الجنرال أو عائلة الليدي رافنزكروفت. ولا حاجة لأن يظهر ذلك في قريب

مُقرب كالأخت، فقد يظهر في ابن عم أو قريب بعيد آخر. المهم، بدا لي في ذلك احتمال من الجدير متابعته وتقصيه.

- نعم، يوجد دائماً احتمال لأمر ينتظر سنوات طويلة ثم يعود ليظهر فجأة من مكان ما في الماضي مُلحقاً الضرر بصاحبه. هذا ما قاله لي أحدهم؛ للخطايا القديمة ظلال طويلة.

- لم يبدُ لي مُحتملاً أو متوازناً أن تكون مربيتي ماتشام قد تذكرت الأمر بشكل صحيح حقاً بشأن العائلة التي ظنت أنها موضوع القصة، ولكن يمكن أن تنسجم قصتها تلك مع ما قالته لي تلك المرأة الفظيعة في الغداء الأدبي.

- أتقصدين عندما أرادت أن تعرف...

- نعم. عندما أرادت مني أن أكتشف لها -من سيليا- إن كانت أمها هي التي قتلت أباها أم العكس.

- وهل ظنّت أن الفتاة قد تعرف ذلك؟

- الحقيقة أن من المحتمل تماماً أن تعرف الابنة. لا أعني في ذلك الوقت مباشرة... فربما كان الأمر قد أُخفي عنها، ولكنها قد تعرف أشياء عن الموضوع من شأنها أن تجعلها تدرك طبيعة الظروف التي كانت سائدة في حياتهما ومَن هو المرجح أن يقتل صاحبه منهما. رغم أنها قد لا تذكر ذلك لأحد، ولا تتحدث مع أحد بشأنه

- وتقولين إن تلك المرأة... تلك السيدة...

- نعم، لقد نسيت اسمها الآن. السيدة بيرت... اسم كهذا.

لقد قالت شيئاً عن ابنها وصديقته هذه، وأنهما يفكران في الزواج. ويمكنني أن أفهم تماماً أن المرء قد يرغب -في هذه الحالة- بمعرفة إن كانت الأم هي التي تملك في عائلتها عرقاً إجرامياً أو جنونياً أم الأب. ربما فكرت تلك السيدة بأنه إن كانت الأم هي التي قتلت الأب فإن من غير الحكمة أبداً أن يتزوج الشاب هذه الفتاة، ولكن إن كان الأب هو الذي قتل الأم فربما لم تكن لتمانع في المضي بالزواج بهذا القدر.

- أتعنين أنها سترى أن الوراثة تجري في الجانب النسوي من العائلة؟

- إنها لم تكن من النساء شديدات الذكاء. بل كانت من النوع المتسلط الذي يظن أنه يعرف الكثير، ولكنه لا يعرف. وأحسب أنك قد تفكر على هذا النحو لو كنت امرأة.

- وجهة نظر مثيرة للاهتمام، ولكنها ممكنة. نعم، أدرك ذلك. ما زال أمامنا الكثير من العمل على أية حال؛ ففي تقريرك نقاط أكثر بساطة تُستشف، وهي نقاط أفضّلها.

- مثل ماذا؟

- الباروكات... أربع باروكات.

- حسناً، أرى هذا يثير اهتمامك، ولكني لا أعرف السبب. لا يبدو أن ذلك يعني شيئاً... أما القصة الأخرى فليست سوى حديث عن شخص مجنون. يوجد كثير من المجانين الذين يودعون في المصحات لأنهم قتلوا أطفالهم أو أطفال غيرهم لأسباب جنونية تماماً

لا تجد لها أي معنى، ولكني لا أرى في ذلك سبباً يجعل الجنرال والليدي رافنزكروفت يرغبان بقتل نفسيهما.

- ما لم يكن أحدهما معنياً بالأمر.

- أتعني أن الجنرال رافنزكروفت ربما كان قد قتل أحداً، ربما طفلاً غير شرعي لزوجته أو له هو؟ أو أنها ربما قتلت طفل زوجها أو طفلها هي؟ كلا، أظن أننا نبالغ قليلاً في ميلودراميتنا بهذا التفسير.

- ومع ذلك، عادة ما يكون الناس كما يبدو عليه أمرهم.

- ماذا تعني؟

- لقد بدا أنهما زوجان متحابان، زوجان عاشا معاً بسعادة دون خلافات، ويبدو أنه لم تكن لهما حالة مرضية مزمنة غير تلك الإشارة إلى عملية جراحية، أو إلى قدوم أحدهما إلى لندن لاستشارة طبيب مختص... مع احتمال سرطان، أو لوكيميا، أو شيء من هذا القبيل، مما يفرض مستقبلاً لم يستطيعا مواجهته. ومع ذلك، لا يبدو أننا نصل إلى شيء أبعد مما هو ممكن. ولئن كان في البيت وقتها أحد آخر، كائناً من كان، فإن أصحابي -من الشرطة- الذين شهدوا التحقيق يقولون إن كل ما قيل وقتها إنما كان ينسجم مع الحقائق. إن هذين الزوجين لم يريدا -لسبب ما- الاستمرار في العيش. لماذا؟

- كنتُ أعرف زوجين أثناء الحرب (أعني الحرب العامة الثانية) ظنّا أن الألمان سينزلون في إنكلترا، وقد قررا أن يقتلا نفسيهما في حالة حدوث ذلك. وقد قلتُ لهما إن هذا القرار غبي جداً، فقالا إنه سيستحيل عليهما الاستمرار في العيش في تلك الحالة. وما زال هذا

القرار يبدو لي غبياً؛ فعلى المرء أن يتحلى بالشجاعة لاجتياز المحنة. أعني أن موتك لن يفيد أحداً آخر أبداً. إنني أتساءل...

- نعم، عمّ تتساءلين؟

- عندما قلتُ إنني أتساءل إن كانت وفاة الجنرال والليدي رافنزكروفت ستفيد أحداً آخر.

- أتعنين أن أحداً قد ورث منهما مالاً؟

- نعم. لا أعني ذلك بهذا الشكل المباشر الفج، ولكن ربما كان لأحد فرصة أفضل في الحياة من غيرهما. شيءٌ ما كان في حياتهما ولا يريدان لأي من طفليهما أن يسمع به أو يعرفه أبداً.

تنهد بوارو وقال: المشكلة فيك أنك غالباً تفكرين بأشياء يمكن أن تكون حدثت، ويمكن أن تكون وقعت. إنك تعطينني أفكاراً... أفكاراً ممكنة. لو أنها تكون فقط أفكاراً محتملة أيضاً. لماذا؟ لماذا كانت وفاة هذين الاثنين ضرورية؟ لماذا... فهما لم يكونا في ألم عظيم، ولم يكونا مريضين، ولم يكونا تعِسين جداً مما يمكن للمرء أن يراه. لماذا -إذن- يخرجان في أمسية ذلك اليوم الجميل في نزهة إلى الصخرة مصطحبين الكلب معهما...

- وما علاقة الكلب بالأمر؟

- لقد تساءلتُ للحظة: هل أخذا الكلب معهما أم أن الكلب هو الذي تبعهما؟ ما هو دور الكلب في الموضوع؟

- أحسب أن دوره كدور الباروكات. مجرد أمر إضافي آخر

لا تستطيع تفسيره ولا يبدو له أي معنى. لقد قال واحد من الفيلة التي قابلتها إن الكلب كان متعلقاً بالليدي رافنزكروفت، فيما قال الآخر إن الكلب قد عضها.

- المرء يعود دوماً إلى الأمر نفسه، فهو يريد معرفة المزيد. يريد معرفة المزيد عن الأشخاص، وكيف يمكن لك معرفة أشخاص يفصلك عنهم خليج من السنين.

- لقد فعلتَ ذلك مرة أو مرتين، أليس كذلك؟ كان ذلك عن المكان الذي تم فيه تسميم أحد الرسامين أو إطلاق النار عليه... وكان ذلك في قلعة أو حصن قرب البحر. لقد اكتشفتَ من فعل ذلك به، مع أنك لم تعرف أياً من الأشخاص.

- نعم. لم أكن أعرف أحداً من الأشخاص، ولكني علمتُ عنهم من الأشخاص الآخرين الذين كانوا هناك.

- هذا ما أحاول أنا عمله، إلاّ أنني لا أستطيع الاقتراب من الأمر بما يكفي. لا أستطيع الوصول إلى شخص عرف شيئاً محدداً حقاً، أو كان معنياً حقاً بالأمر. أترى أن علينا ترك هذا الأمر وشأنه؟

- أظن أنه سيكون من الحكمة أن نترك الأمر وشأنه. ولكن توجد لحظات لا يريد المرء فيها أن يبقى حكيماً، بل يريد اكتشاف المزيد. إن لديّ اهتماماً الآن بهذين الزوجين اللطيفين وولديهما اللطيفين. أأفترض أنهما ولدان لطيفين؟

- أنا لا أعرف الصبي، ولا أظنني قابلتُه أبداً. أتريد رؤية ابنتي بالمعمودية؟ يمكنني إرسالها لرؤيتك إن أحببت.

- نعم، أظنني أود رؤيتها أو مقابلتها بطريقة ما. ربما لم ترغب هي بالقدوم لرؤيتي، ولكن يمكن الترتيب لمقابلة. أحسب أن ذلك قد يكون مثيراً للاهتمام، وشخص آخر أود رؤيته أيضاً.

- آه! من هو؟

- المرأة التي كانت في الحفلة؛ صديقتك المتسلطة.

- ما هي بصديقة لي! لقد جاءت فقط وتحدثت معي، هذا كل ما في الأمر.

- أتستطيعين إعادة علاقتك بها؟

- آه، نعم، بكل سهولة... وأحسب أنها ستطير فرحاً بذلك.

- أود لو أراها، أود لو أعرف لماذا تريد معرفة تلك الأمور.

قالت السيدة أوليفر: "نعم، أظن أن ذلك قد يكون مفيداً". ثم تنهدت وقالت: وعلى أية حال فسيسعدني أن أنال قسطاً من الراحة من الأفيال. لقد أشارت مربيتي العجوز (التي حدثتك عنها) إلى الفِيَلة وإلى أنها لا تنسى! لقد بدأت هذه الجملة السخيفة تسكنني كالهوس. حسناً، عليك أنت أن تبحث عن المزيد من الفيلة؛ فقد جاء دورك.

- وماذا عنك أنت؟

- ربما أمكنني البحث عن بجع؟

- يا إلهي! وما هو دور البجع في هذا الأمر؟

- هذا مجرد شيء أذكره، شيء ذكّرتني به مربيتي العجوز... أنه كان يوجد أطفال صغار اعتادوا اللعب معي، وقد اعتاد أحدهم على تسميتي «السيدة فيلة»، فيما اعتاد الآخر على تسميتي «السيدة بجعة». وعندما كنتُ أقوم بدور البجعة كنتُ أتظاهر بالسباحة على الأرض، وعندما أكون في دور السيدة فيلة كانا يركبان على ظهري. ليس في هذا الأمر أي بجع.

- وهذا جيد جداً؛ إذ يكفينا ما نلاقيه من الأفيال!

* * *

الفصل العاشر

ديزموند

بعد يومين، وفيما كان بوارو يشرب كوبه الصباحي من الكاكاو، قرأ رسالة كانت ضمن بريده ذلك الصباح، وكان يقرؤها الآن للمرة الثانية. كان الخط جيداً إلى حدٍّ معقول، رغم أنه لا يكاد يحمل مؤشرات النضوج.

عزيزي السيد بوارو،

أخشى أن تجد رسالتي هذه غريبة بعض الشيء، ولكن أظن أن من المفيد أن أذكر صديقة لك. لقد حاولتُ الاتصال بها لأسألها إن كان بوسعها ترتيب أمر قدومي لرؤيتك، ولكن يبدو أنها تركت البلد. أنا أشير -هنا- إلى السيدة أريادني أوليفر، وقد قالت سكرتيرتها شيئاً عن ذهابها في رحلة صيد إلى شرقي أفريقيا. وإن كان الأمر كذلك، فإنني لا أظنها تعود قبل مضي بعض الوقت. ولكنني واثق أنها كانت ستساعدني لو كانت هنا. إنني -في الحقيقة- أود رؤيتك كثيراً. فأنا بأمسّ الحاجة إلى استشارة من نوع ما.

لقد فهمتُ أن السيدة أوليفر قد تعرفت إلى أمي التي قابلتْها في حفل غداء. وسأكون ممتناً جداً لك إن أنت أعطيتني موعداً لرؤيتك في أحد الأيام. يمكنني أن أُكيف وقتي حسب أي موعد تقترحه. كما يوجد أمر لم أفهمه، فسكرتيرة السيدة أوليفر أشارت إلى كلمة «أفيال»، وأفترض أن لذلك علاقة برحلة السيدة أوليفر إلى شرق أفريقيا. لقد تحدثت السكرتيرة كما لو أن الكلمة كانت نوعاً من كلمة السر. إنني لا أفهم ذلك حقاً، ولكن ربما فهمتَهُ أنت. إنني في حالة عظيمة من القلق والهم وسأكون ممتناً جداً إن استطعتَ رؤيتي.

المخلص: ديزموند بيرتن-كوكس

قال بوارو: هذا اسم الفتى الشاب!

سأله جورج: ماذا قلتَ يا سيدي؟

- لا شيء... مجرد عبارة. بعض الأشياء ما أن تغزو حياتك حتى تجد صعوبة عظيمة في التخلص منها ثانية، ويبدو أن المثل على ذلك -في حالتي أنا- هو الأفيال.

ثم ترك طاولة الإفطار ونادى سكرتيرته المخلصة، الآنسة ليمون، فأعطاها رسالة ديزموند بيرتن-كوكس وأصدر تعليماته لها بتحديد موعد له معه قائلاً: لست مشغولاً حالياً؛ سيكون الغد مناسباً تماماً.

ذكّرته الآنسة ليمون بموعدين ينتظرانه أصلاً، ولكنها اعترفت

بأن ذلك سيترك بضع ساعات شاغرة، وقالت إنها سترتب الموعد كما أَحب، وتساءلت: ألهذا الموعد علاقة بحدائق الحيوان؟

- لا تكاد تكون له علاقة بذلك. كلا، لا تذكري الفِيَلة في رسالتك له، فقد يكون ذلك كثيراً. إن الفيلة حيوانات ضخمة، وهي تحتل مساحة واسعة من الأفق. نعم، يمكننا ترك الأفيال جانباً، فلا شك أنها ستُطرح في معرض الحديث الذي أنوي إجراءه مع ديزموند بيرتن-كوكس.

* * *

أعلن جورج وهو يُدخل الضيف المُنتظَر: السيد ديزموند.

كان بوارو قد نهض ووقف بقرب الموقد، وبقي للحظات دون كلام، ثم تقدم بعد أن أخذ انطباعه الإجمالي عن الشاب؛ شخصية لا تخلو من العصبية والحيوية. ورأى بوارو أنهما خصلتان طبيعيتان تماماً في تلك الشخصية. متململ قليلاً، ولكنه متمكن من إخفاء ذلك بكل نجاح.

قال الشاب وهو يمد يده: السيد هيركيول بوارو؟

- نعم، واسمك هو ديزموند بيرتن-كوكس. اجلس أرجوك، وأخبرني بما يمكنني تقديمه لك، وبأسباب قدومك لرؤيتي.

- سيكون من الصعب قليلاً شرح الأمر كله.

- يوجد الكثير من الأمور التي يصعب شرحها، ولكن لدينا الكثير من الوقت. تفضل بالجلوس.

نظر ديزموند بشيء من الارتياب إلى الرجل الواقف قبالته. أحسّ أنه شخصية مضحكة حقاً؛ الرأس البيضوي، والشارب الضخم... ليست شخصية تفرض نفسها كثيراً. والحقيقة أنها ليست ما توقع مواجهته تماماً. قال: أنت... أنت رجل تحرٍ، أليس كذلك؟ أعني أنك... أنك تكتشف الأمور، وأن الناس يأتون إليك ليكتشفوا أو ليطلبوا منك أن تكتشف لهم الأمور.

- نعم، هذه إحدى مهماتي في الحياة.

- لا أحسبك تعرف ما جئتُ من أجله، أو تعرف الكثير عني.

- أعرف القليل.

- تعني بذلك السيدة أوليفر، صديقتك. هل أخبرتك بشيء؟

- أخبرتني أنها التقت بابنة لها بالمعمودية، آنسة تُدعى سيليا رافنزكروفت. هذا صحيح.

- نعم، نعم. لقد أخبرتني سيليا بذلك. والسيدة أوليفر، هل هي... هل تعرف أمي أيضاً... أعني هل تعرفها معرفة جيدة؟

- لا، لا أحسب أنهما يعرفان بعضهما بعضاً جيداً. السيدة أوليفر تقول إنها التقتها في غداء أدبي مؤخراً وتبادلت معها شيئاً من الحديث، وقد فهمتُ أن أمك قد تقدمت منها بطلب معين.

قال الفتى: لم يكن ذلك من شأنها.

ثم انخفض حاجباه فوق أنفه، وبدا غاضباً الآن، غاضباً... بل كاد يبدو عليه حب الانتقام. قال: يا لَهُنّ... أعني للأمهات...

- أحسب أن الكثير من العواطف يُبذل هذه الأيام، بل ربما كان ذلك وارداً دوماً. ولا تنفكُّ الأمهات يفعلن أشياء يتمنى أبناؤهن لو لم يفعلْنها، ألست مصيباً في ذلك؟

- أنت مصيب تماماً. ولكن أمي... ولكن أمي تتدخل في أشياء لا تعنيها حقاً.

- لقد فهمتُ أنك وسيليا صديقان حميمان، وقد سمعت السيدة أوليفر من أمك كلاماً عن زواج، أيكون ذلك في المستقبل القريب؟

- نعم، ولكن لا حاجة لها حقاً في طرح الأسئلة والقلق على أشياء... على أشياء ليست من شأنها.

قال بوارو: "ولكن هذا هو دأب الأمهات". ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وأضاف: لعلك شديد التعلق بأمك؟

- ما كنتُ لأقول ذلك. كلا، ما كنتُ لأقول ذلك بالتأكيد. الحقيقة... حسناً، من الأفضل أن أخبرك مباشرة. إنها ليست أمي فعلاً.

- آه، حقاً! ليس هذا ما فهمتُه.

- أنا ابنها بالتبني. كان لها ابن توفي طفلاً صغيراً، ثم أرادت تبني طفل فتبنتني وربتني. إنها تتحدث عني دوماً باعتباري ابنها،

وتفكر بي كابن لها، ولكنني لستُ حقاً كذلك ونحن غير متشابهَين أبداً؛ إننا لا ننظر إلى الأمور بنفس الطريقة.

- هذا مفهوم جداً.

- يبدو أنني لا أتقدم فيما أريد طلبه منك.

- أنت تريد مني أن أفعل لك شيئاً؛ أن أكتشف لك شيئاً، أو أن أتابع لك خطّ تحقيق معيناً، أليس كذلك؟

- أحسب أن ذلك يفي بما أريده. لا أدري كم تعرف عن... عن طبيعة المشكلة.

- أعرف قليلاً، ولكن لا أعرف التفصيلات. لا أعرف الكثير عنك أو عن الآنسة رافنزكروفت التي لم أقابلها بعد. بودّي لو أقابلها.

- نعم، الحقيقة أنني كنتُ أفكر بإحضارها لتتحدث معك، ولكني رأيتُ أن من الأفضل أن أتكلم معك بنفسي أولاً.

- يبدو هذا تصرفاً عقلانياً تماماً. أأنت مكتئب من شيء ما؟ قلق؟ لديك مصاعب؟

- ليس الأمر كذلك في الواقع. كلا، لا يُفترض أن تكون، بل وليست توجد أية مصاعب. إن ما حدث هو أمر حدث قبل سنين طويلة، عندما كانت سيليا ما زالت طفلة، أو فتاة في المدرسة على الأقل. ووقعت مأساة، من تلك الأمور التي تحدث... تحدث كل يوم وفي أي وقت. شخصان يحزنان كثيراً نتيجةً لأمرٍ ما فينتحران.

كان ذلك نوعاً من الاتفاق على الانتحار. لم يعرف أحد الكثير عن الأمر أو السبب أو غير ذلك، ولكن مثل هذا الأمر يحدث في نهاية المطاف، وليس من شأن أطفال مثل هؤلاء الناس أن يقلقوا من هذا الأمر. أعني إن كانوا يعرفون الحقائق الكافية... وهو ليس من شأن أمي بتاتاً.

- عندما يخوض المرء غمرات الحياة فإنه يجد -أكثر فأكثر- أن الناس غالباً ما يهتمون بأمور ليست من شأنهم. بل يهتمون بمثل تلك الأمور أكثر من اهتمامهم بأمور يمكن اعتبارها من شأنهم هم.

- ولكن هذا كله حدث وانقضى ولم يعرف أحدٌ الكثير عنه، وأمي تستمر في طرح الأسئلة. تريد أن تعرف الأمور، وقد جعلت سيليا دأبَها وأوصلتها إلى حالة لا تعرف فيها حقاً إن كانت تريد الزواج بي أم لا.

- وأنت؟ أما تزال تعرف إن كنتَ تريد الزواج بسيليا؟

- نعم، أعرف بالطبع. إنني أنوي الزواج بها. أنا مصمم تماماً على ذلك، ولكنها منزعجة جداً. تريد أن تعرف الأمور... تريد أن تعرف لماذا حدث كل ذلك، وهي تظن... وأنا واثق أنها مخطئة في ذلك... ولكنها تظن أن أمي تعرف شيئاً عن الأمر.

- حسناً، إنني أتعاطف كثيراً معك، ولكن يبدو لي -إن كنتما شابين عاقلين وتريدان الزواج- أنه لا يوجد ما يمنعكما من ذلك. يمكنني القول إن بعض المعلومات عن هذه المأساة الحزينة قد أُعطيت إليّ بناء على طلبي. وهي -كما تقول- قضية حدثت قبل سنين

طويلة، ولم يكن لها تفسير كامل... أبداً. ولكن المرء لا يستطيع أن يجد تفسيراً لكل الأمور المحزنة في هذه الحياة.

قال الفتى: لقد كان اتفاقاً على الانتحار. لا يمكن أن يكون أي شيء آخر، ولكن...

- أنت تريد أن تعرف سبب هذا الأمر، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح. هذا ما كان يقلق سيليا، وقد كادت تقلقني أيضاً. ومن المؤكد أن أمي قلقة، رغم أن الأمر لا يعنيها أبداً كما قلت. لا أظن أن اللوم يقع على أحد. أعني أنه لم يقع شجار أو ما شابه ذلك. المشكلة هي أننا لا نعرف شيئاً بالطبع، وما كنتُ أنا لأعرف على أية حال؛ لأني لم أكن موجوداً.

- ألم تكن تعرف الجنرال أو الليدي رافنزكروفت أو سيليا؟

- لقد عرفتُ سيليا -إلى حدٍّ ما- طوال حياتي؛ فقد كانت العائلة التي أقضي لديها عطلاتي المدرسية تسكن مجاورة تماماً لعائلة سيليا عندما كنا صغيرين، مجرد طفلين. وقد أحب كلٌّ واحد منا الآخرَ دوماً وانسجمنا معاً. وبعد ذلك انقضت تلك الفترة، ولم أقابل سيليا لسنين طويلة. كانت عائلتها في الملايو، وكذلك كانت أسرتي، وأظن أن العائلتين عادتا فالتقتا هناك. أبي متوفى الآن، ولكني أظن أن أمي سمعت بأمور عندما كانت في الملايو، وقد تذكرت الآن ما سمعته وشغلت نفسها به كثيراً، وهي تكاد... تكاد تفكر بأمور لا يمكن أن تكون صحيحة... أنا واثق أنها ليست صحيحة، ولكنها مصممة على إقلاق سيليا بها. أريد أن أعرف ما الذي حصل فعلاً،

وسيليا تريد معرفة ما حصل فعلاً. ما هي حقيقة ما حصل، ولماذا؟ وكيف؟ وليس مجرد كلام سخيف للناس.

- نعم، ربما لا يكون مستغرَباً أن تشعرا -أنتما الاثنين- بهذا الشعور، ويخيل لي أن ذلك ينطبق على سيليا أكثر مما ينطبق عليك؛ فهذا الأمر يزعجها أكثر مما يزعجك. ولكن هل لي أن أسأل ما هي أهمية ذلك؟ إن ما يهم هو الآن، الحاضر. الفتاة التي تريد الزواج بها، والفتاة التي تريد الزواج بك... ما علاقة الماضي بكما؟ هل يهم إن كان والداها قد اتفقا على الانتحار أو كانا قد ماتا في حادث طائرة أو قُتل أحدهما في حادث وانتحر الآخر فيما بعد؟

- نعم، نعم، أظن أن ما تقوله عقلاني جداً وصحيح تماماً، ولكن... الحقيقة أن الأمور قد تطورت بشكل جعلني مضطراً للتأكد من اقتناع سيليا ورضاها. إنها... إنها فتاة تهتم بالأمور، رغم أنها لا تتحدث كثيراً عن ذلك.

قال بوارو: ألم يخطر لك أنه قد يكون من الصعب جداً (إن لم يكن من المستحيل) كشف ما حدث فعلاً؟

- تعني أيٌّ منهما قتل صاحبه، ولماذا، ومن أطلق النار على الآخر ثم على نفسه. هذا صحيح ما لم... ما لم يوجد شيء.

-نعم، ولكن من شأن ذلك الشيء أن يكون في الماضي، ولذلك أقول ما هي أهميته الآن؟

- لا ينبغي أن تكون له أهمية... وما كان ليهم لولا تدخل أمي وتنقيبها في الماضي... ما كان الأمر ليهم. لا أحسب أن سيليا قد

فكرت كثيراً بالموضوع أبداً. أظنها كانت في مدرستها في سويسرا في وقت وقوع المأساة، ولم يخبرها أحدٌ بالكثير، وعندما يكون المرء مراهقاً أو أصغر من ذلك فإنه يتقبل الأمور هكذا، كما وقعت، دون أن يرى علاقة له بذلك.

- ألا ترى إذن أنك ربما كنتَ تطلب المستحيل؟

- أريد منك أن تكتشف لي الأمور. ربما لم يكن ذلك من الأمور التي يمكنك اكتشافها، أو تحب اكتشافها.

- لا اعتراض لديّ على مسألة الاكتشاف، بل إن لدى المرء -في الحقيقة- شيئاً من الفضول إذا صح التعبير. إن المآسي قضايا إنسانية، ومن الطبيعي أن يهتم المرء بمعرفة حقائقها إذا ما استرعت انتباهه. ما أقوله هو: أمن الحكمة أو الضرورة إثارة الأمور القديمة؟

- ربما لا يكون ذلك من الحكمة، ولكن كما ترى...

قاطعه بوارو قائلاً: وفوق ذلك، ألا توافقني على أن اكتشاف ذلك يكاد يكون مستحيلاً بعد كل هذا الزمن؟

- نعم، هذا ما لا أتفق معك بشأنه. أظن أن ذلك سيكون ممكناً تماماً.

- هذا مثير جداً! ولماذا تظن أنه سيكون ممكناً تماماً؟

- بسبب...

- بسبب ماذا؟ إن لديك سبباً.

- أظن أنه يوجد أشخاص من شأنهم أن يعرفوا. أحسب أن أشخاصاً يمكنهم أن يخبروك إذا ما رغبوا في ذلك؛ أشخاصاً ربما لا يرغبون بإخباري أنا، وقد لا يرغبون بإخبار سيليا، ولكن بوسعك أنت أن تستخلص منهم الأمور.

- هذا مثير.

- إنها أشياء حدثت، حدثت في الماضي. لقد... لقد سمعتُ طرفاً منها بشكل غامض؛ مشكلة مرض عقلي لدى امرأة... لا أدري من هي بالضبط، ربما كانت الليدي رافنزكروفت... وأحسب أنها كانت في مصحة عقلية لسنوات؛ لفترة طويلة. وقد حدثت مأساة ما عندما كانت صغيرة. مأساة طفلٍ توفي، أو حادث. شيء... شيء كانت هي معنية به بطريقة ما.

- أفترضُ أن هذا ليس شيئاً تعرفه أنت معرفة مباشرة، أليس كذلك؟

- بلى؛ إنه شيء قالته أمي. شيء سمعتْه، وأظنها سمعته في الملايو. أقاويل سمعتها هناك من أشخاص آخرين. أنت تعرف كيف تجتمع العائلات هناك في إطار الخدمة العسكرية، أناس من هذه الفئة، والنساء يجتمعن معاً وتبدأ الأقاويل... كل النساء الإنكليزيات اللاتي جمعتهن الغربة... ويقلن أشياء قد لا تكون صحيحة أبداً.

- وأنت تريد أن تعرف إن كانت تلك الأشياء صحيحة أو خاطئة؟

- نعم، ولا أدري كيف أكتشف ذلك بنفسي. ليس الآن، فقد حدث ذلك منذ أمد بعيد، ولا أدري لمن أتوجه بالسؤال، ولا إلى من ألجأ، ولكن إلى أن نعرف ما الذي حصل حقاً ولماذا حصل...

قاطعه بوارو قائلاً: إن ما تعنيه برأيي (وهذا تخمين من طرفي أظنه صحيحاً) هو أن سيليا رافنزكروفت لا تريد الزواج بك إلى أن تتأكد تماماً من عدم وجود خلل عقلي تسرب إليها من أمها كما هو مُفترض. أهذا هو الأمر؟

- أظن أن هذا هو ما يكمن في رأسها بشكل ما. أحسب أن أمي هي التي وضعته في رأسها، وأظنه الأمر الذي تريد أمي تصديقه. رغم أنني لا أجد لديها أي سبب لتصديق ذلك باستثناء الكيد السيء والنميمة وما شابه ذك.

- لن يكون التحقيق في ذلك أمراً سهلاً.

- نعم، ولكني سمعتُ عنك أشياء. يقولون إنك ذكي جداً في اكتشاف ما حدث بالفعل. تطرح أسئلة على الناس وتغريهم بإخبارك بالأمور.

- مَن الذين تقترح أن أتوجه إليهم بأسئلتي؟ إنني أفترض أنك -عندما تقول الملايو- لا تشير إلى أهل البلد الأصليين. أنت تتحدث عن أيام وجود الإنكليز في الملايو، عندما كانت هناك تجمعات لعائلات الذين يؤدون خدمتهم في الملايو. أنت تتحدث عن إنكليز، وعن الشائعات والأقاويل التي كانت رائجة في إحدى المحطات الإنكليزية هناك.

- أنا لا أعني فعلاً أن في ذلك أي فائدة الآن. لقد مر زمن طويل جداً يجعل أولئك الذين شاركوا في تلك الأقاويل وتحدثوا فيها ينسون كل ما يتعلق بها، وربما كانوا ميتين الآن. أظن أن أمي قد فهمت الكثير من الأمور بشكل خاطئ، وأنها سمعت أموراً وبَنَت عليها -في عقلها- المزيد من الأمور الأخرى.

- وأنت ما زلت ترى أنني سأستطيع...

- أنا لا أعني أنني أريد منك الذهاب إلى الملايو وطرح الأسئلة هناك؛ إذ لن تجد أحداً من الناس المعنيين الآن.

- إذن فأنت ترى أنك لا تستطيع إعطائي أسماء معينة؟

- ليس ذلك النوع من الأسماء.

- ولكنك تستطيع إعطائي بعض الأسماء، أليس كذلك؟

- حسناً، سأخبرك بما لديّ. أظن أن شخصين يمكن أن يعرفا ماذا حصل ولماذا؛ ذلك أنهما كانا هناك. كان من شأنهما أن يعرفا حقاً، معرفة مباشرة وثيقة.

- وأنت لا تريد الذهاب إليهما بنفسك؟

- الحقيقة أنني أستطيع ذلك. وقد فعلتُه على نحوٍ ما، ولكني لا أظن أنهما... لا أدري. لا أحب طرح بعض الأسئلة التي أود طرحها، ولا أظن أن سيليا ستحب ذلك أيضاً. إنهما لطيفتان جداً، ومن شأنهما أن تعرفا. ليس لأنهما تتعاملان بالنميمة والأقاويل، بل لأنهما ربما كانا قد قدّمتا يد العون. ربما كانتا قد فعلتا شيئاً لتحسين

الأوضاع، أو حاولتا ذلك، إلاّ أنهما لم تستطيعا. آه، إنني أسيء شرح الأمور كلها.

- كلا، أنت تشرحها بشكل جيد جداً. أنا مهتم، وأظن أن لديك شيئاً محدداً في ذهنك. قل لي، هل تتفق سيليا معك؟

- أنا لم أقل لها الكثير؛ فهي كانت متعلقة جداً بمادي وزيلي.

- مادي وزيلي؟

- آه، هذان اسماهما! يجب أن أشرح لك؛ فأنا لم أحسن الإفصاح عن الأمر. عندما كانت سيليا طفلة تماماً... عندما عرفتها لأول مرة، وكنا نعيش -كما قلت- متجاورين في الريف، كانت تقيم في بيت أهلها فتاة فرنسية من أولئك اللاتي يُقمن في البيوت ويخدمن مقابل تعلم اللغة، ولكنها كانت -في الواقع- أقرب إلى مربية لها، مربية فرنسية. وكانت هذه الفتاة لطيفة جداً، تلعب معنا جميعاً نحن الأطفال، وكانت سيليا تناديها دوماً «مادي» اختصاراً... وأخذت الأسرة كلها تناديها مادي.

- نعم، اختصاراً لكلمة «مادموزيل».

- نعم، وبما أنها فرنسية، فقد رأيتُ... رأيتُ أنها ربما أخبرتك بأشياء عرفَتْها ولا تريد الحديث عنها لأشخاص آخرين.

- آه، وماذا عن الاسم الآخر الذي ذكرتَه؟

- زيلي. كانت فتاة من نفس النوع، وهي آنسة فرنسية أيضاً. أظن أن مادي بقيت هناك نحواً من سنتين أو ثلاث سنوات، ثم عادت

بعد ذلك إلى فرنسا، أو أظنها عادت إلى سويسرا، وجاءت هذه الفتاة الأخرى. كانت أصغر من مادي، ولم نُطلق عليها اسم مادي؛ فقد أسمتها سيليا زيلي. كانت شابة صغيرة وجميلة ومُسلية جداً، وقد تعلقنا جميعاً بها أشدّ التعلق. كانت تلعب ألعاباً معنا، وكنا نحبها جميعاً. كما أحبتها العائلة كلها بما فيها الجنرال.

- والليدي رافنزكروفت؟

- آه، لقد كانت تحب زيلي كثيراً هي الأخرى، وكانت زيلي تحبها، ولذلك عادت ثانيةً بعد أن غادرت.

- عادت؟

- نعم. عندما مرضت الليدي رافنزكروفت وأُدخلت المستشفى عادت زيلي لتصبح أشبه بمرافقة لها ولتعتني بها. لا أعرف ذلك يقيناً، ولكني أحسبه صحيحاً. أظن -بل أكاد أكون واثقاً- من أنها كانت هناك عندما... عندما حدثت... المأساة. ولذلك فإن من شأنها أن تعرف ما حدث حقاً.

- وهل تعرف عنوانها؟ أتعرف أين هي الآن؟

- نعم، أعرف أين هي، ولدي عنوانها. بل لدي عنوانهما كليهما. وقد رأيت أن بوسعك أن تذهب لرؤيتها، أو لرؤية الاثنتين. أعرف أنني أطلب منك الكثير...

ثم توقف عن الكلام، فنظر إليه بوارو لبضع لحظات وقال: نعم، إنه احتمال، إنه احتمال بالتأكيد.

* * *

الكتاب الثاني

ظلال طويلة

الفصل الحادي عشر

المفتش غاروي وبوارو
يقارنان معلوماتهما

نظر كبير المفتشين غاروي عبر المائدة إلى بوارو وطرفت عيناه. إلى جانبه قدّم جورج له كوب الشاي، ثم مضى إلى بوارو ووضع أمامه كأساً مليئاً بسائل قرمزي غامق. سأله غاروي بشيء من الاهتمام: ما هذا الذي تشربه؟

- إنه شراب التوت الأسود.

- يا إلهي، لكل امرئ ذوقه الفريد! ما هذا الذي أخبرني به سبينس؟ لقد قال لي إنك كنتَ تشرب شراباً من الأزهار، أليس كذلك؟ ما هو ذلك الشراب، أهو شراب فرنسي خاص؟

- لا، إنه شراب الزهورات، وهو مفيد للتخفيف من الحمى.

- آه، شراب خاص للمرضى.

ثم شرب من كوبه وقال: هذا لا يصلح نخباً للانتحار!

- أكان انتحاراً إذن؟

- وماذا عساه يكون غير ذلك؟ يا للأشياء التي أردتَ معرفتها!

ثم هزّ رأسه واتسعت ابتسامته، فقال بوارو: إنني آسف على إزعاجك إلى هذا الحد. أنا أشبَهُ بذلك الطفل في إحدى قصصكم التي كتبها السيد كيبلنغ؛ «أعاني من الفضول الذي لا يشبع».

- الفضول الذي لا يشبع... لقد كتب كيبلنغ قصصاً جميلة، وكان متمكناً من صنعته أيضاً. لقد قيل لي مرة إن ذلك الرجل يمكنه أن يتجول جولة قصيرة في مُدمرة ويعرف عنها أكثر مما يعرفه أفضل المهندسين في البحرية الملكية.

- مع الأسف، أنا لا أعرف شيئاً؛ ولذلك فإنني مضطر لطرح الأسئلة. أخشى أن أكون قد أرسلتُ لك قائمة طويلة من الأسئلة.

- ما أثار اهتمامي هو الطريقة التي تقفز بها من موضوع إلى آخر. فمن تقارير الأطباء والمحللين النفسيين إلى كيفية توزيع الإرث ومن الذي استفاد من المال: ومن الذي حصل على مال ومن كان يتوقع مالاً ولم يحصل عليه، وتفصيلات تسريحات الشعر النسائية، والباروكات، واسم المحل الذي يبيعها... وبالمناسبة، فإن تلك الباروكات كانت تأتي بعلب رائعة من الكرتون الأحمر.

- لقد عرفتَ كل هذه الأشياء، أؤكد لك أن هذا يدهشني.

- آه، لقد كانت قضية محيرة، وقد قمنا طبعاً بتدوين كل شيء عن الموضوع. لم نستفد من ذلك كله شيئاً، ولكنا احتفظنا بالملفات، وكانت كل الحقائق هناك لمن يريد البحث عنها.

ثم دفع بورقة عبر الطاولة وقال: ها هو طلبك. أما شركة الشعر فهي شركة في شارع بوند تتقاضى أسعاراً باهظة وتُسمى يوجين آند روزنتيل، وقد نقلوا مقرهم فيما بعد. نفس الشركة، ولكنها ذهبت للعمل في شارع سلوان. ها هو العنوان، ولكنها الآن محل لبيع الحيوانات المنزلية. لقد تقاعدت اثنتان ممن كُنّ يُدرنَ المحل قبل بضع سنوات، وكانت الليدي رافنزكروفت في قائمة زبائنهما. تعيش روزنتيل في تشيلتنهام الآن، وما تزال في نفس مجال العمل وتسمي نفسها مصففة شعر؛ فهذا هو الاسم الحديث للمهنة... ثم تضيف عبارة: «خبيرة تجميل»! «نفس الشخص ولكن بقبّعة مختلفة»... كما كنا نقول ونحن صغار.

- آها؟

- ولماذا هذه الآها؟

- أنا ممتن لك غاية الامتنان؛ لقد زوّدتني بفكرة. كم هي غريبة الطريقة التي تأتي بها الأفكار لرأس المرء!

- في رأسك أصلاً الكثير من الأفكار؛ هذه إحدى مشكلاتك. أنت لستَ بحاجة إلى أية أفكار إضافية. حسناً الآن، لقد راجعتُ لك تاريخ العائلة قدر استطاعتي، وليس في ذلك الكثير مما يفيد. كان أليستير رافنزكروفت من أصل اسكوتلندي، كان أبوه رجل دين، وكان

له عمّان في الجيش كلاهما متميز ومعروف. وقد تزوج مارغريت بريستن-غري، وهي فتاة كريمة المحتد. ليست في العائلة فضائح، وقد كنتَ مُحقاً في مسألة كونها واحدة من توأمين شقيقتين (ولا أدري من أين حصلتَ على هذه المعلومة!)؛ هما دوروثي ومارغريت المعروفتان -في العائلة- باسمي دولي ومولي. وقد عاشت عائلة بريستن-غري في هاترز غرين في سوسكس، وكانت الفتاتان توأمين متطابقين شكلاً، وهو أمر مألوف في مثل هذه التوائم. ظهر أول سن لهما في نفس اليوم، وأصيبتا بالحمى القرمزية في نفس الشهر، وكانتا ترتديان نفس الملابس، وأحبتا نفس النوع من الرجال، وتزوجتا في نفس الوقت تقريباً... وكان كلا الزوجين في الجيش. لقد توفي -قبل بضع سنوات- الطبيب الذي كان يرعى البنتين حين كانتا صغيرتين، ولذلك لم يعد ممكناً الحصول على أي معلومات ربما امتلكها. وقد كانت مأساةٌ ما مرتبطةً بواحدة منهما.

- بالليدي رافنزكروفت؟

- لا، بل بالأخرى؛ فقد تزوجت رجلاً يُدعى الكابتن جارو ورزقت بطفلين، أما أصغرهما -وكان صبياً في الرابعة من عمره- فقد صدمته عربة (أو سقط عن لعبة أطفال من تلك التي توضع في الحدائق... أو ضُرب برفش أو بشيء مشابه...) وأصيب في رأسه ووقع في بركة اصطناعية فغرق. وقد بدا أن الطفلة الأكبر -وهي فتاة في الثامنة من عمرها- هي التي فعلت ذلك به؛ فقد كانا يلعبان معاً، وتشاجرا كما هي عادة الأطفال. لا يبدو في ذلك الكثير من الشك، ولكن رُويت قصة أخرى؛ فقد قال أحدهم إن الأم هي التي فعلتها لأنها غضبت منه... وقال شخص آخر إن امرأة أخرى تعيش

في البيت المجاور هي التي ضربته. على أي حال، لا أحسب أن في ذلك أية أهمية بالنسبة لك؛ فلا علاقة لذلك باتفاق على الانتحار تقوم به أخت الأم وزوجها بعد سنوات من ذلك.

- نعم، لا يبدو لذلك علاقة بالأمر، ولكن المرء يحب معرفة خلفية الأحداث.

- نعم، وكما قلتُ لك: على المرء أن يعود إلى الماضي. ولكن لا يمكنني القول إننا أوغلنا في الماضي إلى هذا الحد؛ فهذا كله كان قبل سنوات معدودة من الانتحار كما أشرت.

- هل اتُخذت أي إجراءات وقتها؟

- نعم، لقد تمكنت من العودة إلى أرشيف القضية وإلى بعض التقارير عنها ووجدت أموراً عديدة. فقد ثارت بعض الشكوك، وقد تأثرت الأم بشكل بالغ... انهارت كلياً واضطرت لدخول المستشفى. ويقولون إنها لم تعد نفس المرأة بعد ذلك أبداً.

- ولكنهم ظنوا أنها هي مَن فعلها، أليس كذلك؟

- هذا ما ظنه الطبيب. لم يكن لديه دليل مباشر (إن كنت تفهمني). هي زعمت أنها رأت ذلك يحدث من نافذة، وأنها رأت الطفلة الأكبر تضرب الولد وتدفعه إلى البركة. ولكن... لا أحسب أنهم صدقوا إفادتها في حينها؛ كانت تتكلم بشكل هستيري.

- أحسب أن بعض الأدلة النفسية قد ظهرت، أليس كذلك؟

- بلى، وقد ذهبت الأم إلى مصحة أو مستشفى من نوع ما،

وكانت تعاني -بالتأكيد- من حالة عقلية. وقد قضت وقتاً طويلاً في مؤسسة لتلقي العلاج، وأظن أن ذلك كان تحت إشراف من أحد المختصين من مستشفى سينت أندرو في لندن. وفي النهاية أُعلن أنها شُفيت، وأطلق سراحها بعد نحو ثلاث سنوات، وأُرسلت إلى بيتها لتعيش حياة طبيعية مع عائلتها.

- وكانت طبيعية تماماً بعد ذلك؟

- أظن أنها كانت عُصابية دوماً.

- أين كانت وقت وقوع الانتحار؟ هل كانت تقيم مع عائلة رافنزكروفت؟

- لا، كانت قد توفيت قبل نحو ثلاثة أسابيع من ذلك. كانت تقيم معهم في أوفركليف عندما توفيت، ويبدو هذا تعبيراً آخر عن المصير المتشابه للتوأم. كانت تمشي في نومها (وقد عانت من ذلك لبضع سنوات كما يبدو)، وقد تعرضت لحادث أو حادثين بسبب ذلك. كانت تأخذ أحياناً الكثير من المهدئات، وقد نتج عن ذلك أنها كانت تنهض ليلاً فتطوف بالبيت، وربما تمشي خارجه في بعض الأحيان. وفي تلك الليلة كانت تسير في طريق بمحاذاة حافة صخرية فزلت قدمها لتقع فوق الصخرة، وقد قُتلت في الحال، ولم يعثروا عليها إلاّ في اليوم التالي. وقد حزنت أختها الليدي رافنزكروفت حزناً شديداً؛ فقد كانتا متعلقتَين كلٌّ بالأخرى كثيراً، وقد اضطرت لدخول المستشفى وهي تعاني من الصدمة.

- أكان يمكن لهذا الحادث أن يؤدي إلى انتحار الزوجين رافنزكروفت بعد بضعة أسابيع؟

- لم يُثِرْ مثل هذا الرأي أبداً.

- تجري مع التوائم أمور غريبة كما قلت. ربما كانت الليدي رافنزكروفت قد قتلت نفسها بسبب الصلة بينها وبين شقيقتها التوأم، وبعدها ربما كان الزوج قد أطلق النار على نفسه لشعوره بالذنب بطريقة ما.

قال كبير المفتشين غاروي: لديك الكثير من الأفكار يا بوارو. ما كان لأليستير رافنزكروفت أن تكون له علاقة مع أخت زوجته دون أن يعلم الجميع بذلك. لم يكن شيء من هذا القبيل... إن كان هذا ما كنت تتخيله.

رن جرس الهاتف، ونهض بوارو ليجيبه. كان المتكلم السيدة أوليفر: سيد بوارو، أتستطيع القدوم لشرب الشاي غداً؟ ستأتيني سيليا... وستأتي المرأة المتسلطة فيما بعد. هذا ما كنتَ تريده، أليس كذلك؟

قال بوارو إن هذا بالضبط هو ما أراده فقالت: علي أن أسرع الآن؛ فأنا ذاهبة لمقابلة عجوز حرب قديم دلّتني عليه «فيلتي» رقم ١، جوليا كارستيرز. أظنها أخطأت في تذكر اسمه؛ فهي تفعل ذلك دوماً... ولكن آمل ألاّ تكون قد أخطأت في العنوان.

* * *

الفصل الثاني عشر
سيليا تقابل هيركيول بوارو

قال بوارو: حسناً يا سيدتي، كيف كان تقدمك مع السير هوغو فوستر؟

- بداية أقول إن اسمه لم يكن فوستر... بل فوثرغيل. بإمكانك أن تطمئن إلى خطأ جوليا في الأسماء؛ فهذا هو دأبها.

- إذن فإن الأفيال ليست موثوقة دوماً فيما تتذكره من أسماء، أليس كذلك؟

- لا تتكلم عن الأفيال، فقد انتهيتُ منها.

- وماذا عن عجوز الحرب؟

- عجوز لطيف تماماً، ولكن لا فائدة منه مصدراً للمعلومات. مفتون بعائلة كان لها طفل قُتل في حادث في الملايو، ولكن لا علاقة لذلك بعائلة رافنزكروفت. أقول لك إنني انتهيتُ من الفيلة.

- سيدتي، لقد كنتِ شديدة الإصرار، وشديدة النُبل.

- سيليا آتية في غضون نصف ساعة. وقد أردتَ مقابلتها، أليس كذلك؟ لقد أخبرتها بأنك... بأنك تساعدني في هذه القضية. أم كنتَ تفضل أن تأتي الفتاة لرؤيتك أنت خصيصاً؟

- لا، أظنني أفضِّل أن تأتي بالطريقة التي رتَّبتِها.

- لا أحسب أنها ستبقى طويلاً. فإذا ما استطعنا التخلص منها في غضون ساعة تقريباً سيكون ذلك جيداً، حتى نراجع الأمور قليلاً، ثم ستأتي بعد ذلك السيدة بيرتن-كوكس.

- آه، نعم. سيكون ذلك مثيراً. نعم، سيكون مثيراً جداً.

تنهدت السيدة أوليفر وقالت: يا عزيزي، إن الأمر مؤسف مع ذلك؛ فلدينا قدر كبير من المعلومات، أليس كذلك؟

- ونحن لا نعرف ما الذي نبحث عنه. كل ما نعرفه ما يزال -في أغلب الاحتمالات- قصة انتحار مزدوج لزوجين عاشا معاً حياة هادئة سعيدة. وماذا لدينا لنسوقه في معرض السبب أو المبرر؟ لقد ذهبنا إلى الأمام وإلى الخلف، ذات اليمين وذات الشمال، وشرّقنا وغرّبنا.

- هذا صحيح تماماً؛ ذهبنا إلى كل مكان. ومع ذلك فلم نذهب -بعدُ- إلى القطب الشمالي.

- ولا إلى القطب الجنوبي.

- ماذا لدينا إذن، إذا ما أراد المرء طرح هذا السؤال؟

- لدينا أمور مختلفة. لقد أعددتُ قائمة هنا، أتريدين قراءتها؟

جاءت السيدة أوليفر وجلست بجانبه ونظرت إلى القائمة من فوق كتفه، ثم أشارت إلى أول بند في القائمة وقالت: الباروكات، لماذا تضع الباروكات في البداية؟

- أربع باروكات... يبدو ذلك مثيراً للاهتمام. مثيراً ويصعب تفسيره أيضاً.

- أظن أن المحل الذي كانت تحصل على باروكاتها منه قد ترك هذه المهنة الآن. صار الناس يذهبون إلى أماكن أخرى لشراء الباروكات، ولم يعودوا يضعون الكثير منها كما كان الأمر وقتذاك. كان الناس يضعون الباروكات عند السفر إلى الخارج؛ فهي توفر عليهم العناء أثناء السفر.

- نعم، نعم. سنفعل ما نستطيعه بخصوص الباروكات. ولكن ذلك أحد الأسباب التي أثارت اهتمامي على أية حال. ثم إن لدينا قصصاً أخرى؛ قصصاً عن اضطراب عقلي في العائلة، وقصصاً عن شقيقة توأم كانت مضطربة عقلياً وقضت سنوات طويلة من حياتها في مستشفى للأمراض العقلية.

- لا يبدو أن هذا يقودنا إلى شيء. ربما كان بوسع هذه الأخت أن تأتي وتطلق النار على الزوجين، ولكني لا أرى سبباً لذلك.

قال بوارو: لا، لقد فهمتُ أن البصمات على المسدس كانت بالتأكيد بصمات الجنرال رافنزكروفت وزوجته. حسناً، لنكمل

استعراضنا: لدينا -أيضاً- قصص عن طفل، طفل في الملايو قُتل أو هوجم، ربما من قِبَل هذه الشقيقة التوأم لليدي رافنزكروفت، وربما من قبل امرأة أخرى... وربما على يد خادمة أو مربية. النقطة الثانية: أنت تعرفين بعض المعلومات الإضافية عن المال.

قالت السيدة أوليفر بشيء من الدهشة: وما هو دور المال في الموضوع؟

- لا دور له في الموضوع، وهذا هو المثير جداً في الأمر! للمال -عادة- دور بارز؛ مال يحصل عليه أحدهم نتيجة الانتحار، مال يُفقد نتيجة الانتحار، مال في مكان ما يسبب المصاعب والمتاعب... يسبب جشعاً ورغبة. هذا أمر تصعب رؤيته؛ إذ لا نرى مَبالغَ مالية ضخمة في أي مكان. ثم لدينا العديد من القصص عن علاقات غرامية؛ نساء كُنّ جذابات في عيني الزوج، ورجال كانوا جذابين في عيني الزوجة. علاقة في هذا الطرف أو ذاك كان يمكن أن تُفضي إلى الانتحار أو إلى القتل؛ فهي غالباً ما تقود إلى ذلك. ثم نأتي إلى ما يجذب انتباهي في هذه اللحظة بأقصى درجات الاهتمام؛ ولهذا أنا حريص جداً على مقابلة السيدة بيرتن-كوكس.

- آه، تلك المرأة الفظيعة! لا أرى سبباً يجعلك تعتبرها مهمة إلى هذا الحد. إن كل ما فعلته هو أنها دست أنفها فيما لا يعنيها وأرادت مني أن أكتشف لها الأمور.

- نعم، ولكن لماذا أرادت منك أن تكتشفي لها الأمور؟ هذا يبدو لي غريباً جداً، وهو أمر ينبغي أن يكتشف المرء أسبابه. إن هذه المرأة هي الصلة.

- الصلة؟

- نعم، نحن لا نعرف ما هي الصلة التي كانت موجودة، وأين كانت، وكيف. كل ما نعرفه إنها مستميتة لمعرفة المزيد عن هذا الانتحار. فهي -في كونها صلة- إنما تتصل بكلا الشخصين؛ ابنتك في المعمودية، سيليا رافنزكروفت، والابن الذي ليس ابنها.

- ماذا تعني بعبارة: «ليس ابنها»؟

- إنه ابن بالتبني، ابن تبنته لأن ابنها الحقيقي قد مات.

- كيف مات ابنها الحقيقي؟ ولماذا؟ ومتى؟

- إنني أطرح كل هذه الأسئلة على نفسي. يمكن أن تكون صلةً، صلةً من صلات العاطفة، رغبة بالانتقام من خلال الكراهية، من خلال علاقة غرامية ما. وعلى أية حال يجب أن أراها؛ يجب أن أحزم أمري بشأنها. نعم، لا أملك إلاّ أن أرى بأن ذلك بالغ الأهمية.

قُرع جرس الباب وخرجت السيدة أوليفر من الغرفة لإجابته قائلة: أظن أن هذه هي سيليا، أأنت متأكد ألاّ بأس في الأمر؟

- من ناحيتي نعم، وأرجو أن يكون الأمر كذلك من ناحيتها.

عادت السيدة أوليفر بعد بضع دقائق وسيليا معها. كانت لها نظرة مرتابة متشككة، وقالت: لا أدري إن كنتُ...

ثم توقفت وهي تحدق ببوارو، فقالت السيدة أوليفر: أريد أن

أعرفك إلى شخص يساعدني، وأرجو أنه يساعدك -أنت أيضاً- فيما تريدين معرفته واكتشافه. هذا السيد هيركيول بوارو. إن له عبقرية خاصة في اكتشاف الأشياء.

نظرت سيليا بشك عظيم إلى الرأس البيضوي والشارب الضخم والجسد الضئيل، ثم قالت بشيء من الارتياب: أظنني سمعتُ به.

بذل بوارو شيئاً من الجهد لمنع نفسه من القول: "أغلب الناس قد سمعوا بي". ولم يكن ذلك صحيحاً الآن بقدر ما كان صحيحاً في الماضي؛ لأن الكثير من الذين سمعوا بهيركيول بوارو وعرفوه كانوا يرقدون الآن في المقابر وفوقهم شواهد القبور.

قال: اجلسي يا آنسة. سوف أقول لك ما يلي عن نفسي: عندما أبدأ في تحقيقٍ فإنني أتابعه حتى النهاية، وسوف أُظهر الحقيقة على الملأ، وإذا كانت تلك الحقيقة هي -فعلاً- الحقيقة التي تريدينها فإنني سأنقلها لك. ولكن ربما كنتِ تريدين الاطمئنان فقط، وهذا يختلف عن الحقيقة. يمكنني العثور على العديد من الجوانب التي تطمئنك. فهل سيكون ذلك كافياً؟ إن كان كافياً فلا تطلبي المزيد.

جلست سيليا على الكرسي الذي قدمه لها ونظرت إليه بشيء من الجدية ثم قالت: أنت لا تظن أنني أهتم بالحقيقة، أهذا ما تعنيه؟

- أظن أن الحقيقة قد تكون صدمة، وحزناً، وربما جاء وقت تقولين فيه: "لماذا لم أترك كل هذا خلفي؟ لماذا طلبتُ المعرفة؟ إنها

معرفة مؤلمة لا أملك أن أفعل تجاهها أي شيء". إنه انتحار من قبل أب وأم سأعترف أنني أحببتهما، فمحبة الأب والأم ليست نقيصة.

قالت السيدة أوليفر: يبدو أنها تعتبر أحياناً كذلك في أيامنا هذه، ولنقل إنها فقرة من المعتقدات الجديدة!

قالت سيليا: بهذه الطريقة كنتُ أعيش، فقد بدأت أتساءل. ألتقط أشياء يقولها الناس أحياناً، أناس كانوا ينظرون إليّ بشيء من الشفقة، بل بشيء أكثر قليلاً من الشفقة، بفضول أيضاً. يبدأ المرء في اكتشاف الأشياء، وأعني أشياء عن الناس. أناس تلتقيهم، أناس تعرفهم، أناس كانوا يعرفون عائلتك. وأنا لا أريد هذه الحياة. أريد... أريد الحقيقة. إنك تظن أنني لا أريد الحقيقة فعلاً، ولكني أريدها. أنا قادرة على التعامل مع الحقيقة... أخبرني فقط شيئاً.

وبعد ذلك، ودون أن يكون كلامها استمراراً للحديث، كانت سيليا قد التفتت إلى بوارو بسؤال منفصل. بشيء كان قد حل مكان ما هو موجود في رأسها من قبل. قالت: لقد رأيتَ ديزموند، أليس كذلك؟ لقد ذهب لرؤيتك، وقد أخبرني بذلك.

- نعم، لقد جاء لرؤيتي. ألم تريدي منه القيام بذلك؟

- إنه لم يسألني.

- وماذا لو أنه سألك؟

- لا أدري. لا أدري إن كنتُ سأمنعه -وقتها- من القيام بذلك أم أنني سأشجعه عليه.

- بودِّي أن أسألك سؤالاً واحداً يا آنسة. فأنا أريد أن أعرف إن كان في ذهنك شيء واحد واضح تجدين له أهمية، ويهمك أكثر من أي شيء آخر.

- حسناً، وما هو ذاك؟

- كما قلتِ: لقد جاء ديزموند بيرتن-كوكس لرؤيتي. وهو شاب جذاب ومحبوب جداً، وهو جاد كثيراً فيما جاء من أجله. والآن، فإن هذا... هذا أمر مهم جداً بالفعل. الأمر المهم هو ما إذا كنتما ترغبان في الزواج... لأن هذه قضية جدية. ورغم أن الشباب لا يرون الأمر دوماً على هذا النحو في أيامنا هذه، إلاّ أن هذا رباط يجمع شخصين مدى الحياة. فهل تريدين الدخول في هذا الرباط؟ هذه قضية مهمة. وما الفرق بالنسبة لك أو لديزموند إن كانت وفاة شخصين قد كانت انتحاراً مزدوجاً أم شيئاً مختلفاً تماماً؟

- أتظن أنها شيء مختلف... أو بالأحرى كانت شيئاً مختلفاً؟

- لا أعرف بعد. لدي من الأسباب ما يدفعني للظن بأنها قد تكون كذلك. توجد أشياء معينة لا تنسجم مع نظرية الانتحار المزدوج، ولكن بقدر ما يمكنني الحكم وفق رأي الشرطة (والشرطة -بالمناسبة- موثوقون جداً يا آنسة... موثوقون جداً) فإنهم قد جمعوا كل الأدلة ومحّصوها ورأوا بشكل قاطع أن الأمر لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير انتحار مزدوج.

- ولكنهم لم يعرفوا أبداً سببه. أهذا ما تعنيه؟

- نعم، هذا ما أعنيه.

- ألا تعرف سببه أنت أيضاً؟ أعني من خلال نظرك إلى الأمور أو تفكيرك فيها، أو كائناً ما كان ما تفعله؟

- أنا لستُ واثقاً من الأمر. أظن أن شيئاً مؤلماً قد يُكتشف، ولذلك أسألك إن كنت من الحكمة بحيث تقولين: "الماضي هو الماضي. ها هو شاب أحبه ويحبني، وهذا هو المستقبل الذي سنقضيه معاً، وليس الماضي".

- هل قال لك إنه كان طفلاً بالتبني.

- نعم، قال لي.

- أترى، ما علاقتها هي بالأمر؟ لماذا تأتي لتزعج السيدة أوليفر وتحاول إقناعها بطرح أسئلة عليّ إن لم تكن أمه الحقيقية.

- هل يحبها؟

- لا. يمكنني القول -عموماً- إنه يكرهها، أظنّه كرهها دوماً.

- لقد أنفقتْ مالاً عليه؛ على دراسته وملابسه وغير ذلك من الأمور الكثيرة. أفلا تظنين أنها تحبه؟

- لا أدري... لا أظن ذلك. أحسب أنها أرادت طفلاً يحل محل طفلها الحقيقي؛ فقد كان لها طفل توفي في حادث، ولذلك أرادت أن تتبنى طفلاً، وقد توفي زوجها مؤخراً فقط. من الصعب جداً تذكّر التواريخ.

- أعرف، أعرف. أود لو أعرف شيئاً واحداً.

- عنه أم عنها هي؟

- هل هو مدعوم مالياً؟

- لا أعرف تماماً ما الذي تعنيه بذلك، ولكنه سيكون قادراً على إعالتي... على إعالة زوجة. فهمتُ أن بعض المال قد خُصّص له عند تبنيه؛ مبلغاً كافياً من المال وإن لم يكن ثروة عظيمة.

- أليس لديها ما يمكن لها أن... تحرمه منه؟

- أتعني أن تقطع عنه إمدادات المال إن هو تزوجني؟ لا أظن أنها هددت بذلك في أي وقت، أو أنها تستطيع ذلك فعلاً. أظن أن الأمر كله قد تم ترتيبه من قبل محامين أو غيرهم ممّن يرعون إجراءات التبني... أحسب أن جمعيات التبني تلك تضع الكثير من الشروط.

- سأسألك شيئاً آخر قد تعرفينه أنت ولا يعرفه سواك (ما عدا السيدة بيرتن-كوكس التي يُفترض أن تعرف). أتعرفين مَن كانت أمه الحقيقية؟

- أتعني أن هذا قد يكون أحد أسباب فضولها الشديد وتدخّلها فيما لا يعنيها؟ أي أن تكون للأمر علاقة بهويته الحقيقية كما تقول؟ لا أدري. ربما كان طفلاً لقيطاً غير شرعي؛ فهؤلاء -عادةً- هم الذين يذهبون للتبني، أليس كذلك؟ ربما كانت قد عرفت شيئاً عن أمه الحقيقية أو أبيه الحقيقي، وإن كان الأمر كذلك فإنها لم تخبره به. لقد فهمتُ أنها لم تخبره إلاّ بالأمور السخيفة التي يقترحون على الناس قولها، كأن يقال إن التبني مسألة لا تقل روعة عن العيش في

كنف الوالدين الحقيقيين لأن التبني يُظهر مدى الرغبة في الطفل... وأمثال هذا الكلام العاطفي الساذج السخيف.

- أظن أن بعض الجمعيات تقترح أن تكون تلك هي الطريقة التي يتم بموجبها إخبار الطفل بالخبر. هل يعرف هو أو أنت شيئاً عن وجود أي أقارب من لحمه ودمه؟

- لا أدري. لا أظن أنه يعرف، ولكني لا أحسب أن ذلك يقلقه أبداً. إنه ليس من ذلك النوع الذي يقلق لمثل هذا الأمر.

- هل تعرفين إن كانت السيدة بيرتن-كوكس صديقة لعائلتك، لأمك وأبيك؟ هل سبق لك أن التقيتِها بقدر ما تتذكرين، عندما كنتِ تعيشين في بيتك في السنوات الأولى؟

- لا أظن ذلك. أظن أن والدي ديزموند بالتبني (أعني السيدة بيرتن-كوكس وزوجها) قد ذهبا إلى الملايو، وأن ديزموند أُرسل إلى المدرسة في إنكلترا بينما كانا مسافرين هناك، وأنه نزل لدى بعض أبناء العمومة أو لدى بعض العائلات التي تستقبل أطفالاً في العطلات الدراسية، وكان ذلك ما جعلنا نغدو أصدقاء في تلك الأيام. كنتُ أتذكره دائماً؛ فقد كنتُ مولعة بالتعلق بالرموز البطولية، وكان هو رائعاً في تسلق الأشجار وعلمني أشياء عن الطيور وأعشاشها وبيوضها. ولذلك بدا الأمر طبيعياً جداً، أعني عندما قابلتُه مرة أخرى، قابلتُه في الجامعة، وتحدثنا عن الأماكن التي عشنا فيها، ثم سألني عن اسمي. قال إنه لا يعرف سوى اسمي الأول، وبعد ذلك تذكّرنا الكثير من الأمور معاً. أنا لا أعرف كل شيء عنه، بل لا أعرف أي شيء! أريد أن أعرف. كيف يمكن لك أن ترتب حياتك وتعرف

ما ستفعله بحياتك إن كنتَ لا تعرف أي شيء عن الأمور التي تؤثر عليك، وعن الأمور التي حدثت فعلاً؟

- إذن فأنت تقولين لي أن أمضي في تحرياتي؟

- نعم، إن كانت ستُفضي إلى أية نتائج، رغم أنني أستبعد ذلك لأننا... لأننا حاولنا -أنا وديزموند- العثور على بعض الأمور، ولم نوفق كثيراً. يبدو أن الأمور تعود دوماً إلى هذه الحقيقة الواضحة التي لا تشكل أبداً قصة حياة، بل هي قصة وفاة، أليس كذلك؟ أعني قصة وفاتين؛ فعندما يكون الأمر مسألة انتحار مزدوج يفكر المرء فيها باعتبارها وفاة واحدة. هل أتى من شيكسبير أم من كاتب آخر ذلك الاستشهاد الذي يقول: «وفي الموت لم ينفصلا»؟

وبعد أن وجهت سؤالها هذا للسيدة أوليفر التفتت إلى بوارو وقالت: نعم، امض في تحقيقاتك. امض في اكتشافك. امض وأخبر السيدة أوليفر أو أخبرني مباشرة... وأفضّل أن تخبرني مباشرة.

ثم عادت فالتفتت إلى السيدة أوليفر وقالت: لا أقصد أن أكون فظة معك يا أماه. لقد كنتِ -دوماً- أماً رائعة بالمعمودية بالنسبة لي، ولكن... ولكنني أريد الحقيقة مباشرة من وكالة الأنباء التي تلتقط النبأ أولاً. أخشى أن يكون في قولي هذا وقاحة يا سيد بوارو، ولكني لا أعني أي سوء.

- أبداً، إنني قانع تماماً بأن أكون وكالة الأنباء السباقة في اكتشاف الحقيقة.

- أتظن أنك ستكون كذلك؟

- لقد آمنتُ دوماً أنني أستطيع ذلك.

- وكان ذلك صحيحاً دوماً، أليس كذلك؟

- عادة ما يكون صحيحاً، لا أقول أكثر من ذلك.

* * *

الفصل الثالث عشر

السيدة بيرتن-كوكس

قالت السيدة أوليفر وهي تعود إلى الغرفة بعد أن ودّعت سيليا عند الباب: حسناً، ما رأيك بها؟

- إنها ذات شخصية مميزة، فتاة تثير الاهتمام. وإذا كان لي أن أصفها لقلتُ إنها بالتأكيد ذات شأن، وليست نكرة.

- نعم، هذا صحيح تماماً.

- أريد منك أن تخبريني شيئاً.

- عنها؟ أنا -فعلاً- لا أعرفها بشكل جيد؛ فالمرء لا يعرف أبناءه بالمعمودية جيداً في العادة. أعني أن المرء لا يراهم إلاّ في فترات متباعدة بعض الشيء.

- لم أقصدها هي. أخبريني عن أمها.

- آه، فهمت.

- أكنتِ تعرفين أمها؟

- نعم. لقد كنا معاً فيما يشبه النزل في باريس، وقد اعتاد الناس أن يرسلوا فتياتهم إلى باريس -في تلك الأيام- لاستكمال تهذيبهن اجتماعياً. ما الذي تريد معرفته عنها؟

- أتذكرينها؟ أتذكرين كيف كان شكلها؟

- نعم. فالمرء -كما قلت لك- لا ينسى الأشياء أو الناس كلياً لمجرد أنهم من الماضي.

- ما هو الانطباع الذي تركتْه لديك؟

- كانت جميلة، أذكر ذلك. ليس عندما كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة؛ فقد كان لها الكثير من الشحم وقتها... أظن أننا كنا جميعاً كذلك، فهذا يحدث في فترة المراهقة.

- أكانت ذات شخصية؟

- من الصعب أن أتذكر؛ لأنها لم تكن صديقتي الحميمة. كنا مجموعة من البنات معاً... يمكنك تسميتها «عصبة صغيرة»؛ فتيات ذوات ميول متشابهة. كنا نحب التنس، وكنا نحب أن نؤخذ إلى الأوبرا، وكنا نشعر بملل قاتل إذا ما أُخذنا إلى معارض الرسم. أنا لا أستطيع أن أعطيك عنها سوى فكرة عامة.

- مولي بريستُنْ-غري... كان ذلك اسمها. هل كان لكما أصدقاء من الشباب؟

- كانت لنا حالة أو اثنتان من التعلق فيما أظن. ليس بالمغنين الشعبيين طبعاً (إذ لم يكن ذلك شائعاً بعد) بل بالممثلين. كان يوجد ممثل منوعات مشهور بعض الشيء، وقد قامت إحدى الفتيات بتعليق صورته فوق سريرها، ولم تسمح الآنسة جيرو، المربية الفرنسية، بتعليق صورة ذلك الممثل هناك بأية حال قائلة: "هذا ليس لائقاً". لم تخبرها الفتاة بأن الممثل كان أباها! وقد ضحكنا... نعم، ضحكنا كثيراً من ذلك.

- حسناً، أخبريني بالمزيد عن مولي، أو مارغريت بريستُن-غري. هل تذكرك هذه الفتاة بها؟

- لا، لا أظن ذلك؛ فهما ليستا متشابهتين. أظن أن مولي كانت أكثر... كانت أكثر عاطفية من هذه الفتاة.

- لقد فهمتُ أنها كانت لها شقيقة توأم. أكانت في نفس النزل؟

- كلا. كان يمكن أن تكون هناك باعتبارهما من عمر واحد، ولكن كلا، أظنها كانت في مكان مختلف كلياً في إنكلترا... لست متأكدة. أنا قابلت الشقيقة التوأم، دولي، مرة أو مرتين في أوقات متباعدة تماماً (وكانت -وقتها- تشبه تماماً أختها مولي... أعني أنهما لم تكونا بدأتا بمحاولة تمييز شكليهما بتسريحة شعر مختلفة مثلاً أو غير ذلك مما يفعله التوائم عندما يكبرون). أظن أن مولي كانت تحب أختها دولي كثيراً، ولكنها لم تكن تتحدث كثيراً عنها. لديّ شعور الآن (لم يكن يراودني وقتها) بأنه ربما كان في تلك الشقيقة شيء غير طبيعي حتى في ذلك الوقت؛ إذ أذكر أنه جرى ذكرٌ -مرة

أو مرتين- لمرضها أو سفرها لتلقي العلاج في مكان ما... شيء من هذا القبيل. وقد اصطحبتْها -ذات يوم- عمّةٌ لها في رحلة بحرية كي تتحسن صحتها.

ثم هزت السيدة أوليفر رأسها وأضافت: أنا عاجزة عن تذكّر التفصيلات كلها، ولكن لديّ شعور بأن مولي كانت تحبها كثيراً وتسعى لحمايتها بشكلٍ ما. أيبدو ذلك هراء بالنسبة لك؟

- أبداً.

- أظن أن أوقاتاً مرّت لم تكن تريد فيها أن تتحدث عن شقيقتها. كانت تتكلم عن أمها وأبيها، وأظنها كانت مغرمة بهما، ولكن بالحدِّ الطبيعي. وقد جاءت أمها مرة إلى باريس لزيارتها واصطحبتها معها كما أذكر. كانت امرأة لطيفة. لم تكن بالغة الجمال وليس فيها ما هو استثنائي؛ بل مجرد امرأة لطيفة هادئة ودودة.

- فهمت. أليس في تلك الفترة -إذن- ما يساعدنا؟ ألم يوجد أصدقاء شباب؟

- لم يكن لدينا الكثير من الأصدقاء الشباب وقتها. لم تكن الحال كما هي في هذه الأيام حيث أصبح ذلك أمراً عادياً مألوفاً. وفيما بعد، عندما عدنا إلى الوطن، تفرقت بنا السبل. أظن أن مولي قد ذهبت مع والديها إلى بلاد في الخارج. لا أظنها كانت الهند... كلا، لا أظن. ربما كانت مصر، وأحسب أنهم كانوا ضمن بعثة ديبلوماسية. كانوا في السويد في وقتٍ ما، وبعد ذلك في مكان آخر كأنه كان بيرمودا أو الهند الغربية. أظنه كان حاكماً هناك أو ما شابه

ذلك... مثل هذه الأمور لا يذكرها المرء بشكل مؤكد. كانت مولي متعلقة جداً بمدرس الموسيقى، الأمر الذي كان مُرضياً لنا، وأظن أنه أقل إثارة للمتاعب من صداقات شباب اليوم. حسناً، أحسب أننا سنستقبل السيدة بيرتن-كوكس خلال دقائق. إني لأتساءل كيف سيكون رد فعلها تجاهك؟

نظر بوارو إلى ساعته وقال: سنكون قادرين على معرفة ذلك قريباً جداً.

- هل لدينا أي شيء يجب أن نتكلم فيه بداية؟

- أظن أنه يمكن لنا أن نتبادل معلوماتنا بشأن بعض الأمور. وكما قلتُ فإن أمراً أو أمرين ربما احتاجا إلى تحقيق. هل نسميه تحقيقَ أفيالٍ بالنسبة لك؟ وتمثُّلاً لدور الفيل بالنسبة إلي.

- يا له من كلام غريب! قلتُ لك إنني انتهيت من أمر الأفيال.

- آه، ولكن ربما لم تنتهِ الأفيال من أمرك!

قُرِع جرس الباب مرة أخرى، وتبادل بوارو والسيدة أوليفر النظرات، ثم قالت هي: حسناً، فلنبدأ.

غادرت الغرفة مرة أخرى، وسمع بوارو صوت التحيات في الخارج، وبعد لحظات عادت السيدة أوليفر وهي تقود جسد السيدة بيرتن-كوكس الضخم. قالت الضيفة: يا لها من شقة بهيجة لديك!

إنه للطفٌ بالغ منك أن توفري لي شيئاً من وقتك... وأنا واثقة أنه وقت ثمين جداً... وأن تطلبي مني القدوم لرؤيتك.

ثم انحرفت عيناها لتنظرا إلى بوارو، وظهر على وجهها تعبير خفيف من الدهشة. وللحظة تنقلت عيناها من بوارو إلى آلة البيانو التي تقف عند إحدى النوافذ. وخطر للسيدة أوليفر أن السيدة بيرتن-كوكس كانت تفكر بأن هيركيول بوارو ليس إلاّ رجلاً أتي لضبط أنغام البيانو؛ ولذلك سارعت لتبديد هذا الوهم: أريد أن أُعرِّفك إلى السيد هيركيول بوارو.

تقدم بوارو وانحنى، فيما أكملت السيدة أوليفر: أظنه الشخص الوحيد الذي قد يكون قادراً على مساعدتك بطريقة ما. أعني بشأن ما كنتِ تطلبينه مني في ذلك اليوم بخصوص ابنتي بالمعمودية، سيليا رافنزكروفت.

- آه، نعم، لطيف منك أن تتذكري ذلك. إني لأرجو حقاً أن تستطيعي إعطائي قليلاً من المعرفة الإضافية بما حدث فعلاً.

قالت السيدة أوليفر: أخشى أنني لم أنجح كثيراً، ولذلك فإنني طلبتُ من السيد بوارو أن يقابلك. إنه شخص رائع فيما يخص المعلومات عن الأمور بشكل عام، وهو -بالفعل- على رأس قائمة العاملين في مهنته. لا يمكنني أن أعُدّ لك أصدقائي الذين ساعدهم، وكم من... كم من لغز قام بحله.

قالت السيدة بيرتن-كوكس وعيناها ما زالتا تُظهران شيئاً من الريبة: نعم، بالتأكيد.

أشارت السيدة أوليفر إلى كرسي وقالت: والآن، ماذا تشربين؟ كوباً من القهوة؟ الوقت متأخر على شرب الشاي بالطبع. أم أنك تفضلين عصيراً معيناً؟

- بل كوباً من القهوة، هذا لطف بالغ منك.

- والسيد بوارو؟

- قهوة أيضاً.

ولم تملك السيدة أوليفر إلاّ أن تشعر بالامتنان لأنه لم يطلب عصير التوت الأسود أو صنفاً آخر من مشروبات الفاكهة المفضلة لديه.

بعد دقائق كانت القهوة تُقدّم، وقالت السيدة أوليفر لضيفتها: لقد ذكرتُ للسيد بوارو الخطوط العامة للبحث الذي تودين القيام به.

قالت السيدة بيرتن-كوكس: آه، نعم.

بدا أنها مرتابة قليلاً وغير واثقة من نفسها إلى ذلك الحد الذي يبدو أنها كانت تُظهره عادة. قالت لبوارو: هؤلاء الشباب في غاية الصعوبة هذه الأيام. إن ابني فتى محبب جداً... وقد كانت لنا آمال عظيمة في نجاحه مستقبلاً. ثم ظهرت هذه الفتاة، وهي فتاة فاتنة جداً، ابنة السيدة أوليفر بالمعمودية، ولعل السيدة أوليفر أخبرتك بذلك. المرء لا يدري... أعني أن هذه الصداقات تظهر فجأة وهي -غالباً- لا تستمر. إنها من ذلك النوع الذي كنا نعتبره قبل سنوات

حباً رومانسياً بين مراهقَين، ومن المهم جداً معرفة القليل -على الأقل- عن... عن سوابق الناس؛ عن عائلاتهم مثلاً. آه، أعرف أن سيليا فتاة ذات محتد كريم، ولكن تلك المأساة... أظنها انتحاراً مزدوجاً، ولكن أحداً لم يكن قادراً -حقاً- على أن يُنوِّرني بإيضاح السبب الذي أدى إلى هذا الأمر. ليس لدي أصدقاء فعليون ممّن كانوا أصدقاء مشتركين لعائلة رافنزكروفت، ولذلك فمن الصعب جداً عليّ تكوين رأي. أعرف أن سيليا فتاة رائعة، ولكن المرء يحب أن يعرف أكثر.

قال بوارو: فهمتُ من صديقتي، السيدة أوليفر، أنك أردت معرفة شيء محدد بعينه. أردت -في الواقع- أن تعرفي...

تدخلت السيدة أوليفر بشيء من الحزم قائلة: ما قلت إنك تريدين معرفته هو إذا ما كان والد سيليا قد أطلق النار على أمها ثم على نفسه أم أن الأمر حدث عكس ذلك.

- أشعر أن في ذلك بعض الفرق. نعم، أشعر -بالتأكيد- أن بين الحالتين فرقاً.

قال بوارو: وجهة نظر مثيرة جداً.

لم تكن نبرته مشجعة جداً. قالت السيدة بيرت-كوكس: آه، لنقل إنها الخلفية العاطفية... الأحداث العاطفية التي قادت إلى كل ذلك. يجب أن تعترفا أن على المرء -في الزواج- أن يفكر في الأبناء؛ أعني الأطفال الذين سيأتون. إنني أتحدث عن الوراثة. أظن أننا ندرك الآن أن للوراثة تأثيراً أكبر من تأثير البيئة؛ فهي تؤدي إلى

تشكيل معين للشخصية، وإلى بعض التعقيدات الجسيمة التي قد لا يريد المرء خوضها.

قال بوارو: صحيح، ولكن الناس الذين يتحملون المجازفات هم أولئك الذين يتعين عليهم اتخاذ القرار. سيكون الخيار خيار ابنك وخيار تلك الشابة.

- آه، أعرف، أعرف. هو ليس خياري؛ فليس يُسمح للأبوين -أبداً- أن يختارا، أو حتى أن يعطيا النصيحة. ولكنني أود أن أعرف شيئاً عن الأمر، نعم، أود كثيراً لو أعرف. إن كنتَ تشعر أن بوسعك القيام بأي... تحقيق، هذه هي الكلمة التي تستخدمها عادة. ولكن ربما... ربما كنت مجرد أمٍّ حمقاء أبالغ في القلق على فتاي العزيز. هذا حال الأمهات.

ثم أطلقت ضحكة حادة صغيرة وهي تميل برأسها قليلاً إلى الجانب، وربتت على كوب قهوتها وقالت: لعلك تفكِّر في الأمر، وسوف أُعلِمُك أنا أيضاً، ربما بالأمور والنقاط الدقيقة التي تقلقني.

ثم نظرت إلى ساعتها وهتفت: آه، يا إلهي. لقد تأخرت عن موعد آخر... يجب أن أذهب. إنني آسفة جداً يا عزيزتي السيدة أوليفر لاضطراري للذهاب بهذه السرعة، ولكنك تعرفين كيف هي الأمور. لقد وجدتُ صعوبة عظيمة في العثور على سيارة أجرة هذا المساء حيث كان السائقون يديرون رؤوسهم الواحد تلو الآخر ويعبرون دون التوقف لي. أمر صعب جداً، جداً، أليس كذلك؟ أظن أن لدى السيدة أوليفر عنوانك يا سيد بوارو، أليس كذلك؟

قال بوارو: سأعطيك عنواني.

أخرج بطاقة من جيبه وسلّمها لها. قالت: آه، نعم، نعم... السيد هيركيول بوارو. أنت فرنسي، أليس كذلك؟

- أنا بلجيكي.

- آه، نعم، نعم. بلجيكي... نعم، فهمت. أنا مسرورة جداً بأنني التقيتك. آه، يا إلهي! ينبغي أن أذهب بأقصى سرعة.

وبعد أن صافحت السيدة أوليفر بحرارة، ثم صافحت بوارو أيضاً، غادرت الغرفة وجاء صوت انطباق الباب في الصالة. قالت السيدة أوليفر: حسناً، ما رأيك بذلك؟

- ما رأيكِ أنت؟

- لقد هربَتْ... هربت. لقد أخَفْتَها على نحوٍ ما.

- نعم، أظن أن حكمك في محله تماماً.

- أرادت أن أُخرج لها الأمور من صدر سيليا. أرادت الحصول على معلومةٍ ما من سيليا، تعبيرٍ ما، سر من الأسرار كانت تشك بوجوده هناك، ولكنها لا تريد تحقيقاً حقيقياً مناسباً، أليس كذلك؟

- بلى، أظنها لا تريد ذلك، وهذا أمر مثير... مثير جداً. أتظنين أنها غنية؟

- أظن ذلك؛ فملابسها غالية الثمن، وهي تعيش في منطقة

غالية، إنها... من الصعب الحكم. إنها امرأة قوية ومتسلطة، وهي عضوة في الكثير من اللجان. لا أجد فيها ما يريب. لقد سألت عنها بعض الناس... ما من أحد يحبها كثيراً، ولكنها من أولئك النساء اللاتي يحببن العمل العام ويشاركن في السياسة وأمثال ذلك من الأمور.

- ما العلة فيها إذن؟

- أتظن أن بها علة؟ أم أنك -مثلي- لم تحبها فحسب؟

- أظن أن لديها شيئاً لا تريد أن يظهر للعلن.

- آه. وهل ستكتشف ما هو هذا الشيء؟

- هذا طبيعي، إن استطعت. ولكن قد لا يكون ذلك سهلاً؛ إنها تتراجع. لقد كانت تتراجع عندما غادرتنا الآن. كانت خائفة من الأسئلة التي كنتُ سأطرحها عليها. نعم، إنه لأمر مثير.

ثم تنهد وقال: سأضطر إلى العودة للماضي، إلى أبعد مما تخيلته.

- ماذا؟ نعود إلى الماضي ثانية؟

- نعم. في مكان ما من الماضي، وفي أكثر من قضية واحدة، شيء ينبغي على المرء أن يعرفه قبل أن يعود ثانية لما حدث من أمور. فما هو هذا الشيء؟ قبل خمسة عشر عاماً، عشرين عاماً، في بيت يُدعى أوفركليف. نعم. سيتعين على المرء أن يعود للماضي من جديد.

- حسناً، فليكن إذن. والآن، ماذا يمكن أن نفعل. ما هي هذه القائمة التي لديك؟

- لقد سمعتُ -من خلال سجلات الشرطة- عن الأشياء التي عُثر عليها في البيت، ولعلك تذكرين أنه كانت بينها أربع باروكات.

- نعم، وقد قلتَ إن أربع باروكات يُعتبر عدداً زائداً.

- يبدو في ذلك بعض الإفراط. وقد حصلتُ أيضاً على بعض العناوين المفيدة. منها عنوان طبيب قد يكون مفيداً.

- الطبيب؟ أتعني طبيب العائلة؟

- كلا، ليس طبيب العائلة، بل الطبيب الذي أدلى بشهادة في تحقيق جرى حول طفل تعرض لحادث. بعد أن دُفع إما على يد طفل أكبر منه أو ربما من قبل شخص آخر.

- أتعني من قبل الأم؟

- ربما الأم، وربما شخص آخر كان في البيت وقتها. أعرف المنطقة التي حدث فيها هذا الحادث في إنكلترا، وقد استطاع كبير المفتشين غاروي أن يتابع لي أثره من خلال مصادر يعرفها، وأيضاً من خلال أصدقاء صحفيين لي ممن كانوا مهتمين بهذه القضية بالذات.

- وأنت ذاهب لرؤية الطبيب... لا بد أنه عجوز جداً الآن.

- ليس هو من سأراه، بل ابنه. فابنه أيضاً متخصص في أشكال مختلفة من الأمراض العقلية. لديّ رسالة تعريف موجهة إليه، وربما كان قادراً على إخباري بشيء يستحق الاهتمام. كما قمت -أيضاً- ببعض التحريات في قضية أموال.

- ماذا تعني بقولك أموال؟

- توجد أمور معينة ينبغي أن نكتشفها. إن المال واحد من العوامل التي تجدينها في أي أمر يمكن تطوره لجريمة. المال... مَن الذي لديه أموال يخسرها نتيجة حدث معين، من الذي يربح أموالاً نتيجة حدوث أمر ما. هذا ما على المرء أن يكتشفه.

- لا بد أنهم اكتشفوا ذلك في حالة عائلة رافنزكروفت.

- نعم، يبدو أن ذلك كله كان طبيعياً. فقد ترك كلاهما وصية طبيعية عادية يترك كلٌّ منهما أمواله فيها للطرف الآخر. تركت الزوجة أموالها للزوج، وترك الزوج أمواله لزوجته. ما من أحد منهما استفاد مما حدث لأن الاثنين ماتا. بحيث كان المستفيدان هما الابنة سيليا، وطفل أصغر منها هو إدوارد، الذي فهمتُ أنه يدرس الآن في جامعة في الخارج.

- حسناً، هذا لا يفيدنا في شيء. فلم يكن أيٌّ من الطفلين هناك، ولا يمكن أن تكون لهما أية علاقة بما حدث.

- آه، نعم، هذا صحيح تماماً. ينبغي على المرء أن يعود إلى الخلف أبعد من ذلك؛ أن يوغل في العودة إلى الخلف، ويوغل في

التقدم إلى الأمام، ويوغل في الجوانب... ليبحث عن دافع مالي قد يكون... يكون مهماً.

- حسناً، لا تطلب مني القيام بمثل هذا الأمر؛ فليست لديّ مؤهلات حقيقية للقيام بذلك. أعني أن ذلك قد ظهر جلياً في... في حالة مَن تكلمتُ معهم من الأفيال.

- كلا. أظن أن أفضل ما يمكن أن تفعليه هو أن تتولي -إذا صح التعبير- موضوع الباروكات.

- الباروكات؟

- لقد وردت ملاحظة في تقرير الشرطة الدقيق (الذي كُتب وقتها) عن الشركة التي كانت تجهز الليدي رافنزكروفت بالباروكات، وكانت شركة للحلاقة وصنع الباروكات ذات أسعار باهظة جداً في شارع بوند في لندن. وفي وقت لاحق أُغلقت تلك الشركة وانتقل العمل إلى مكان آخر، ولكنّ لديّ -هنا- عنواناً لواحدة من كبار مصففات الشعر ومُلبِّسات الباروكات اللاتي كن في الشركة، وقد رأيت أن الأمر سيكون أكثر طبيعية لو أتى الاستفسار من امرأة.

- آه، أنا؟

- نعم، أنت.

- حسناً. ما الذي تريد مني أن أفعله؟

- قومي بزيارة إلى تشيلتنهام، إلى عنوان سأعطيك إياه، وهناك

ستجدين سيدة تُدعى روزنتيل، امرأة لم تعد شابة، ولكنها كانت مبدعة مشهورة لكل ما يتعلق بزينة شعر النساء.

- آه، يا للمهمات التي تسندها إلي! أتظن أنها ستتذكر أي شيء عن الأمر؟

- الأفيال تتذكر!

- آه، ومن هم الذين ستتوجه إليهم بأسئلتك أنت؟ الطبيب الذي تحدثتَ عنه؟

- إنه واحد منهم، نعم.

- وماذا تظنه سيتذكر؟

- ليس الكثير. ولكن يبدو لي ممكناً أن يكون قد سمع عن حادث معين. لا بد أنها كانت حالة مرضية مثيرة، ولا بد أن توجد سجلات تؤرخ لتلك الحالة.

- أتعني الشقيقة التوأم؟

- نعم. لقد وقع حادثان لهما علاقة بها بقدر ما سمعت؛ أحدهما عندما كانت أماً شابة تعيش في الريف، ومرة أخرى في وقت لاحق عندما كانت في الملايو. وفي كل مرة وقع حادث أدى إلى وفاة طفل. يمكنني أن أعلم شيئاً عن...

- أتعني أنه بسبب كونهما شقيقتين توأمين فربما كانت مولي قد عانت أيضاً من عوق عقلي من نوع ما؟ لا أصدق ذلك للحظة

واحدة؛ لم تكن من هذا النوع. كانت محبة رقيقة وجميلة، عاطفية و... آه، لقد كانت امرأة لطيفة جداً.

- نعم. نعم، هذا ما يبدو. وهل ترين أنها كانت امرأة سعيدة جداً عموماً؟

- نعم، كانت سعيدة... سعيدة جداً. آه، أعرف أنني لم أرَها كثيراً في المراحل اللاحقة من حياتها بالطبع؛ فقد كانت تعيش في الخارج. ولكن بدا لي دوماً -في المناسبات النادرة جداً عندما كنتُ أتلقى منها رسالة أو أذهب لرؤيتها- أنها كانت سعيدة.

- والشقيقة التوأم، ألم تعرفيها حقاً؟

- أبداً. أظن أنها كانت... كانت -بصراحة- في أحد أنواع المصحّات فيما أظن، حتى إنها لم تكن موجودة في عرس مولي.

- هذا غريب بحد ذاته.

- ما زلتُ لا أرى ما الذي ستكتشفه من ذلك.

قال بوارو بغموض: مجرد معلومات.

* * *

الفصل الرابع عشر

الدكتور ويلوبي

خرج هيركيول بوارو من السيارة بعدما دفعَ الأجر ومعه إكرامية، وتأكد من حقيقة أن العنوان الذي أتى إليه هو نفس العنوان المدون في دفتر ملاحظاته الصغير، ثم أخرج من جيبه -بحذر- رسالة موجهة إلى الدكتور ويلوبي. صعد الدرجات المفضية إلى البيت، ثم ضغط على جرس الباب. فتح البابَ خادمٌ ما أَنْ سمع باسم بوارو حتى قال إن الدكتور ويلوبي بانتظاره.

تم تفضيله إلى غرفة صغيرة مريحة تغطي أحدَ جوانبها رفوفُ الكتب، وكان فيها كرسيان سُحبا قرب الموقد، وأمامهما صينية عليها عُدة الضيافة. نهض الدكتور ويلوبي لتحيته، وكان رجلاً بين الخمسين والستين من عمره، ذا جسم نحيل ضعيف وجبين عالٍ وشعر أسود وعينين رماديتين شديدتي النفاذ. صافح ضيفه وأشار له إلى كرسي، وأخرج بوارو الرسالة من جيبه فأعطاها له.

أخذها الطبيب ففتحها وقرأها، ثم وضعها جانباً ونظر إلى بوارو ببعض الاهتمام قائلاً: لقد اتصل بي كبير المفتشين غاروي، كما

اتصل أيضاً صديق لي من وزارة الداخلية رجاني أن أفعل ما أستطيعه لمساعدتك في القضية التي تهمك.

- أعرف أن هذا معروف أكبر من أن يُطلب، ولكنّ لدي أسباباً جعلت الأمر مهماً بالنسبة لي.

- مهماً بالنسبة لك بعد كل هذه السنين؟

- نعم. وسوف أكون متفهماً تماماً لو قلتَ إن تلك الأحداث المحددة قد غابت عن ذاكرتك تماماً.

- لا يمكنني القول إنها غابت عن ذاكرتي. فلعلك سمعتَ أنني متعمّقٌ في فروع محددة من مهنتي، وقد بقيت مهتماً بتلك الفروع لسنوات طويلة.

- أعرف أن والدك كان حُجة مشهوراً في هذه المهنة.

- نعم، كان كذلك. كان ذلك اهتماماً عظيماً من اهتمامات حياته. وكانت له نظريات كثيرة، بعضها نجح وثبتت صحته، فيما ثبت أن بعضها الآخر كان مُخيباً للآمال. لقد فهمتُ أن حالة مرض عقلي هي التي تهمك، أليس كذلك؟

- بلى، حالة امرأة. كان اسمها دوروثي بريستُن-غري.

- نعم. كنتُ شاباً صغيراً في ذلك الوقت. وكنت قد اهتممتُ -أساساً- بالخطِّ العام الذي يتبعه والدي في أبحاثه، رغم أن نظرياتي ونظرياته لم تتفقا دوماً. كان العمل الذي قام به مثيراً، كما أثار العمل

الذي قمتُ به أنا بالاشتراك معه اهتمامي الشديد. لا أدري ما هو اهتمامك تحديداً بحالة دوروثي بريستُن-غري.

- لقد فهمتُ أنها كانت إحدى توأمين.

- نعم. ويمكنني القول إن ذلك كان -وقتها- حقل الدراسة المتخصص لوالدي، وكان يجري العمل في مشروع يهدف إلى متابعة الحياة العامة لتوائم متماثلة تماماً وقع عليها الاختيار. أولئك الذين تمت تربيتهم في نفس البيئة، وأولئك الذين تمت تربيتهم (بسبب ظروف الحياة المختلفة) في بيئات مختلفة كلياً... بهدف رؤية المدى الذي تبقى فيه هذه التوائم متشابهة، ومدى تشابه ما يقع لهم من حوادث. إذ ربما وجدتَ شقيقتين أو شقيقين من التوائم لم يكادا يقضيان أية فترة من حياتهما معاً، ومع ذلك فإن نفس الأشياء تحدث لهما في نفس الوقت بطريقة غريبة جداً. كان ذلك أمراً مثيراً جداً بالفعل. ولكن فهمتُ أن هذا ليس هو مكمن اهتمامك بالقضية.

- نعم، فاهتمامي كان بذلك الجزء من القضية الذي انطوى على حادثٍ وقع لطفل.

- نعم، صحيح. أظن أن ذلك كان في صرّي. نعم، منطقة جميلة جداً لا تبعد كثيراً عن كامبرلي. كانت دوروثي أرملة شابة في ذلك الوقت، وكان لها طفلان صغيران. كان زوجها قد توفي حديثاً في حادث، ونتيجة لذلك فقد كانت...

- مضطربة عقلياً؟

- كلا، لم يكن يُظنُّ بها ذلك. بل كانت مصدومة بشكل عميق

لوفاة زوجها وتشعر بإحساس عظيم بالخسارة، ولم يبدُ أنها تتعافى بشكل مُرضٍ كثيراً وفق انطباع طبيبها الخاص. لم يكن مرتاحاً تماماً للطريقة التي تتماثل فيها للشفاء، ولم يبدُ أنها تتغلب على شعورها بخسارة زوجها بالطريقة التي كان الطبيب يأملها. وبدا أن الأمر يسبب لها ردود أفعال غريبة. وعلى أية حال، فقد أراد مشورة، وطلب من والدي أن ينظر ليرى ما يمكنه فهمه من حالتها. وقد وجد حالتها مثيرة للاهتمام، ورأى -في نفس الوقت- أن الحالة تمثل مخاطر أكيدة، وبدا أنه يفضّل أن توضع تحت المراقبة في مصحة يمكن أن تُقدّم لها فيها رعاية خاصة. وقد ازدادت قناعته بضرورة ذلك بعد القضية التي وقع فيها حادث لذلك الطفل. كان في البيت طفلان، ووفقاً لرواية السيدة دوروثي لما حدث فقد كانت الطفلة الأكبر هي التي هاجمت الطفل الذي كان يصغرها بأربع سنوات أو خمس، وضربته برفش حديقة أو بمجرفة بحيث وقع في بُركة الزينة التي كانت لديهم في الحديقة فغرق. والحقيقة أن مثل هذه الأمور كثيراً ما تحدث بين الأطفال كما تعلم؛ فتجد أطفالاً يُدفعون أحياناً وهم في عرباتهم إلى بركة لأن طفلاً أكبر منهم أخذته الغيرة ففكر قائلاً لنفسه: "إن أمي سترتاح من الكثير من المتاعب لو لم يكن هذا الصغير موجوداً"، أو: "سيكون الأمر أروع بالنسبة لي"... وهذا كله ناشئ عن الغيرة... رغم أنه لم يبدُ أي سبب أو دليل على الغيرة في هذه القضية؛ فالطفلة لم تشعر بالسخط لولادة أخيها... وبالمقابل فإن دوروثي لم تُرد هذا الطفل! كانت قد حاولت إقناع طبيبين بإجراء عملية إجهاض لها، ولكنها لم تنجح في العثور على من يقوم لها بتلك العملية التي كانت ممنوعة قانوناً في ذلك الوقت. لقد قالت إحدى الخادمات، كما قال صبي كان يُحضر برقية، إن امرأة هي مَن دفع الطفل، وليس

الطفلة الأخرى. وقالت إحدى الخادمات -بكل جزم- إنها كانت تنظر من النافذة وإن المعتدية كانت سيدتها. قالت: "لا أظن أن هذه المسكينة تعرف ما الذي تفعله في هذه الأيام؛ فمنذ أن توفي سيدي ظلت في... في حالة لم تشهدها من قبل". حسناً، كما قلتُ لك، أنا لا أعرف بالضبط ما الذي تريد معرفته عن القضية. لقد صدر حكم باعتبار الوفاة حادثاً، وتم اعتبارها هكذا، وقيل إن الطفلين كانا يلعبان معاً ويتدافعان. وبناء على ذلك فإن الوفاة كانت حادثاً مؤسفاً جداً دون شك. وقد تُرِك الأمر عند هذا الحد، ولكن عندما استُشير والدي، وبعد حديث مع السيدة وعدد من الاختبارات والأسئلة والملاحظات، بات متأكداً تماماً بأنها كانت مسؤولة عما حدث، ووفقاً لنصيحته كان من المفضل أن تخضع للمعالجة العقلية.

- أكان والدك متأكداً تماماً بأنها هي التي كانت مسؤولة؟

- نعم. لقد سادت في ذلك الوقت مَدْرسةٌ في العلاج ذات شعبية واسعة، وكان والدي يؤمن بأفكارها. وكان رأي تلك المدرسة أن بوسع المرضى -بعد علاجٍ كافٍ قد يمتد فترة طويلة ربما جاوزت السنة- أن يعودوا لممارسة حياتهم الطبيعية، بل أن من مصلحتهم أن يعودوا لممارستها. يمكن إعادتهم للعيش في البيت وبقدر مناسب من العناية، بشكليها الطبي والمبذول من أولئك الأقارب المقربين الذين يعيشون معهم ويمكنهم مراقبتهم وهم يعيشون حياتهم الطبيعية، وأن كل شيء سيسير على ما يرام. يمكنني القول إن هذا الأسلوب قد لاقى نجاحاً في البداية في العديد من الحالات، ولكن بدأت الأمور تختلف فيما بعد. كان للعديد من الحالات نتائج مؤسفة جداً؛ فقد عاد المرضى الذين بدا أنهم شُفوا إلى بيوتهم وبيئاتهم الطبيعية،

إلى العائلة، أو الزوج، أو الأب والأم، ثم بدؤوا يتكسون ببطء، بحيث حدثت في كثير من الحالات مآسٍ أو ما يقرب من المآسي. وفي إحدى الحالات أصيب والدي بخيبة أمل مريرة (وكانت أيضاً حالة مهمة جداً في أبحاثه) في حالة امرأة عادت لتعيش مع نفس صديقتها التي كانت تعيش معها من قبل. وقد بدا أن كل شيء يسير بسعادة، ولكن بعد نحو خمسة أشهر أو ستة أرسلت المرأة في طلب الطبيب على عجل، وعندما جاء قالت له: "يجب أن آخذك إلى الطابق العلوي، ولكنك ستغضب لما فعلتُه، وأخشى أن يتعين عليك استدعاء الشرطة. أعرف أن ذلك كان يجب أن يحدث؛ لقد أُمِرتُ أن أفعل ذلك. لقد رأيتُ الشيطان ينظر من عيني هيلدا... رأيتُ الشيطان هناك، ولذلك فقد عرفتُ ما يجب عليّ فعله. عرفتُ أن عليّ أن أقتلها". وكانت المرأة تتمدد ميتة على كرسي وقد خُنقت، وبعد وفاتها تم سَمْلُ عينيها. وقد ماتت القاتلة في مصحة عقلية دون أن تشعر -أبداً- بفداحة جريمتها، باستثناء أنها كانت مهمة ضرورية أُسنِدت إليها، لأنه كان من واجبها أن تُدمر الشيطان.

هز بوارو رأسه بحزن، ومضى الطبيب قائلاً: نعم، إنني أعتبر أن دوروثي قد عانت -بطريقة مُخفّفة- من شكل من الاضطراب العقلي الذي كان خطيراً، وأنها لا يمكن أن يؤمَن جانبها إلاّ إذا عاشت تحت الرقابة والإشراف. ويمكنني القول إن ذلك لم يكن مقبولاً على نطاق واسع وقتها، وقد اعتبر والدي ذلك أمراً غير محمود على الإطلاق. كانت بمجرد دخولها إلى مصحة جيدة ممتازة تخضع لعلاج جيد جداً. ومرة أخرى، بعد بضع سنوات بدت عاقلة تماماً، وغادرت المصحة، وعاشت حياة طبيعية مع ممرضة رائعة

كانت مسؤولة عنها تقريباً، رغم أنها اعتُبرت في البيت بمثابة وصيفة لها. ثم كوّنت صداقات، وما لبثت أن سافرت إلى الخارج.

- إلى الملايو.

- نعم؛ أرى أن معلوماتك دقيقة. ذهبت إلى الملايو لتقيم مع شقيقتها التوأم.

- وهناك حدثت مأساة أخرى، أليس كذلك؟

- بلى؛ اعتُدي على طفل لأحد الجيران. وقد ظُنّ -في البداية- أن ذلك كان على يد خادمة محلية، ثم انتقل الشك بعد ذلك إلى خادم من أهل البلاد، خادم شخصي. ولكن -في تلك المرة أيضاً- لم تظهر شكوك بأن دوروثي كانت مسؤولة عن الاعتداء بسبب تلك الأسباب العقلية التي لا يعرفها أحد غيرها. وقد فهمتُ أنه لم يُعثر على دليل محدد يمكن إثارته ضدها. وأظن أن الجنرال... نسيت اسمه الآن...

- رافنزكروفت؟

- نعم، نعم، الجنرال رافنزكروفت وافق على ترتيب أمر عودتها إلى إنكلترا وخضوعها للعلاج مجدداً. أهذا ما كنتَ تريد معرفته؟

- نعم، هذا ما كنتُ قد سمعتُه -جزئياً- من قبل، ولكن كان كله من قبيل الأقاويل التي لا يُعتمد عليها. أما السؤال الذي أردتُ طرحه عليك فهو أن الحالة كانت تتعلق بتوأمين متماثلين تماماً.

فماذا عن الشقيقة الأخرى، مارغريت بريستُن-غري؟ التي أصبحت بعد ذلك زوجة الجنرال رافنزكروفت. أكان يُحتمل أن تكون مصابة بنفس المرض؟

- لم تظهر أية حالة طبية خاصة بها أبداً.. كانت عاقلة تماماً. لقد اهتم والدي بهذا الأمر، وزارها مرة أو مرتين وتحدث إليها، لأنه كان قد رأى كثيراً حالات لأمراض تكاد تكون متطابقة تماماً لدى توائم بدؤوا حياتهم وهم يحبون بعضهم بعضاً كثيراً.

- أتقول إنهم بدؤوا حياتهم فقط؟

- نعم. ففي حالات معينة يمكن أن تنشأ حالة من العداوة بين التوأمين. وهي تتبع حالة حب تملكي حمائي يشعر به أحدهما تجاه الآخر، ولكنها يمكن أن تنحط إلى عاطفة أقرب إلى الكراهية إن وُجد بعض الضغط العاطفي الذي يمكن أن يُطلق العنان لمثل هذه الكراهية أو يثيرها، أو في حال وجود أزمة عاطفية تفسر قيام عداوة بين شقيقتين توأمين. وأظن أن مثل هذه الحالة قد تكون موجودة في قضيتنا هذه. أظن أن الجنرال رافنزكروفت -عندما كان ملازماً أو نقيباً أو ما شابه ذلك- قد وقع في حب عميق مع دوروثي التي كانت فتاة جميلة جداً، وكانت -في الواقع- الأجملَ بين الشقيقتين. وقد وقعت هي الأخرى في حبه. ولم تتم خطوبتهما رسمياً، ولكن الجنرال انتقل بعواطفه بسرعة إلى الأخت الأخرى، مارغريت، أو مولي كما كانت تُدعى. وقع في حبها وطلب منها الموافقة على الزواج به. وقد بادلته الحب وتزوجا بمجرد أن سمحت مهنة الجنرال بذلك. ولم يكن لدى والدي شك بأن التوأم الأخرى -دولي- قد شعرت بغيرة

مريرة لزواج أختها، وأنها استمرت في حبها لأليستير رافنزكروفت وسخطها من زواجه. ولكنها تغلبت على الأمر كله، وتزوجت رجلاً آخر فيما بعد... وبدا الزواج سعيداً تماماً، وفيما بعد اعتادت على الذهاب كثيراً لزيارة عائلة رافنزكروفت، ليس في تلك المناسبة في الملايو فقط، بل لاحقاً أيضاً عندما انتقلت العائلة إلى بلد أجنبي آخر، وبعد أن عادت إلى الوطن أيضاً. كان يبدو في ذلك الوقت أنها قد شفيت من جديد، ولم تعد تعاني من أي اكتئاب عقلي، وعاشت مع ممرضة مرافقة عالية الكفاءة ومع طاقم من الخدم. وأظن -أو أن والدي قد أخبرني دوماً- بأن الليدي رافنزكروفت، أي مولي، بقيت شديدة التعلق بأختها. كانت تشعر بحب كبير لها وبنوع من المسؤولية عن حمايتها. وغالباً ما كانت تريد رؤيتها أكثر مما كانت تراها فعلاً، ولكن الجنرال رافنزكروفت لم يكن متحمساً كثيراً لذلك. وأحسب أن من الممكن أن تكون دولي (أو دوروثي، التي لم تكن تخلو من شيء من عدم التوازن) قد استمرت في الشعور بتعلق شديد بالجنرال رافنزكروفت، الأمر الذي أحسب أنه كان مُحرِجاً وصعباً بالنسبة إليه، رغم أنني أظن أن زوجته كانت مقتنعة تماماً بأن أختها قد تغلبت على أية مشاعر غيرة أو غضب.

- لقد فهمتُ أن دوروثي كانت تقيم مع عائلة رافنزكروفت قبل نحو ثلاثة أسابيع من وقوع مأساة انتحارهما.

- نعم، هذا صحيح تماماً. وقد حدثت وفاتها المأساوية وقتها. كانت ممّن يمشون غالباً أثناء نومهم. وقد خرجت ذات ليلة وهي تمشي في نومها وتعرضت لحادث، حيث وقعت على جزء من صخرة كان ممشى مهجور يؤدي إليها فيما يبدو. وقد عُثر عليها في

اليوم التالي، وأظن أنها توفيت في المستشفى دون أن تسترد وعيها. وقد حزنت أختها مولي عليها أشد الحزن، وشعرت بتعاسة مريرة من ذلك، ولكني أود القول -وهو أمر ربما كنتَ تريد معرفته- إنني لا أعتقد أن هذا الحادث يمكن اعتباره مسؤولاً عن حادثة الانتحار اللاحقة للزوجين اللذين كانا يعيشان بسعادة معاً. إن الحزن لوفاة شقيقة أو أخت زوجة لا يمكن أن يؤدي بالمرء إلى الانتحار... وهو بالتأكيد لا يمكن أن يؤدي إلى انتحار مزدوج.

قال بوارو: إلاّ إذا كانت مارغريت رافنزكروفت مسؤولة عن موت أختها.

- يا إلهي! من المؤكد أنك لا تحاول الإيحاء بأن...

- بأن مارغريت تبعت أختها التي تمشي في نومها، وبأن يد مارغريت هي اليد التي امتدت لتدفع دوروثي من فوق حافة الصخرة؟

- إنني أرفض كلياً تقبل مثل هذه الفكرة.

- عندما يتعلق الأمر بالناس، لا يستطيع المرء الجزم!

* * *

الفصل الخامس عشر

خبيرة تصفيف الشعر

نظرت السيدة أوليفر إلى تشيلتنهام باستحسان. الواقع أنها لم تزر تشيلتنهام أبداً من قبل، وقد قالت لنفسها: كم هو جميل أن يرى المرء بيوتاً هي حقاً بيوت بكل معنى الكلمة!

ثم عادت بعقلها إلى أيام الشباب، وتذكرت بأنها قد عرفت أشخاصاً... أو أن بعض أقاربها -على الأقل- قد عرفوا أشخاصاً ممن عاشوا في تشيلتنهام. كانوا -غالباً- من المتقاعدين، متقاعدي الجيش أو البحرية. ورأت أن هذا المكان من الأمكنة التي يود المرء أن يأتي ويعيش فيها إن كان قد قضى الكثير من الوقت في الخارج؛ إذ يتوفر هنا إحساس بالأمان الإنكليزي، بالذوق السليم، وبالأحاديث اللاهية الممتعة.

وبعد أن نظرت في بعض محلات التحفيات الجميلة، وجدت طريقها إلى حيث تريد الذهاب، أو بالأحرى إلى حيث أراد لها بوارو أن تذهب. كان المحل يُدعى «صالونات روز غرين لتصفيف الشعر». دخلته ونظرت حولها فرأت أربع سيدات أو خمساً يجلسن

وقد أسلمن رؤوسهن لعاملات المحل. تركت شابةٌ ممتلئة الجسم زبونتَها وتقدمت من السيدة أوليفر بنظرة متسائلة. قالت السيدة أوليفر وهي تنظر إلى بطاقةٍ في يدها: السيدة روزنتيل؟ لقد قالت إنها تستطيع رؤيتي إن أتيتُ إلى هنا صباح اليوم. لا أعني أنني أريد إجراء شيء لشعري، ولكني أريد استشارتها في أمر ما. أحسب أن مكالمة هاتفية قد أُجريت وقالت فيها إن بوسعها أن تخصص لي بعض الوقت إن أتيتُ في نحو الحادية عشرة والنصف.

قالت الفتاة: آه، نعم. أظن أن سيدتي تنتظر شخصاً ما.

ثم قادتها نزولاً على بضع درجات إلى ممر سارت فيه حتى باب دوار في نهايته. وبذلك عبرتا من صالون لتصفيف الشعر إلى ما بدا واضحاً أنه بيت السيدة روزنتيل. قرعت الفتاة الممتلئة الباب وقالت: "السيدة التي تريد رؤيتك"، ثم سألت بشيء من الارتباك: "ماذا قلت اسمك؟".

- السيدة أوليفر.

دخلت، وبدا أن للمكان تأثيراً خفيفاً يكاد يوحي بأنه صالة عرض أخرى. كانت فيه ستائر عليها رسومات ورد شفافة، وورود على ورق الجدران. أما السيدة روزنتيل -التي قدرتها السيدة أوليفر بأنها في مثل عمرها تقريباً- فقد كانت تنهي لتوها ما بدا أنه فنجان قهوتها الصباحي.

قالت السيدة أوليفر: السيدة روزنتيل؟

- نعم؟

- أكنتِ تنتظرينني؟

- آه، نعم. لم أفهم تماماً ما هو الموضوع بالضبط، فخطوط الهاتف سيئة جداً. لا بأس بذلك، فلدي نحو نصف ساعة يمكنني توفيرها لك. هل لك ببعض القهوة؟

- لا، شكراً؛ لن أؤخرك أكثر مما يستدعي الأمر. إنه مجرد شيء أريد أن أسألك عنه، وربما كنتِ تتذكرينه. لقد كانت لك حياة مهنية طويلة تماماً في مجال تصفيف الشعر كما فهمت.

- آه، نعم. وأنا سعيدة بتسليم كل ذلك للبنات الآن. إنني لا أعمل أي شيء بنفسي هذه الأيام.

- ولكن لعلك ما تزالين تقدمين المشورة للناس؟

قالت السيدة روزنتيل وهي تبتسم: نعم، إنني أفعل ذلك.

كان لها وجه لطيف ذكي وشعر بني أُحسن ترتيبه فيه خطوط لطيفة من الشيب هنا وهناك. قالت: لستُ متأكدة من طبيعة الموضوع.

- حسناً، أريد أن أسألك سؤالاً عن... أحسبه عن الباروكات بشكل عام.

- نحن لا نعمل كثيراً في الباروكات الآن كما كنا من قبل.

- لقد كانت لك مؤسسة في لندن، أليس كذلك؟

- بلى، كانت أولاً في شارع بوند، ثم تحولنا إلى شارع سلون، ولكن من الرائع العيش في الريف بعد كل ذلك. نعم، إنني وزوجي

مقتنعان جداً بالعيش هنا. إننا ندير مؤسسة صغيرة ولكننا لا نعمل كثيراً في مجال الباروكات هذه الأيام، مع أن زوجي يقدم المشورة ويصمم الباروكات للرجال الذين يعانون من الصلع. والحقيقة أن هذه المسألة تُشكل فارقاً كبيراً بالنسبة إلى الكثير من الناس في أعمالهم... أن لا يظهروا بمظهر العجائز، كما أنها غالباً ما تساعد في الحصول على عمل.

- لا أستطيع تخيل ذلك تماماً.

ونتيجة ارتباكها تحدثت عن بعض الأمور الأخرى على سبيل الحديث العادي وتساءلت كيف ستبدأ موضوعها. وفوجئت عندما انحنت السيدة روزنتيل إلى الأمام وقالت فجأة: أنت أريادني أوليفر، أليس كذلك؟ الكاتبة الروائية؟

قال السيدة أوليفر وقد عاودها ذلك التعبير المتسم بقليل من الخجل المعتاد في مثل هذه المواقف: بلى، الحقيقة... نعم، إنني أكتب روايات بالفعل.

- أنا مغرمة جداً برواياتك، وقد قرأت الكثير منها. آه، هذه مناسبة لطيفة حقاً. والآن، أخبريني، كيف يمكن لي أن أساعدك؟

- لقد أردتُ الحديث عن الباروكات، وعن شيء حدث منذ سنوات طويلة جداً، وربما كنتِ لا تذكرين شيئاً عنه.

- لقد أثرتِ عجبي... أتعنين عن موديلات الباروكات قبل سنوات طويلة؟

- ليس تماماً. بل هي امرأة، صديقة لي... بل كنا معاً في

المدرسة في الواقع... ثم تزوجت وسافرت إلى الملايو، ثم عادت إلى إنكلترا، وحدثت مأساة فيما بعد، وأظن أن أحد الأمور التي وجدها الناس مدهشة -بعد ذلك- هو أنها كانت تقتني الكثير من الباروكات. وأظن أنها كانت جميعاً من هنا، أعني من شركتكم.

- آه، مأساة. ماذا كان اسمها؟

- كان اسمها عندما عرفتها بريستُن-غري، ولكن بعد أن تزوجت أصبح اسمها رافنزكروفت.

- آه! آه، نعم، إنني أتذكر الليدي رافنزكروفت بالفعل. أتذكرها بشكل جيد. كانت لطيفة جداً، كما كانت ما تزال جميلة جداً جداً في الواقع. نعم، كان زوجها كولونيلاً أو جنرالاً أو شيئاً من ذلك، وكانا قد تقاعدا وعاشا في... نسيت المقاطعة الآن...

- ووقع ما يُفترض أنه انتحار مزدوج.

- نعم، نعم، أذكر أنني قرأت عنه وقلت: "يا إلهي! هذه سيدتنا رافنزكروفت"، ثم ظهرت صورة لهما في الصحف وتأكدتُ أنها هي. لم أكن قد رأيت زوجها أبداً بالطبع، ولكنها كانت صورتها بالتأكيد. بدا ذلك أمراً مُحزناً مؤلماً جداً. سمعتُ أنهما اكتشفا أن لديهما سرطاناً لا يستطيعان له دفعاً، فأقدما على ذلك. ولكني لم أسمع تفصيلات أخرى.

- نعم.

- ولكن ما هو الذي تظنين أن بوسعي أن أخبرك به؟

- لقد كنتِ تجهزينها بالباروكات، وقد فهمتُ أن المحققين

(أعني من الشرطة) قد أحسّوا أن أربع باروكات تُعتبر عدداً كبيراً تحتفظ به المرأة، ولكن ربما كان الناس يحتفظون بأربع باروكات في وقت واحد، أليس كذلك؟

- ربما احتفظت المرأة بباروكتين؛ واحدة ترسلها لإعادة ترتيبها إذا صح التعبير، والأخرى تستخدمها في غياب الأولى.

- هل تتذكرين طلب الليدي رافنزكروفت باروكتين إضافيتين؟

- لم تأتِ هي بنفسها. أظنها كانت مريضة في المستشفى أو شيئاً من هذا القبيل، وكانت شابة فرنسية هي التي أتت. أظنها شابة فرنسية كانت بمثابة مرافقة لها أو غير ذلك. وكانت لطيفة جداً وتتكلم الإنكليزية بشكل كامل، وقد شرحت كل شيء عن الباروكتين الإضافيتين اللتين أرادتهما: الحجم واللون والطراز. نعم، تصوري أنني أذكر ذلك! يُخيّل إليّ أنني ما كنتُ لأذكر لولا أنني قرأت بعد... لا بد أن ذلك كان بعد شهر أو ربما ستة أسابيع... حيث قرأتُ عن الانتحار. أتصور أنهم قد أبلغوها بالنبأ السيء في المستشفى أو حيث كانت تُعالج، ولذلك لم تعد تستطيع مواجهة الحياة، وشعر زوجها أنه لا يستطيع مواجهة الحياة دونها.

هزت السيدة أوليفر رأسها بحزن، ثم مضت في تساؤلاتها: أحسب أنها كانت أنواعاً مختلفة من الباروكات.

- نعم، كانت لإحداها خصلات على شكل خطوط رمادية رائعة جداً، وأخرى للحفلات، والثالثة توضع ليلاً، والرابعة ذات شعر قصير ذي خصلات، وكانت هذه الأخيرة رائعة جداً، يمكنك وضعها تحت قبعة دون أن يفسد ترتيبها. نعم، لقد شعرتُ بأسف

على عدم رؤيتي لليدي رافنزكروفت مرة أخرى. وحتى بمعزل عن مرضها، فقد كانت شديدة الحزن بشأن أخت لها توفيت قبل ذلك بقليل... شقيقة توأم.

- نعم، يكون التوائم شديدي التعلق بعضهم ببعض في العادة.

- بدت دائماً امرأة بالغة السعادة قبل ذلك.

تنهدت المرأتان، وغيرت السيدة أوليفر الموضوع فسألت: أتظنين أنني يمكن أن أجد فائدة في باروكة أضعها؟

مدت الخبيرة يدها ووضعتها بتأمل على رأس السيدة أوليفر ثم قالت: "لا أنصح بذلك. إن لشعرك غزارة رائعة... ويخيل إليّ أنه ما يزال ثخيناً جداً..."، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهها وقالت: أنت تستمتعين بتغيير طرازه باستمرار، أليس كذلك؟

- كم هو ذكيٌ منك أن تعرفي ذلك. هذا صحيح تماماً... إنني أستمتع بالتجريب؛ فهو ممتع جداً.

- أنت تستمتعين بالحياة عموماً، أليس كذلك؟

- بلى، أستمتع بها، وأحسب أن مصدر المتعة هو شعور المرء أنه لا يعرف أبداً ما الذي قد يحدث غداً.

قالت السيدة روزنتيل: ومع ذلك فهذا الشعور هو -بالضبط- ما يجعل الكثير من الناس لا يكفون عن القلق.

* * *

الفصل السادس عشر
السيد غوبي يُقدم تقريره

دخل السيد غوبي إلى الغرفة وجلس على كرسيه المعتاد كما أشار له بوارو. نظر حوله قبل أن يختار تلك القطعة المعينة من الأثاث أو ذلك الجزء من الغرفة الذي يوشك أن يوجه له حديثه. وقد استقر رأيه -كما استقر مراراً من قبل- على مخاطبة الموقد الكهربائي الذي لم يكن مشتعلاً في مثل هذا الوقت من السنة. لم يكن معروفاً عن السيد غوبي أبداً مخاطبته بشكل مباشر للناس الذين يعمل لهم؛ فقد كان يختار -دوماً- مخاطبة إفريز الجدار، أو تمديدات التدفئة، أو جهاز تلفزيون أو ساعة أو حتى سجادة أحياناً.

أخرج من حقيبة له بضعة أوراق، فقال له بوارو: حسناً، هل لي عندك شيء؟

- لقد جمعتُ تفصيلات عديدة.

كان السيد غوبي مشهوراً في كل أنحاء لندن (بل في كل أنحاء إنكلترا في الحقيقة، وربما أبعد من ذلك) بكونه آلة لجمع المعلومات

لمن يريدها. ولم يكن أحد يعرف تماماً كيف يتاح له تنفيذ مثل هذه العجائب. لم يوظف مِلاكاً زائداً من المُستخدَمين، وكان يشكو أحياناً من أن ساقيه -كما اعتاد تسمية موظفيه- لم يعودا بالجودة المعهودة. ولكن النتائج التي يحصل عليها كانت ما تزال قادرة على إدهاش الناس الذين يطلبون خدماته.

قال: السيدة بيرتن-كوكس: تزوجت السيد سيسيل ألدبيري، صاحب مصانع أزرار بالجملة، وهو رجل غني. دخلت عالم السياسة وأضحت نائبة عن منطقة ليتل ستانسمير، وقد قُتل السيد ألدبيري في حادث سيارة بعد أربع سنوات من زواجهما، والطفل الوحيد لهما مات في حادث بعد وقت قصير من ذلك. وقد ورثت الزوجة ممتلكات السيد ألدبيري، ولكن الإرث لم يكن بالحجم المتوقع لأن الشركة لم تكن تعمل بشكل جيد في السنوات الأخيرة. وقد ترك السيد ألدبيري مبلغاً كبيراً من المال أيضاً لآنسة تُدعى كاثلين فين، كانت له -فيما يبدو- علاقة حميمة معها دون علم زوجته. وقد مضت السيدة بيرتن-كوكس في نشاطها السياسي، وبعد نحو ثلاث سنوات من ذلك تبنت طفلاً كان قد وُلد للآنسة كاثلين فين... وقد أصرت الآنسة كاثلين فين على أن الطفل هو ابن السيد ألدبيري الراحل. (وهذا ما يصعب تقبله قليلاً -من المعلومات التي استطعتُ جمعها من تحرياتي- فقد كان للآنسة فين العديد من العلاقات، علاقات كانت عادة مع رجال ذوي قدرات ميسورة وطبائع سخية).

- أكمل.

- وافقت السيدة ألدبيري (كما كانت تُدعى وقتها) على تبني

الطفل، وبعد فترة قصيرة من ذلك تزوجت الميجر بيرتن-كوكس. وقد أصبحت الآنسة كاثلين فين بعد ذلك ممثلة ومغنية شعبية ناجحة جداً وكسبت مبالغ هائلة من المال. وبعدها كتبت للسيدة بيرتن-كوكس تقول إنها مستعدة لاستعادة الطفل المُتبنى، ولكن السيدة بيرتن-كوكس رفضت ذلك. وقد كانت تعيش حياة مريحة تماماً منذ أن قُتل الميجر بيرتن-كوكس في الملايو كما فهمت؛ فقد تركها في حالة لا بأس بها من الغنى. وقد حصلتُ على معلومة أخرى مفادها أن الآنسة كاثلين فين (التي توفيت قبل فترة قصيرة لا تتعدى السنة والنصف فيما أظن) تركت وصية أوصت فيها بكل ثروتها (التي بلغت مبالغ طائلة) إلى ابنها الطبيعي ديزموند، المعروف حالياً باسم ديزموند بيرتن-كوكس.

- هذا سخاء عظيم. وماذا كان سبب وفاة الآنسة فين؟

- أخبرني مصدر معلوماتي أنها أصيبت بمرض اللوكيميا.

- وقد ورث الفتى أموال أمه؟

- وُضعت الأموال في صندوق ائتمان بحيث يستلمها عندما يبلغ الخامسة والعشرين.

- سيكون -إذن- صاحب ثروة ضخمة. والسيدة بيرتن-كوكس؟

- الشائع أنها لم تُوفّق كثيراً في استثماراتها. لديها ما تستطيع به العيش، ولكن ليس أكثر من ذلك بكثير.

- هل كتب الفتى ديزموند وصية؟

- أخشى أنني لم أعرف هذه النقطة بعد، ولكن لدي بعض الوسائل لمعرفة ذلك. وإذا ما عرفته فسوف أخبرك به دون إضاعة أي وقت.

استأذن السيد غوبي بالانصراف، وانحنى للموقد الكهربائي مودعاً وهو شارد الذهن.

بعد ذلك بنحو ساعة ونصف الساعة رنّ جرس الهاتف.

مضى هيركيول بوارو يكتب بعض الملاحظات على ورقة أمامه. وبين حين وآخر كان يُقطِّب جبينه، ويفتل شاربه، ثم يشطب شيئاً ويعيد كتابته ثم يمضي قُدماً. وعندما رنّ جرس الهاتف رفع السماعة وأصغى، ثم قال: شكراً لك، لقد تصرفتَ بسرعة. نعم... نعم، إنني ممتن لك. لا أدري -بالفعل- كيف تتمكن من هذه الأمور! نعم، هذا يوضح الموقف تماماً. هذا يجعل أحد الأمور ذا معنى بعد أن لم يكن له معنى من قبل. نعم... فهمت. نعم، أنا مُصغٍ إليك... أأنت متأكد تماماً أن هذا هو الوضع؟ إنه يعرف أنه مُتبنىً، ولكنه لم يُبلّغ بهوية أمه الحقيقية... نعم، نعم، فهمت... جيد جداً. هل ستوضح لي النقطة الأخرى أيضاً؟ شكراً لك.

أعاد السماعة وبدأ يكتب كلمات مرة أخرى. وبعد نصف ساعة رنّ جرس الهاتف من جديد، ورفع السماعة مرة أخرى ليسمع صوتاً ليس من الصعب عليه تمييزه: لقد عدتُ من تشيلتنهام.

- آه، سيدتي العزيزة، أوَقد عدتِ؟ هل رأيت السيدة روزنتيل؟

- نعم. إنها لطيفة جداً. وقد كنتَ محقاً، فهي فيل آخر.

- ماذا تعنين يا سيدتي؟

- أعني أنها تذكرت مولي رافنزكروفت.

- وهل تذكرت باروكاتها؟

- نعم.

لخّصت له -باختصار- ما أخبرتها به مصففة الشعر المتقاعدة حول الباروكات، فقال بوارو: نعم، هذا يتفق مع الحقائق. هذا هو بالضبط ما ذكره لي كبير المفتشين غاروي. الباروكات الأربع التي وجدها الشرطة. واحدة ذات خصلات، وأخرى للمساء، واثنتان أخريان عاديتان... أربع.

- إذن فلم أقل لك إلاّ ما تعرفه أصلاً؟

- كلا، بل أخبرتني بما هو أبعد من ذلك. ألم تقولي لي -قبل قليل- إنها قالت إن الليدي رافنزكروفت أرادت باروكتين إضافيتين تضيفهما إلى الباروكتين الموجودتين لديها أساساً، وأن ذلك قد حدث قبل ثلاثة أسابيع إلى ستة أسابيع من حدوث مأساة الانتحار. نعم، هذا أمر مثير، أليس كذلك؟

- إنه أمر طبيعي جداً. أنت تعرف أن الناس، وخاصة النساء،

يمكن أن يُلحقن أضراراً بالغة بأشيائهن؛ بالشعر المستعار وغير ذلك. فإذا لم يكن بالإمكان ترتيبها من جديد أو تنظيفها، وإذا كانت قد احترقت أو وقعت عليها مادة يصعب تنظيفها، أو صُبغت بشكل خاطئ تماماً... لو حدث لها أي عارض كهذا... فعندها يصبح المرء مضطراً -طبعاً- لشراء باروكتين جديدتين. لا أدري ما الذي يجعلك منفعلاً إزاء هذا الأمر.

- كلا، لستُ منفعلاً على وجه الدقة. إنها مجرد نقطة، ولكن النقطة الأكثر إثارة هي ما قلتِه قبل قليل. فقد كانت سيدة فرنسية هي التي أحضرت الباروكات ليتم صنع نماذج لها أو مثيلات لها، أليس كذلك؟

- بلى، وقد فهمتُ أنها كانت مرافقة أو وصيفة من نوع ما. فقد كانت الليدي رافنزكروفت في المستشفى ولم تكن بصحة جيدة بحيث تستطيع الذهاب بنفسها لتقوم بالاختيار.

- فهمت.

- ولذلك جاءت مرافقتها الفرنسية.

- هل صدف وأن عرفت اسم تلك المرافقة الفرنسية؟

- كلا، لا أظن أن السيدة روزنتيل قد ذكرته. بل لا أظنها تعرفه. لقد تم أخذ الموعد من قبل الليدي رافنزكروفت، وقد قامت المرافقة الفرنسية بجلب الباروكات فقط لأغراض الحجم وصنع مثيل لها فيما أظن.

- حسناً، هذا يساعدني في الخطوة التالية التي أوشك على القيام بها.

- وماذا علمتَ أنت؟ هل قمتَ بأي شيء؟

- أنت مُتشككة دوماً، تظنين أنني لم أفعل شيئاً، وأنني أجلس على كرسي مرتاحاً.

اعترفت السيدة أوليفر قائلة: الحقيقة أنني أظنك تجلس على كرسيك وتفكر، ولكنني أرى -بالفعل- أنك لا تخرج وتقوم بشيء في الغالب.

- أظن أنني ربما خرجتُ في المستقبل القريب وقمتُ بشيء، وهذا سيسرك. بل إنني ربما أعبر القنال الإنكليزي (رغم أنني لن أفعل ذلك بالقارب حتماً)... أغلب الظن أن أسافر بالطائرة.

- آه، أتريدني أن آتي معك أيضاً؟

- كلا، الأفضل أن أذهب وحدي هذه المرة.

- هل ستذهب حقاً؟

- آه، نعم، نعم. سأسعى وأركض بكل نشاط بحيث تُسرين مني يا سيدتي.

وعندما أعاد السماعة طلب رقماً أخرجه من دفتر ملاحظاته. وسرعان ما كان يتكلم مع الشخص الذي أراد الحديث معه.

- عزيزي السيد غاروي، هيركيول بوارو يتكلم. هل أشغلك كثيراً بمكالمتي؟ هل أنت مشغول كثيراً في هذه اللحظة؟

- لا، لستُ مشغولاً. إنني أُشذب ورود حديقتي، هذا كل ما في الأمر.

- لديّ شيء أريد أن أسألك عنه... شيء بسيط تماماً.

- حول مشكلتنا؛ الانتحار المزدوج؟

- نعم، حول مشكلتنا. لقد قلتَ إنه كان في البيت كلب، وقلت إن الكلب كان يخرج مع العائلة، أو أن هذا ما فهمتَه.

- نعم، لقد ذُكر كلب. وأظن أن مدبرة المنزل أو سواها قالت إنهما خرجا في ذلك اليوم في نزهة مع الكلب كعادتهما.

- خلال فحصكم للجثة: هل كانت عليها أية علامة تدل على أن الليدي رافنزكروفت قد تعرضت لعضة كلب؟ ليس بالضرورة أن يكون ذلك قبل وفاتها أو في ذلك اليوم تحديداً؟

- إنه لمن الغريب أن تقول ذلك، وما كنتُ لأتذكر ذلك لولا أن ذكرتَه أنت الآن. ولكن... نعم، كانت توجد نُدبتان. لم تكونا عميقتين. ولكن مدبرة المنزل ذكرت أن الكلب قد هاجم صاحبته أكثر من مرة وعضها، ولكن ليس بوحشية بالغة. اسمعني يا بوارو، لم يكن داء الكَلَب منتشراً هناك وقتها إن كان هذا ما تفكر فيه. لا يمكن أن يكون شيء من ذلك. كما أنها قُتلت بطلقات رصاص في نهاية

الأمر، كلاهما قُتلا بطلقات رصاص. لم يظهر أي شك بوجود تسمم من تعفن جرح مثلاً أو خطر الكزاز.

- أنا لا ألوم الكلب، كان ذلك شيئاً أردتُ معرفته فحسب.

- كانت إحدى عضتَي الكلب حديثة تماماً، أظنها كانت قبل نحو أسبوع من الوفاة أو أسبوعين فيما ذكره أحدهم، وقد شفي الجرح تماماً تقريباً. وفي كل الأحوال، لم يبدُ أن في الأمر حاجةً لمعالجةٍ أو أخذ حقن وقائية أو ما شابه ذلك، إن كان هذا ما تلمّح إليه. ما هو ذلك القول القديم... «وكان الكلب هو الذي مات». لا أدري من أين أُخذ هذا القول، ولكن...

- على أية حال، لم يكن الكلب هو الذي قد مات... لم يكن هذا هو الهدف من سؤالي. كان بودي لو عرفتُ ذلك الكلب؛ فلعله كان كلباً شديد الذكاء.

وبعد أن شكر بوارو كبير المفتشين غاروي أعاد السماعة وتمتم مع نفسه: "كلب ذكي، ولعله كان أذكى من الشرطة".

* * *

الفصل السابع عشر

بوارو يعلن المغادرة

أدخلت الآنسة ليفنغستُن ضيفاً وأعلنت قائلة: السيد هيركيول بوارو.

وما أن غادرت الآنسة ليفنغستُن الغرفة حتى أغلق بوارو الباب خلفها وجلس قرب صديقته السيدة أريادني أوليفر، ثم قال وهو يخفض صوته قليلاً: سأغادر.

قالت السيدة أوليفر التي كانت تفاجأ دوماً بطرق بوارو في تمرير المعلومات: ماذا ستفعل؟

- سأغادر؛ سآخذ طائرة إلى جنيف.

- تبدو كما لو كنتَ في إحدى هيئات الأمم المتحدة.

- لا، إنها مجرد زيارة خاصة أقوم بها.

- هل علمت بوجود فيل في جنيف؟

- حسناً، أحسب أن بوسعك النظر إلى المسألة على هذا النحو. بل ربما كانا فيلين.

- أنا لم أكتشف شيئاً إضافياً. والحقيقة أنني لا أدري إلى من ألجأ لكي أعثر على شيء إضافي.

- أظنكِ أشرتِ -أو أشار غيرك- إلى أن لابنتك بالمعمودية أخاً صغيراً.

- نعم، وأظن أن اسمه إدوارد. أنا لم أكد ألتقي به... أذكر أنني أخرجته من المدرسة مرة أو مرتين فقط.

- أين هو الآن؟

- إنه في الجامعة في كندا على ما أظن، أو أنه يتلقى دورة في الهندسة هناك. هل تريد أن تذهب وتطرح عليه أسئلتك؟

- كلا، ليس الآن. أود فقط أن أعرف أين هو. ولكني فهمتُ أنه لم يكن في البيت يوم وقوع ذلك الانتحار، أليس كذلك؟

- لا أظنك تفكر... لا أظنك تفكر للحظة واحدة أنه هو الذي فعلها... هل تفكر في ذلك؟ أعني أن يكون قد أطلق النار على أبيه وأمه كليهما. أعرف أن الصبيان يفعلون مثل هذه الأمور أحياناً، فهم يكونون غريبي الأطوار كثيراً في بعض الأحيان عندما يكونون في عمر معين.

- إنه لم يكن في البيت. هذا ما أعرفه أصلاً من تقارير الشرطة.

- هل عثرتَ على أي شيء مثير آخر؟ تبدو منفعلاً تماماً.

- أنا منفعل على نحو ما. لقد اكتشفت أموراً معينة يمكن أن تُلقي الضوء على ما كنا نعرفه من قبل.

- ما الذي يُلقي الضوء على ماذا؟

- يبدو لي ممكناً الآن أن أفهم السبب الذي جعل السيدة بيرتن-كوكس تتقرب منك كما فعلت وتحاول إقناعك بالحصول لها على معلومات حول حقائق انتحار عائلة رافنزكروفت.

- أتعني أنها لم تكن مجرد متطفلة فضولية؟

- نعم، أظن أن دافعاً ما يقف خلف ذلك، وربما كان هذا هو المكان الذي يأتي فيه دور المال.

- المال؟ وما علاقة المال بهذا الأمر؟ إنها غنية تماماً، أليس كذلك؟

- لديها ما يكفي عيشتها، نعم. ولكن يبدو أن ابنها بالتبني (الذي تعتبره ظاهرياً وكأنه ابنها الحقيقي) يعلم أنه مُتبنّى، رغم أنه لا يعلم شيئاً عن الأسرة التي جاء منها. ويبدو أنه قد قام بكتابة وصية عندما بلغ سن الرشد، وربما كان مدفوعاً إلى ذلك بإلحاح من والدته بالتبني. وربما يكون قد تلقى تلميحاً يشجعه على ذلك من أحد أصدقائها أو من محام عمدت إلى استشارته. وعلى أية حال، فلعله -عندما بلغ رشده- شعر بأن من الأفضل أن يترك لها

كل ما يملك، أي لأمه بالتبني. وربما لم يكن لديه في ذلك الحين أحد آخر يترك ماله له.

- ولماذا يؤدي ذلك إلى طلب معلومات حول انتحار.

- ألا ترين؟ لقد أرادت أن تثنيه عن الزواج. فإن كانت لديزموند الشاب صديقة، وإن كان يخطط للزواج بها في المستقبل القريب (وهو ما يفعله الكثير من الشباب اليوم إذ لا يريدون التريث للتفكير) ففي تلك الحالة لن ترث السيدة بيرتن-كوكس ما يتركه من مال، إذ أن الزواج سيلغي أية وصية سبقته، والمفروض أنه -إذا ما تزوج هذه الفتاة- سيقوم بوضع وصية جديدة يترك لها فيها كل شيء، وليس لأمه بالتبني.

- وأنت تعني أن السيدة بيرتن-كوكس لا تريد ذلك؟

- لقد أرادت أن تجد شيئاً من شأنه أن يثني الشاب عن الزواج بالفتاة. وأظنها كانت تأمل -بل ربما اعتقدت أيضاً- بأن أم سيليا قتلت زوجها ثم أطلقت النار على نفسها بعد ذلك، وهذا من الأمور التي يمكن أن تثني فتى عن قصده. وحتى لو كان أبوها قد قتل أمها تبقى الفكرة مثبطة للعزم. ويمكن لها أن تثير تحيز فتى من هذا العمر وتؤثر عليه.

- أتعني أنه سيفكر أنه إن كان أحد أبويها قاتلاً فسيخشى أن تكون لدى الفتاة ميول إجرامية؟

- ليس بهذا الشكل الواضح الفج، ولكن قد تكون هذه هي الفكرة العامة كما أرى.

- ولكنه لم يكن غنياً، أليس كذلك؟ مجرد طفل مُتبنّى.

- لم يكن يعرف اسم أمه الحقيقية أو هويتها، ولكن يبدو أن أمه (التي كانت ممثلة ومغنية، وتمكنت من جمع الكثير من المال قبل أن تمرض وتموت) قد أرادت ذات يوم أن تستعيد ابنها، وحين رفضت السيدة بيرتن-كوكس ذلك يُخيّل إلي أنها أخذت تفكر كثيراً بهذا الفتى وقررت أن تترك له كل ما تملك. سوف يرث هذه الأموال عندما يبلغ الخامسة والعشرين، والأموال محفوظة في صندوق ائتمان حتى ذلك الحين. ولذلك لا تريد السيدة بيرتن-كوكس له طبعاً أن يتزوج، أو تريد له أن يتزوج فقط فتاة توافق هي عليها أو يمكن أن يكون لها نفوذ وتأثير عليها.

- نعم، يبدو هذا معقولاً جداً. وهي ليست بالمرأة اللطيفة، أليس كذلك؟

- بلى، أنا لا أراها امرأة بالغة اللطف.

- ولهذا لم ترد لكَ أن تأتي لرؤيتها ولتدس أنفك في أمورها وتكتشفَ ما تنوي فعله.

- ربما.

- وهل من شيء آخر علمته؟

- نعم، لقد علمتُ (منذ ساعات فقط عندما اتصل بي كبير المفتشين غاروي -صدفةً- بشأن قضايا صغيرة أخرى) أن مدبرة المنزل (وكانت امرأة عجوزاً) كانت ذات نظر ضعيف جداً.

- وهل لذلك أية علاقة بالموضوع؟

- ربما كانت له علاقة.

ثم نظر إلى ساعته وقال: أظن أن وقت مغادرتي قد حان.

- أأنت ذاهب للحاق بطائرتك في المطار؟

- لا، فطائرتي لا تغادر حتى صباح الغد. ولكن يوجد مكان عليّ أن أزوره اليوم... مكان أرغب برؤيته بعيني أنا. إن السيارة تنتظرني في الخارج الآن لتأخذني إليه.

سألت السيدة أوليفر ببعض الفضول: ما هذا الذي تريد رؤيته؟

- لا أريد رؤيته بقدر ما أريد الشعور به. نعم، هذه هي الكلمة الصحيحة... أن أشعر ثم أدرك ما الذي سيكون عليه شعوري.

* * *

الفصل الثامن عشر

استراحة

عبر هيركيول بوارو بوابة المقبرة، ثم مشى في أحد الممرات، وسرعان ما توقف أمام جدار تغطيه الطحالب وأخذ ينظر إلى أحد القبور. وقف هناك لبضع دقائق ينظر أولاً إلى القبر، ثم إلى منظر المنحدر والبحر من ورائه، ثم عادت عيناه ثانية. كانت زهور قد وُضعت مؤخراً على القبر؛ باقة صغيرة من الأزهار البرية المنسقة، من تلك الباقات التي يُتوقع من طفل أن يضعها، ولكن بوارو لم يرَ أن مَن ترك هذه الباقة كان طفلاً. قرأ العبارة على شاهدة القبر:

إلى ذكرى

دوروثي جارو

توفيت في الخامس عشر من أيلول ١٩٦٠

وأيضاً ذكرى

مارغريت رافنزكروفت

توفيت في الثالث من تشرين الأول ١٩٦٠

شقيقة المذكورة أعلاه

وأيضاً ذكرى

أليستير رافنزكروفت

توفي في الثالث من تشرين الأول ١٩٦٠

زوجها

في موتهم لم ينفصلوا

وقف بوارو هناك للحظات، أومأ برأسه مرة أو مرتين، ثم غادر المقبرة ومشى في طريق ترابي يؤدي خارجاً إلى المنحدر الصخري ويحاذيه. وسرعان ما وقف ساكناً مرة أخرى وهو ينظر إلى البحر. ثم تحدث مع نفسه: أنا واثق أنني أعرف الآن ما الذي حدث ولماذا. إنني أفهم ما ينطوي عليه الأمر من شفقة ومأساة. على المرء أن يعود ليوغل كثيراً في الماضي. في نهايتي تكمن بدايتي، أم ترى أن على المرء أن يقول ذلك بشكل مختلف؟ «في بدايتي كانت نهايتي المأساوية»؟ لا بد أن الفتاة السويسرية كانت تعرف... ولكن هل ستخبرني؟ يعتقد الفتى أنها ستخبرني. من أجل مصلحتهما؛ مصلحة الفتاة والفتى. لا يمكن لهما أن يتقبلا الحياة ما لم يعرفا.

* * *

الفصل التاسع عشر

مادي وزيلي

قال هيركيول بوارو: "آنسة روزيل؟"، ثم انحنى لها.

مدت الآنسة روزيل يدها للمصافحة، ورأى بوارو أنها في نحو الخمسين من عمرها. امرأة جليلة تماماً، من شأنها أن تمضي لما تريد. أحس أنها ذكية، مثقفة، راضية عن الحياة كما عاشتها؛ مستمتعة بحلوها مُعانيةً من مُرِّها.

قالت: لقد سمعت باسمك. إن لديك أصدقاء هنا في هذا البلد وفي فرنسا. لا أدري بالضبط بماذا يمكنني أن أخدمك. آه، أعرف أنك شرحت طلبك في الرسالة التي أرسلتها إلي... قضية من الماضي، أليس كذلك؟ أمور حدثت... ليست قضية أمور حدثت بالضبط، بل الدليل الذي يقود إلى أمور حدثت قبل أعوام طويلة طويلة. ولكن اجلس. نعم، نعم. أرجو أن يكون ذلك الكرسي مريحاً تماماً. هنا بعض الكعك والشراب.

كانت مضيافة بهدوء ودون أي إلحاح، ولم تكن قلقة بل

ودودة. قال بوارو: لقد كنتِ -ذات يوم- مربية لدى عائلة معينة... عائلة بريستُن غري. ربما كنت لا تذكرينهم الآن.

- آه، بلى، المرء لا ينسى الأمور التي حدثت وقت الشباب. كانت لدى العائلة فتاة، وصبي يصغرها بأربع سنوات أو خمس، وقد كانا طفلين لطيفين. كان أبوهما جنرالاً في الجيش.

- كانت معهم أيضاً شقيقة أخرى.

- آه، نعم، أذكر ذلك. لم تكن هناك عندما التحقت بالعائلة بدايةً. لم تكن بصحة جيدة، وكانت تتلقى علاجاً في مكان ما.

- هل تذكرين أسماءهم الأولى؟

- أظن أن إحداهما كانت تُدعى مارغريت، أما الأخرى فلستُ واثقة من اسمها الآن.

- دوروثي.

- آه، نعم، وهو اسم لم يصادفني كثيراً. ولكنهما كانتا تُطلقان كل على الأخرى أسماء مختصرة أقصر من هذه... مولي ودولي. كانتا توأمين متطابقتين ومتشابهتين إلى أبعد الحدود، وكانتا -كلتاهما- شابتين جميلتين.

- وهل كانتا متحابتين كثيراً؟

- نعم، كانتا مخلصتين متحابتين. ولكن أظن أننا نخلط قليلاً بين الأمور، أليس كذلك؟ إن اسم بريستُن غري ليس اسم الطفلين

اللذين ذهبتُ لتدريسهما. لقد تزوجت دوروثي بريستُن-غري الميجر... آه، لا أستطيع تذكر اسمه الآن. آرو؟ كلا، بل جارو. أما اسم زوج مارغريت فقد كان...

- رافنزكروفت.

- آه، ذاك هو، نعم. غريب كيف لا يستطيع المرء تذكّر الأسماء! كانت مارغريت بريستُن-غري في نزل في هذه المنطقة، وعندما كتبت -بعد زواجها- إلى السيدة بينوا، مديرة ذلك النزل، تسألها إن كانت تعرف فتاة يمكن أن تذهب إليها لتكون مربية ومدرسة لطفليها رشّحتني السيدة بينوا لذلك. هذه هي قصة ذهابي إلى هناك. إنني أتحدث عن الشقيقة الأخرى لأنها صدف أن كانت تقيم هناك خلال جزء من مدة خدمتي مع الطفلين؛ الفتاة والصبي. كانت الفتاة في السادسة أو السابعة من عمرها، وكان لها اسم مأخوذ من مسرحيات شيكسبير، أظنه روزالين أو سيليا.

- بل سيليا.

- وكان الصبي في نحو الثالثة أو الرابعة من عمره، وكان اسمه إدوارد. كان مشاكساً ولكنه محبوب، وكنتُ سعيدة معهما.

- وقد سمعتُ أنهما كانا سعيدين معك أيضاً. كانا يستمتعان باللعب معك، وكنتِ أنت لطيفة جداً في لعبك معهما.

- يا إلهي، يا للأطفال!

- أظن أنهما أسمياك «مادي».

ضحكت وقالت: آه، أحب سماع هذه الكلمة؛ فهي تعيد لي ذكريات الماضي.

- أكنتِ تعرفين صبياً اسمه ديزموند؟ ديزموند بيرتن-كوكس؟

- آه، نعم. أظن أنه كان يعيش في بيت مجاور. كان لنا العديد من الجيران، وغالباً ما كان الأطفال يأتون للعب معاً. كان اسمه ديزموند. نعم، أذكر ذلك.

- هل بقيتِ هناك طويلاً يا آنستي؟

- لا. لم أبقَ سوى لثلاث أو أربع سنوات على أبعد تقدير، ثم تم استدعائي إلى هذا البلد. كانت أمي مريضة جداً، وكنت مضطرة للعودة لتمريضها، رغم أنني عرفت أن ذلك قد لا يدوم طويلاً. وكان ذلك صحيحاً؛ فقد توفيت بعد عام ونصف أو عامين من عودتي إلى هنا. بعد ذلك أنشأتُ نزلاً صغيراً هنا أستقبل فيه فتيات ذوات أعمار متقدمة نسبياً ممن يرغبن بتعلم اللغات. ولم أزُر إنكلترا بعد ذلك، رغم أنني أدمتُ اتصالي مع البلد لعام أو عامين. وقد اعتاد الطفلان أن يرسلا لي بطاقة معايدة في أعياد الميلاد.

- هل رأيت في الجنرال رافنزكروفت وزوجته زوجين سعيدين؟

- بل سعيدين جداً... وكانا مُغرمين بطفليهما.

- أكانا مناسبين تماماً كل للآخر؟

- نعم، ولقد بدا لي أن لديهما كل الخصائص الضرورية التي يمكن أن تجعل زواجهما ناجحاً.

- لقد قلتِ إن الليدي رافنزكروفت كانت محبة لشقيقتها التوأم. أكانت الشقيقةُ محبةً لها أيضاً؟

- حسناً، لم تسنح لي مناسبة كافية للحكم على ذلك. وبصراحة فقد رأيتُ أن تلك الشقيقة -دولي، كما كانوا يسمونها- كانت بكل تأكيد حالة مرضية عقلية؛ فقد تصرفت مرة أو مرتين بشكل غريب جداً. أظنها كانت امرأة غيورة، وقد فهمتُ أنها ظنت في وقت ما أنها مخطوبة (أو أنها ستصبح مخطوبة...) للجنرال رافنزكروفت. وحسبما سمعت، فإنه كان قد وقع في حبها بداية، ولكن عواطفه تحولت فيما بعد باتجاه أختها، الأمر الذي رأيتُ أنه لحسن حظه، لأن مولي رافنزكروفت كانت امرأة متزنة رائعة جداً. أما بالنسبة لدولي فقد رأيتُ أحياناً أنها تحب اختها حباً يكاد يقترب من العبادة، ورأيتُ أحياناً أنها تكرهها. كانت امرأة غيورة جداً، وقد قرَرَتْ أن الأطفال يتلقون قدراً مبالغاً به من الحب. أعرف فتاة يمكنها أن تخبرك عن كل هذا أفضل مني؛ الآنسة موهورات. إنها تعيش في لوزان، وقد ذهبت إلى عائلة رافنزكروفت بعد نحو عام أو عامين من اضطراري لتركهم ومكثت عندهم بضع سنوات. وأظن أنها عادت لاحقاً لتصبح مرافقةً للّيدي رافنزكروفت عندما كانت سيليا في المدرسة خارج البلاد.

- سوف أراها، فلدي عنوانها.

- إنها تعرف الكثير مما لا أعرفه، وهي إنسانة رائعة وموثوقة. لقد كانت تلك المأساة التي حدثت لاحقاً رهيبة، وإن كان أحدٌ يعرف

شيئاً عن الظروف التي أدت إليها فهي الآنسة موهورات. إنها كتومة جداً؛ وهي لم تخبرني أبداً بأي شيء، ولا أدري إن كانت ستخبرك. ربما أخبرتك وربما امتنعت عن ذلك.

* * *

وقف هيركيول بوارو -للحظات- ينظر إلى الآنسة موهورات. كان قد انبهر بالآنسة روزيل، كما انبهر الآن بالمرأة التي تستعد لاستقباله. لم تكن على ذلك القدر من صعوبة المراس، ورأى أنها كانت أصغر بكثير، بعشر سنوات على الأقل، من الآنسة روزيل، وكانت تبعث الانبهار بطريقة مختلفة. امرأة ذات حيوية وجمال وعينين تراقبانك وتصوغان حكمهما الخاص عنك... تستعدان للترحيب بك، وتنظران بلطف إلى من يأتي في طريقهما، ولكن دون رقة زائدة لا داعي لها. ورأى بوارو أنه أمام شخصية فذة متميزة.

- أنا هيركيول بوارو يا آنستي.

- أعرف، كنتُ أنتظر قدومك اليوم أو غداً.

- آه، لقد تلقيت رسالتي إذن؟

- لا، لا شك أنها ما تزال في البريد؛ إن بريدنا متلكئ قليلاً. كلا، بل تلقيت رسالة من شخص آخر.

- من سيليا رافنزكروفت؟

- لا؛ بل كانت رسالة كتبها شخص مقرب جداً من سيليا. فتى

أو شاب (كما يحلو لك أن تعتبره) يدعى ديزموند بيرتن-كوكس. وقد جعلني أتهيأ لحضورك.

- آه، فهمت. أظنه ذكياً ولا يضيع وقتاً؛ لقد كان يلح كثيراً على أن آتي وأراك.

- هذا ما فهمتُه. فهمتُ أن لديه مشكلة؛ مشكلة يريد حلها، وهكذا تريد سيليا. وهل يظنان أن بوسعك مساعدتهما؟

- نعم، ويظنان أن بوسعك أنت مساعدتي.

- إنهما متحابان ويرغبان بالزواج؟

- نعم، ولكن في طريقهما مشكلات.

- آه، وأحسب أنها توضع من قبل والدة ديزموند. هذا ما أفهمني إياه.

- في حياة سيليا ظروف، أو كانت في حياتها ظروف جعلت والدة الشاب تنحاز ضد زواجه المبكر بهذه الفتاة تحديداً.

- آه. بسبب المأساة! كانت مأساة بالفعل.

- نعم، بسبب المأساة. إن لسيليا أماً بالمعمودية توجهت إليها والدة ديزموند طالبة منها أن تحاول الحصول من سيليا على التفصيلات الدقيقة التي حدث فيها ذلك الانتحار.

- ما من معنى في ذلك.

ثم أشارت الآنسة موهورات بيدها وقالت: تفضل بالجلوس أرجوك، أظن أننا سنضطر للحديث لبعض الوقت. نعم، لا تستطيع سيليا إخبار أمها بالمعمودية، وهي السيدة أريادني أوليفر، الكاتبة الروائية، أليس كذلك؟ نعم، إنني أذكر ذلك. لا يمكن لسيليا أن تعطيها المعلومات لأنها هي نفسها لا تمتلكها.

- لم تكن هناك عندما حدثت المأساة، ولم يخبرها أحد شيئاً عنها، أليس هذا صحيحاً؟

- بلى، هذا صحيح. فقد ظُنّ وقتها أن ذلك غير محمود.

- آه. وهل تتفقين مع هذا الرأي أم تعارضينه؟

- من الصعب أن يجزم المرء، بل من الصعب جداً. لم أستطع التأكد من هذا الأمر خلال السنوات التي مرت منذ ذلك الحين، وهي سنوات طويلة جداً. وبقدر ما أعرفه فإن سيليا لم تشعر بأي قلق إطلاقاً. أعني أنها لم تقلق إزاء الأسباب والدوافع. لقد تقبلت الأمر كما لو كان من شأنها أن تتقبل حادث طائرة أو سيارة. حدثٌ أدى لوفاة والديها. لقد أمضت سنوات طويلة في نُزُلٍ في الخارج.

- أظن أنك أنت التي كنتِ تديرين ذلك النزل يا آنسة موهورات.

- هذا صحيح تماماً. لقد تقاعدتُ مؤخراً فقط. إن زميلة لي تتولى النُزل الآن. ولكن سيليا أُرسِلت إليّ وطُلب مني أن أجد لها مكاناً جيداً تكمل فيه تعليمها، كما تأتي الكثير من الفتيات إلى

سويسرا لهذا الغرض. وقد كان بوسعي أن أُزكي لها عدة أماكن، ولكني أخذتها وقتها إلى نُزلي أنا.

- ألم تسألك سيليا شيئاً، ألم تطلب معلومات؟

- لم تفعل، فقد كان ذلك قبل وقوع المأساة.

- آه! لم أكن أعرف ذلك.

- لقد جاءت سيليا إلى هنا قبل بضعة أسابيع من حدوث المأساة. ولم أكن هنا شخصياً؛ إذ كنت باقية مع الجنرال والليدي رافنزكروفت. كنت أعتني بالليدي رافنزكروفت، وأعمل مرافقةً لها أكثر من عملي مربيةً لسيليا التي كانت ما زالت وقتها في مدرسة داخلية. ولكن تم فجأة الترتيب لمجيء سيليا إلى سويسرا لإنهاء تعليمها هناك.

- وكانت الليدي رافنزكروفت في حالة صحية سيئة، أليس كذلك؟

- بلى. لم يكن لديها شيء خطير. ليس بالخطورة التي خشيتها هي في يوم من الأيام. ولكنها كانت قد عانت كثيراً من الضغط العصبي والصدمة والقلق العام.

- وهل بقيتِ معها؟

- قامت أختٌ لي -تعيش في لوزان- باستقبال سيليا لدى وصولها وسجلتها في المؤسسة التعليمية التي لم تكن تحتوي إلاّ

نحواً من خمس عشرة فتاة أو ست عشرة، بحيث تبدأ دراستها وتنتظرني. وقد عدتُ بعد نحو ثلاثة أسابيع أو أربعة.

- إذن أنت كنتِ في أوفركليف عندما حدثت المأساة.

- نعم، كنتُ في أوفركليف. وقد خرج الجنرال رافنزكروفت في نزهة مع زوجته، كما كانت عادتهما. خرجا ولم يعودا، وقد عُثر عليهما ميتين، بطلقات رصاص. وقد عُثر على السلاح مُلقى هناك قربهما، وكان مسدساً يعود للجنرال رافنزكروفت يحتفظ به دوماً في أحد أدراج غرفة مكتبه. وكانت بصمات أصابع الاثنين موجودة على السلاح، بلا أية إشارة محددة تشير إلى مَنْ منهما كان آخر من أمسك به. كانت بصمات الاثنين عليه وقد لُطِّخت قليلاً، وكان الاحتمال الواضح هو أن العملية انتحار مزدوج.

- ألم تجدي سبباً للشك في ذلك؟

- لم يجد الشرطة سبباً، ولذلك صدّقتُ ذلك.

-آه!

- عفواً، ماذا تعني بهذه الآه؟

- لا شيء، لا شيء... مجرد شيء فكرتُ فيه.

نظر بوارو إليها: شعرٌ بني لم يكد الشيب يلمسه، وشفتان مُطبقتان بإحكام، وعينان رماديتان، ووجه لا يُظهر أية عاطفة. كانت مسيطرة على نفسها كلياً.

- إذن فأنت لا تستطيعين إخباري بأي شيء آخر؟

- أخشى أنني لا أستطيع. لقد كان ذلك منذ زمن بعيد.

- أنت تتذكرين ذلك الزمن جيداً.

- نعم. لا يمكن للمرء أن ينسى كلياً مثل هذا الأمر المحزن.

- وهل وافقتِ على أن سيليا يجب ألاّ تُبلّغ بالمزيد عن الأمور التي أدت لهذا الأمر؟

- ألم أخبرك لتوي بعدم وجود معلومات أخرى لدي؟

- لقد كنتِ هناك، تعيشين في أوفركليف، لفترة من الوقت قبل المأساة، أليس كذلك؟ لفترة أربعة أسابيع أو خمسة... وربما ستة أسابيع.

- بل أطول من ذلك في الواقع. ومع أنني كنتُ مربية لسيليا في وقت سابق، إلاّ أنني عدت في تلك المرة -بعد ذهابها إلى المدرسة- لمساعدة الليدي رافنزكروفت.

- وكانت شقيقة الليدي رافنزكروفت تعيش معها أيضاً في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

- بلى؛ فقد كانت في مستشفى تتلقى علاجاً خاصاً لبعض الوقت. وكانت قد أظهرت الكثير من التحسن بشكل شعرت معه السلطات (أعني السلطات الصحية) أن من الأفضل لها أن تعيش حياة طبيعية مع أقاربها في بيئة منزلية. وبما أن سيليا كانت قد ذهبت

إلى المدرسة، فقد بدا للّيدي رافنزكروفت أن الوقت مناسب لدعوة أختها لتكون معها.

- أكانت الشقيقتان متحابّتَين؟

- كان من الصعب معرفة ذلك.

قطبت الآنسة موهورات حاجبيها، وكأن ما قاله بوارو لتوه قد أثار اهتمامها، ثم قالت: لقد تساءلتُ... تساءلتُ كثيراً منذ ذلك الحين، وتساءلت وقتها حقاً. فقدكانتا توأمين متطابقين كما تعلم. كان بينهما رباط، رباط من الاعتماد المتبادل بعضهما على بعض ومن الحب، وكانتا متشابهتين كثيراً في العديد من الأمور. ولكن كانت توجد أيضاً أمور تختلفان فيها.

- ماذا تعنين؟ أود كثيراً لو أعرف ماذا تعنين بذلك.

- آه، ليس لهذا أية علاقة بالمأساة، فلا يوجد شيء من هذا القبيل. ولكن كان يوجد... سأقول إنه كان يوجد خلل جسمي أو عقلي محدد... اعتبره كما تريد... إن بعض الناس اليوم يؤمنون بنظرية تقول بوجود سبب جسدي معين لأي نوع من العلل العقلية. وأعتقد أن مما يلقى اعترافاً كبيراً لدى الأوساط الطبية أن التوائم المتطابقة تولد وفقاً لنمطين، أولهما يمتاز بوجود رباط عظيم بينهما، تشابه عظيم في شخصيتيهما يكون معناه أنهما -رغم انفصالهما في البيئة وفي التربية- ستحدث لهما نفس الأمور في نفس الوقت من حياتهما، وسيتخذان نفس الميول، وتبدو بعض الحالات التي يستشهد بها الطب غريبة تماماً. شقيقتان توأمان، تعيش إحداهما في فرنسا مثلاً،

وتعيش الأخرى في إنكلترا، يكون لكل منهما كلب من نفس النوع اختارتاه في نفس التاريخ تقريباً. وتتزوجان رجلين متشابهين إلى أبعد الحدود. وربما أنجبتا أطفالاً في نفس الشهر تقريباً. يكون ذلك أشبه باتباعهما لنمط معين أينما كانتا، ودون أن تعرف إحداهما ما الذي تفعله الأخرى. ويوجد النمط الآخر المناقض لذلك.. حيث يوجد نوع من النفور يكاد يبلغ الكراهية، مما يجعل الأخت تبتعد عن أختها، أو تجعل الأخ يرفض أخاه كما لو كانا يسعيان للتخلص من التشابه، ومن التماثل، والمعرفة، والأشياء الأخرى التي يشتركان بها. وقد يقود ذلك إلى نتائج غريبة جداً.

- أعرف، لقد سمعتُ بمثل ذلك، وقد رأيت ذلك مرة أو مرتين. يمكن للحب أن يتحول إلى كراهية بكل سهولة. من الأسهل أن تكره من تحبهم من أن تبقى لا مبالياً تجاههم.

- آه، أنت تعرف ذلك.

- نعم، لقد رأيتُ ذلك، ليس مرة واحدة بل مرات عدة. أكانت شقيقة الليدي رافنزكروفت تشبهها كثيراً؟

- أظن أنها كانت ما زالت تشبهها كثيراً في المظهر، رغم أن التعابير على وجهها كانت تختلف كثيراً إذا صح التعبير. كانت في حالة من الضغط النفسي الذي لم تشهده الليدي رافنزكروفت. وكان لديها مقت شديد للأطفال. لا أدري لماذا. ربما تعرضت لإسقاط حملٍ لها في حياتها المبكرة. وربما كانت تتوق لطفل ولم تُرزق به... المهم، كان لديها نوع من السخط تجاه الأطفال، من الكراهية لهم.

- وقد قاد ذلك إلى حدث أو حدثين خطيرين بعض الشيء، أليس كذلك؟

- هل أخبرك أحد بذلك؟

- لقد سمعتُ أشياء من أشخاص عرفوا كلا الأختين عندما كانتا في الملايو. كانت الليدي رافنزكروفت هناك مع زوجها، وجاءت أختها دولي لتقيم معهما. وقد وقع حادث لطفل هناك، وظُنّ أن دولي ربما كانت مسؤولة جزئياً عنه. لم يثبت شيء على وجه اليقين، ولكني فهمتُ أن زوج مولي أعاد شقيقة زوجته إلى إنكلترا، واضطرت لدخول مصحة عقلية من جديد.

- نعم، أظن أن هذا سرد جيد جداً لما وقع. أنا -طبعاً- لا أعرف ذلك معرفة شخصية.

- نعم، ولكن توجد أمور أظنك تعرفينها معرفة شخصية.

- إن كان الأمر كذلك فإنني لا أرى سبباً لاسترجاعها الآن. أليس من الأفضل ترك الأمور حيث تم تقبلها على الأقل؟

- كان يمكن أن تحدث أمور أخرى في أوفركليف في ذلك اليوم. كان يمكن أن يكون ذلك انتحاراً مزدوجاً، وكان يمكن أن يكون جريمة قتل، كما كان يمكن أن يكون أشياء أخرى عديدة. أظن -من جملةٍ صغيرة قلتِها لتوك- أنك تعرفين ما حدث في ذلك اليوم، وأظن أنك تعرفين ما حدث... أو لنقل ما بدأ يحدث... قبل ذلك بوقتٍ ما. الوقت الذي ذهبت فيه سيليا إلى سويسرا وكنتِ أنت ما تزالين في أوفركليف. سوف أسألك سؤالاً واحداً أودُّ أن أعرف

ماذا سيكون جوابك عنه، وهو ليس شيئاً يتعلق بمعلومات مباشرة، بل هو سؤال عما تعتقدينه: ماذا كانت مشاعر الجنرال رافنزكروفت تجاه هاتين الشقيقتين التوأمين؟

- أعرف ما تعنيه.

ولأول مرة تغير سلوكها قليلاً. لم تعد محترسة يقظة، مالت إلى الأمام وتحدثت إلى بوارو وكأنها قد وجدت ارتياحاً مؤكداً في القيام بذلك. قالت: كانت الأختان كلتاهما جميلتين في صباهما... لقد سمعتُ ذلك من كثير من الناس. وقد وقع الجنرال رافنزكروفت في حب دولي، الشقيقة المضطربة عقلياً. ورغم أنها كانت ذات شخصية مضطربة إلاّ أنها كانت شديدة الجاذبية... وقد أحبها حباً جماً، وبعدها... لا أدري إن كان قد اكتشف فيها خصلة ما، أو ربما شيئاً أثار خوفه. ربما رأى لديها بدايات الجنون ورأى المخاطر التي ترتبط بها. انتقلت عواطفه إلى أختها.. أحب الأخت وتزوجها.

- تعنين بذلك أنه أحب كلا الأختين. ليس في وقت واحد، ولكن كان في كل حالة حقيقة حب صادق.

- آه، نعم، لقد كان مُحباً لمولي، وكان يعتمد عليها كما تعتمد عليه. كان رجلاً محبوباً جداً.

- اعذريني، ولكن أظن أنك أنت أيضاً كنتِ تحبينه.

- كيف... كيف تجرؤ على قول ذلك لي؟

- نعم، أجرؤ على قوله لك. أنا لا أُلمِّح إلى وجود أية علاقة

غرامية كانت بينكما، لا شيء من ذلك. ولكني أقول فقط إنك أحببتِه.

قالت زيلي موهورات: نعم، أحببتُه. وما زلتُ أحبه، بمعنى من المعاني. ليس لديّ ما أخجل منه. لقد وثق بي واعتمد علي، ولكنه لم يبادلني الحب أبداً. إن بوسعك أن تحب وتخدم وتبقى سعيداً مع ذلك. أنا لم أطلب أكثر من الثقة والتعاطف والإيمان بإخلاصي...

- وقد فعلتِ ما بوسعك لمساعدته في أزمة رهيبة في حياته. لديك أشياء لا ترغبين بقولها لي. ولديّ أشياء سأقولها لك أنا، أشياء جمعتها من معلومات مختلفة تجمعت لدي، وعرفت بها. قبل أن آتي لرؤيتك سمعتُ من آخرين، من أناس لم تقتصر معرفتهم على الليدي رافنزكروفت، بل عرفوا أختها مولي أيضاً. وأنا أعرف شيئاً عن دولي، عن مأساة حياتها، عن الحزن، والتعاسة، وأيضاً عن الكراهية، وربما عرق الشر وحب التدمير الذي يمكن أن يُورّث في العائلات. إن كانت قد أحبت الرجل التي كانت خطيبته فلا بد أنها شعرت -إذ تزوج شقيقتها- بالكراهية لتلك الشقيقة، وربما لم تغفر لها أبداً في دخيلتها. ولكن ماذا عن مولي رافنزكروفت؟ أكانت تكره أختها وتمقتها؟

- آه، كلا. لقد أحبت أختها. لقد أحبتها حباً عميقاً فيه الكثير من الحدب والحماية. هذا ما أعرفه كحقيقة؛ فقد كانت هي التي تدعو أختها دوماً لتأتي وتقيم معها في البيت. لقد أرادت إنقاذ أختها من التعاسة، ومن الخطر أيضاً، لأن أختها كانت تنتكس غالباً فتصاب بنوبات من الغضب الخطير... وكانت تخاف أحياناً. أنت

تعرف حق المعرفة... لقد قلتَ أصلاً إن دولي كانت تُعاني من كره غريب للأطفال.

- أتعنين أنها كرهت سيليا؟

- كلا، كلا، ليس سيليا. بل الطفل الآخر، إدوارد؛ الطفل الأصغر. لقد تعرض إدوارد لمخاطر وقوع حادث له مرتين. إنني أعرف أن مولي قد سعدت عندما عاد إدوارد إلى المدرسة. تَذَكّرْ أنه كان صغيراً جداً، أصغر بكثير من سيليا. لم يكن يتعدى الثامنة أو التاسعة. كان من السهل إيذاؤه، وكانت مولي خائفة عليه.

- نعم، يمكنني أن أفهم ذلك. والآن، إذا سمحتِ لي فإنني سأتكلم عن الباروكات... عن ارتداء الباروكات. أربع باروكات! هذا عدد أكبر من أن تمتلكه امرأة واحدة في وقت واحد. أعرف كيف كانت تلك الباروكات، وكيف كانت أشكالها. وأعرف أنه -عندما استجدت حاجة للمزيد منها- ذهبت فتاة فرنسية إلى المحل في لندن وطلبت باروكات جديدة. وقد كان يوجد كلب أيضاً. كلب خرج في نزهة يوم المأساة مع الجنرال رافنزكروفت وزوجته. وفي وقت سابق من ذلك... في وقت قصير سابق... كان ذلك الكلب قد عضّ صاحبته، مولي رافنزكروفت.

- هذا هو دأب الكلاب؛ يجب ألاّ يوثق بها تماماً. نعم، أعرف ذلك.

- وسوف أخبرك بما أظن أنه قد حدث في ذلك اليوم، وما حدث قبل ذلك... قبل ذلك ببعض الوقت.

- وإذا رفضتُ الإصغاء إليك؟

- سوف تصغين إلي. يمكنك القول إن ما تخيلتُه كاذب أو زائف. نعم، يمكنك حتى الذهاب إلى هذا المدى، ولكن لا أظنك ستقولين ذلك. إنني أخبرك -وأنا أعتقد من كل قلبي- بأن ما نحتاجه هنا هو الحقيقة. وهذا ليس مجرد تخيل، ولا هو بتساؤل. يوجد فتى وفتاة يحب كل منهما الآخر، وهما خائفان من المستقبل بسبب ما قد يكون حدث في الماضي وما يمكن أن يكون الأب أو الأم قد أورثاه لابنتهما من خصال. أنا أتحدث عن سيليا؛ فتاة متمردة مفعمة بالحماسة، ربما كانت صعبة القياد، ولكنها ذات عقل راجح ذكي، قادر على السعادة وقادر على الشجاعة، ولكنه بحاجة إلى الحقيقة. يوجد أناس يحتاجون الحقيقة لأن بوسعهم مواجهة الحقيقة دون خوف ويأس، بوسعهم أن يواجهوها بذلك التقبلِ الشجاع الذي يجب على المرء أن يمتلكه في هذه الحياة إذا ما أُريدَ لهذه الحياة أن تكون ذات فائدة له. كما أن الفتى الذي تحبه يريد ذلك لها أيضاً. هل ستصغين إلي؟

- نعم، إنني مصغية. أظن أنك تفهم الكثير، وأظنك تعرف أكثر مما تخيلتُ أنك تعرف. تكلم وسوف تجدني مصغية.

* * *

الفصل العشرون

محكمة التحقيق

وقف هيركيول بوارو مرة أخرى على الجرف الصخري المُطلّ على الصخور تحته وأمواج البحر ترتطم بها. هنا، حيث وقف، كان قد عُثر على جثتي زوج وزوجته. وهنا، قبل ثلاثة أسابيع من تلك المأساة، مشت امرأة في نومها وسقطت لتلاقي حتفها.

«لماذا حدثت هذه الأمور؟». كان هذا سؤالاً طرحه كبير المفتشين غاروي.

«لماذا؟ ما الذي أدى إلى ذلك؟».

وقع في البداية حادث، وبعد ثلاثة أسابيع انتحار مزدوج. خطايا قديمة تركت ظلالاً طويلة، بداية قادت بعد ذلك بسنوات إلى نهاية مفجعة.

سيجتمع اليوم أشخاص هنا... فتى وفتاة أرادا معرفة الحقيقة، وشخصان عرفا الحقيقة.

استدار هيركيول بوارو ومضى مبتعداً عن البحر عائداً عبر طريق ترابي ضيق يؤدي إلى البيت الذي كان يُدعى يوماً أوفر كليف. لم يكن البيت بعيداً جداً، فقد رأى سيارات تصطف بمحاذاة الجدار. رأى الخطوط العامة للبيت تقف مُتخذة السماء خلفية لها. بيت بدا واضحاً أنه فارغ... وهناك عُلّقت لوحة لوكلاء البيت العقاريين تعلن أن «هذا البيت الجميل للبيع»، وعلى البوابة تم شطب اسم «أوفركليف» وكُتب مكانه اسم «داون هاوس». مضى لمقابلة شخصين كانا يمشيان نحوه؛ ديزموند بيرتن-كوكس وسيليا رافنزكروفت.

قال ديزموند: لقد حصلتُ على إذن من وكلاء البيت، وقلتُ إننا نريد معاينته. وقد أحضرتُ المفتاح خشية أن نريد الدخول إليه. لقد تغير مالكوه مرتين خلال السنوات الخمس الماضية، ولكن لن يكون فيه ما يمكن رؤيته الآن، أليس كذلك؟

قالت سيليا: لا أظن ذلك؛ فقد تعاقب عليه المالكون كثيراً. وكان أولهم عائلة تُدعى آرتشر، ثم امتلكه شخص أظن أن اسمه فالوفيلد. لقد قيل إنه موحش كثيراً. وها هم أصحابه الأخيرون هؤلاء يريدون بيعه... ربما كان مسكوناً!

سألها ديزموند: أتصدقين حقاً بالبيوت المسكونة؟

- ليس تماماً، ولكن ربما كان صحيحاً، أليس كذلك؟ أعني من الأمور التي تحدث ومن طبيعة المكان وغير ذلك...

قال بوارو: لا أظن ذلك. لقد كان هنا حزن، وموت، ولكن كان هنا أيضاً حب.

اقتربت سيارة أجرة على الطريق، فقالت سيليا: أظن أن هذه هي السيدة أوليفر. قالت إنها ستأتي بالقطار وتستقل سيارة أجرة من المحطة.

خرجت من السيارة امرأتان. إحداهما السيدة أوليفر، والثانية امرأة طويلة القامة أنيقة الملابس. وبما أن بوارو كان يعرف أنها ستأتي فإنه لم يُفاجَأ. راقب سيليا ليرى إن كان لها أية ردود أفعال. قالت وهي تقفز إلى الأمام: آه!

ثم مضت تجاه المرأة وقد تورد وجهها وقالت: زيلي! أنت زيلي؟ حقاً زيلي! آه، كم أنا سعيدة! لم أعرف أنك ستأتين.

- لقد طلب مني السيد بوارو الحضور.

- آه، فهمت. نعم، نعم، فهمت. ولكني... ولكني لم...

توقفت، ثم التفتت ونظرت إلى الفتى الوسيم الواقف قربها وقالت: ديزموند، أكنت... أكنتَ أنت مَن...؟

- نعم. أنا كتبتُ رسالة للآنسة موهورات... أو إلى زيلي إن كان بوسعي تسميتها كذلك حتى الآن.

- يمكنكما دوماً مناداتي بهذا الاسم، أنتما الاثنين. لم أكن واثقة من رغبتي في الحضور، ولم أعرف إن كان من الحكمة أن آتي. وما زلت لا أعرف، ولكني آمل أن يكون في قدومي حكمة.

قالت سيليا: أريد أن أعرف، كلانا نريد أن نعرف. وقد رأى ديزموند أن بوسعك أن تخبرينا شيئاً.

- لقد جاء السيد بوارو لرؤيتي، وقد أقنعني بالقدوم اليوم.

عقدت سيليا ذراعها بذراع السيدة أوليفر وقالت لها: لقد أردت لك أن تأتي أنت لأنك أنت التي بدأتِ هذا الأمر، وأنت التي أقنعتِ السيد بوارو، وأنت التي اكتشفتِ بعض الأشياء بنفسك، أليس كذلك؟

أجابتها السيدة أوليفر قائلة: لقد أخبرني بعض الأشخاص بأشياء... أشخاص ممن ظننتُ أنهم قد يتذكرون الأمور. وقد تذكر بعضهم الأمور. بعضهم تذكرها بالشكل الصحيح، وبعضهم الآخر تذكرها بشكل خاطئ. وكان ذلك مُربكاً. ولكن السيد بوارو يقول إن ذلك لا يهم حقاً.

قال بوارو: نعم، لأن على نفس الدرجة من الأهمية أن نعرف ما يدخل في باب الشائعات والأقاويل وما يدخل في باب المعرفة المعينة. فمن الأول يمكنك أن تعرفي الحقائق حتى وإن لم تكن الحقائق الصحيحة تماماً، أو لم تحصلي على التفسير الذي تظنين أنها تنطوي عليه. ومن المعرفة التي حصلتِ عليها مني يا سيدتي، ومن الناس الذين أسميتِهم أفيالاً...

ثم ابتسم قليلاً، فسألت الآنسة زيلي: أفيال!

قال بوارو: هذا هو الاسم الذي أطلقته عليهم.

شرحت السيدة أوليفر قائلة: بمقدور الأفيال أن تتذكر. كانت هذه هي الفكرة التي بدأتُ بها. ويمكن للناس أن يتذكروا أشياء حصلت منذ أمد بعيد، تماماً كما تستطيع الأفيال. ليس كل الناس

بالطبع، ولكنهم يستطيعون -عادة- تذكر شيء ما. وقد لقيت كثيراً ممّن تذكروا، ونقلتُ الكثير مما سمعتُه إلى السيد بوارو، وقام هو... قام هو بشيء أحسبه أقرب إلى التشخيص الطبي.

قال بوارو: لقد أعددتُ قائمة بالأشياء التي بدا أنها مؤشرات إلى حقيقة ما حدث قبل كل هذه السنين. وسوف أقرأ عليكم البنود المختلفة لأرى إن كنتم (أنتم الذين كنتم معنيين بكل هذا الأمر) تشعرون بأن لها أية أهمية. قد ترون أهمية تلك المؤشرات بوضوح، وقد لا ترونها.

قالت سيليا: يريد المرء أن يعرف إن كان ذلك انتحاراً أم جريمة قتل؟ هل قام أحد... شخص خارجي ما... بقتل أبي وأمي بإطلاق النار عليهما لسبب أو لدافع لا نعرفه. رأيت دوماً أن الأمر كان شيئاً من هذا القبيل، أو شيئاً غير ذلك. الأمر صعب ولكن...

قال بوارو: أظن أننا سنبقى هنا ولن ندخل البيت؛ فقد عاش فيه أناس آخرون وله الآن جوٌّ مختلف. ولعلنا ندخل إليه إذا رغبنا بذلك بعد أن ننتهي من محكمة تحقيقنا هنا.

سأل ديزموند: أهي محكمة تحقيق إذن؟

- نعم؛ محكمة تحقيق فيما حدث.

قال بوارو ذلك ثم تحرك باتجاه بعض المقاعد الحديدية التي نُصبت تحت ظل شجرة ماغنوليا ضخمة قرب البيت. أخرج من الحقيبة التي يحملها ورقة عليها كتابة، ثم قال لسيليا: أيتعين

أن يكون الأمر - بالنسبة لك - على هذا النحو؟ خياراً محدداً، إما انتحاراً أو جريمة قتل.

- يجب أن يكون أحدهما صحيحاً.

- سأقول لك إن كليهما كان صحيحاً، بل وأكثر من هذين الخيارين. فوفقاً لأفكاري، فإن المتوفر لدينا هنا ليس جريمة قتل وانتحاراً فحسب، بل إن لدينا أيضاً ما سأسميه إعداماً، ولدينا مأساة أيضاً. مأساة شخصين تحابّا وماتا من أجل الحب. إن فاجعة الحب قد لا ترتبط دوماً بروميو وجولييت، وليس من الضرورة أن يكون الشباب هم وحدهم من يعانون آلام الحب ويبدون استعداداً للموت من أجله. كلا، فالقضية أوسع من ذلك بكثير.

قالت سيليا: أنا لا أفهم.

- ليس بعد.

- وهل سأفهم؟

قال بوارو: أظن ذلك. سأقول لك ما أظن أنه حدث وسوف أخبرك كيف تسنى لي أن أفكر في ذلك. لقد كان أول ما استرعى انتباهي هو الأشياء التي لم تفسرها الأدلة التي درسها الشرطة. فقد كانت بعض الأشياء عادية جداً، لم تكن بمرتبة الأدلة أبداً. فمن ضمن أغراض المتوفاة مارغريت رافنزكروفت كانت هناك أربع باروكات.

ثم كرر الرقم مؤكداً: أربع باروكات!

ثم نظر إلى زيلي، فقالت: لم تكن تستخدم باروكة طوال الوقت، بل في أوقات متباعدة فقط. إن كانت ستسافر أو كانت قد خرجت ففسد ترتيب شعرها تماماً وأرادت ترتيب وضعها على عجل، أو كان من شأنها أن تستعمل أحياناً باروكة مناسبة لملابس المساء.

قال بوارو: نعم. لقد كانت تلك هي الموضة السائدة في ذلك الوقت. كانت النساء يأخذن معهن باروكة أو اثنتين عندما يسافرن للخارج. ولكن كان في حوزتها أربع باروكات، ويبدو لي أن أربع باروكات عدد كبير. وقد تساءلتُ: "لماذا كانت بحاجة إلى أربع؟". ووفقاً لرجال الشرطة الذين سألتهم، فإنها لم تكن تشكو من أية عوارض للصلع، بل كان لها شعر طبيعي لمن هنّ في مثل عمرها، وكان شعرها بحالة جيدة. لذلك تساءلتُ عن تلك الباروكات، وقد علمتُ -لاحقاً- أن إحدى الباروكات كانت ذات خصلات رمادية، وكانت لإحدى الباروكات خصلات صغيرة ملفوفة، وكانت تلك الباروكة الأخيرة هي التي كانت تضعها يوم وفاتها.

سألته سيليا: هل لذلك أية أهمية؟ كان من الممكن أن تضع أية باروكة منهن.

- ربما. وقد علمتُ أيضاً أن مدبرة المنزل أخبرت الشرطة أنها كانت تضع تلك الباروكة بعينها طوال الوقت تقريباً في الأسابيع القليلة التي سبقت موتها، وبدا أنها كانت باروكتها المفضلة.

- لا أفهم لماذا...

- كما كان أمامي أيضاً القول الذي استشهد به كبير المفتشين غاروي أمامي... «نفس الرجل بقبعة مختلفة». وقد جعلني ذلك أفكر بشكل محموم.

كررت سيليا قائلة: لا أفهم كيف...

- وكان لديّ أيضاً دليل الكلب.

- الكلب... ما شأن الكلب؟

- لقد عضّها الكلب. قيل إن الكلب كان يحب صاحبته... ولكنه -في الأسابيع القليلة الأخيرة من حياتها- انقلب عليها أكثر من مرة وعضها بكل شدة.

قال ديزموند وهو يحدق ببوارو: أعلم الكلب أنها ستنتحر؟

- كلا، بل علم أمراً أبسط من ذلك بكثير.

- لا أفهم.

مضى بوارو قائلاً: كلا، لقد علم الكلب ما لم يعلمه أحد غيره فيما يبدو؛ علم أنها لم تكن صاحبته! لقد بدت مثل صاحبته، وقد رأت مدبرة المنزل (التي كانت نصف عمياء وضعيفة السمع) امرأة ترتدي ملابس مولي رافنزكروفت وتضع من باروكاتها تلك التي يسهل تمييزها كثيراً... ذات الخصلات الملفوفة التي تعلو الرأس كله. لم تقل مدبرة المنزل شيئاً باستثناء أن سيدتها كانت مختلفة قليلاً في سلوكها في الأسابيع القليلة التي سبقت موتها. لقد كانت عبارة غاروي تقول «نفس الرجل بقبعة مختلفة». وقد جاءتني الفكرة وقتها،

بل القناعة... «نفس الباروكة لامرأة مختلفة». وقد عرف الكلب... عرف مما أرشده أنفه إليه. عرف أنها امرأة مختلفة؛ ليست المرأة التي أحبها، بل امرأة كرهها وخافها. وفكرتُ قائلاً لنفسي: لنفترض أن تلك المرأة لم تكن مولي رافنزكروفت، فمَن عساها كانت؟ أيمكن أن تكون دولي... الشقيقة التوأم؟

قالت سيليا: ولكن ذلك مستحيل!

- كلا؛ لم يكن مستحيلاً. تذكري أنهما كانتا توأمين في نهاية الأمر. وينبغي أن آتي الآن إلى الأشياء التي لفتت السيدة أوليفر انتباهي إليها؛ الأشياء التي قالها لها الناس أو أشاروا لها: المعلومة التي أوحت بها الليدي رافنزكروفت والقائلة إن الليدي كانت قد دخلت المستشفى أو المصحة في وقت سابق وأنها ربما عرفت أنها تعاني من السرطان، أو تظن أنها تعاني منه... ولكن الشهادة الطبية كانت تناقض ذلك. ثم علمتُ -تدريجياً- بتاريخ حياتها المبكرة وتاريخ حياة أختها. الفتاتان تحابّتا بكل إخلاص (كما هي عادة التوائم) وفعلتا كل شيء بشكل متماثل؛ لبستا ثياباً متشابهة، وبدا أن نفس الأمور تحدث لهما، وتعرضتا إلى أمراض في نفس الوقت، وتزوجتا في وقت متقارب بعض الشيء... ولكنهما (كما يفعل الكثير من التوائم أيضاً) بدل أن ترغبا بفعل كل شيء على نحو متشابه وبنفس الطريقة، رغبتا بفعل عكس ذلك. رغبتا بعدم التشبه إحداهما بالأخرى قدر الإمكان، بل أن قدراً معيناً من النفور بدأ يظهر بينهما... والأنكى من هذا أنه كان لذلك سبب في الماضي؛ فقد وقع أليستير رافنزكروفت -وهو شاب- في حب دوروثي، التوأم الأكبر بين الشقيقتين. ولكن هذا الحب تحول إلى الأخت الأخرى، مارغريت، التي تزوجها.

ولا شك أن غيرة وقعت عندها وأدت إلى نفور بين الشقيقتين. وقد استمرت مارغريت بتعلقها العميق بأختها التوأم، ولكن دوروثي لم تعد متعلقة بأي شكل بمارغريت. وقد بدا لي في ذلك تفسير لكثير من الأمور. لقد كانت دوروثي شخصية تراجيدية، وكانت دوماً مضطربة عقلياً. ليس بسبب خطيئة منها هي، بل بسبب مصادفة في جيناتها أو خلل في خصائصها الوراثية. وفي وقت مبكر من حياتها كان لديها كره للأطفال، وذلك لسبب لم يتضح أبداً، ولدينا الكثير من الأسباب التي تؤكد أن أحد الأطفال قد لاقى حتفه بسبب تصرف منها. لم يكن الدليل على ذلك مؤكداً للأجهزة الأمنية، ولكنه كان مؤكداً بالنسبة إلى طبيب بحيث يوصي بضرورة تلقيها لعلاج عقلي. وقد عولجت لبضع سنوات في مصحة عقلية، وعندما ذكر الأطباء أنه شُفيت عادت لتستأنف حياتها العادية. وكانت تأتي كثيراً للإقامة مع أختها، وسافرت إلى الملايو في وقت كانت عائلة أختها مستقرة هناك وذلك لتلتحق بها، وهناك وقع حادث آخر من جديد لطفل من الجيران. ومرة أخرى، رغم عدم وجود دليل مؤكد تماماً، إلاّ أنه يبدو -ثانية- أن دوروثي ربما كانت مسؤولة عن هذا الحادث. وقد أعادها الجنرال رافنزكروفت إلى الوطن ووُضعت تحت الرعاية الطبية في إنكلترا من جديد. ومرة أخرى بدا أنها شُفيت، وبعد الرعاية النفسية قيل -مرة أخرى- إن بوسعها أن تخرج من جديد وتستأنف حياتها العادية. وقد صدّقت مارغريت -هذه المرة- أن كل شيء سيكون على ما يرام ورأت أن أختها ينبغي أن تعيش معها بحيث يمكنها أن تراقب عن كثب أية علامات لأي اضطراب عقلي آخر. لا أظن أن الجنرال رافنزكروفت قد وافق على ذلك، وأظنه امتلك قناعة قوية بأن لديها -كما يولد الإنسان مشوهاً أو معاقاً- نوعاً

من الخلل في الدماغ من شأنه أن يعود للظهور من وقت لآخر وأنها ينبغي أن تخضع لرقابة دائمة لإنقاذها من نفسها في حالة وقوع أية مأساة أخرى.

سأل ديزموند: أتعني أنها هي التي أطلقت النار على الزوجين رافنزكروفت؟

- كلا، ليس هذا تفسيري. أظن أن ما حدث هو أن دوروثي قتلت أختها مارغريت. لقد سارتا معاً على الجرف الصخري ذات يوم، وقامت دوروثي بدفع مارغريت من فوق. لقد كان ذلك الهوس الكامن من الكراهية والسخط تجاه أخت كانت -رغم شبهها بها- صحيحة العقل والجسم؛ كان كل ذلك أكبر من أن تتحمله. الكراهية، والغيرة، والرغبة في القتل... كلها ظهرت إلى السطح وسيطرت عليها. وأظن أن شخصاً خارجياً واحداً عرف بذلك، وكان هنا وقت وقوع ذلك... أظن أنك أنت التي عرفت يا آنسة زيلي.

قالت زيلي موهورات: نعم، عرفت. كنتُ هنا في ذلك الوقت. كان الزوجان رافنزكروفت قلقين عليها؛ إذ أنهما شاهدا محاولتها لإيذاء ابنهما الصغير إدوارد، ولذلك تمت إعادته إلى المدرسة، وذهبنا أنا وسيليا إلى النزل الذي أقمتُه في سويسرا، ثم عدتُ إلى هنا بعد أن أشرفتُ على استقرار سيليا هناك. وبمجرد أن خلا البيت من الأولاد وبقينا فيه أنا والجنرال رافنزكروفت ومارغريت ودوروثي لم يعد أحد يشعر بقلق. وبعد ذلك، وفي أحد الأيام... حدث الأمر! خرجت الشقيقتان معاً، ثم عادت دولي بمفردها. بدت بحالة عصبية غريبة جداً... دخلت وجلست إلى طاولة الشاي، وعندها لاحظ

الجنرال رافنزكروفت أن يدها اليمنى مغطاة بالدماء. سألها إن كانت قد وقعت، فقالت: "آه، لا، لا شيء. لا شيء أبداً. لقد جرحتني أشواك الورد". ولكن لم تكن على الطريق أشجار ورد، وكانت تلك عبارة غبية تماماً، فشعرنا بالقلق. وهكذا، خرج الجنرال رافنزكروفت وخرجتُ أنا في إثره، وبقي يقول وهو يمشي: "لقد حدث شيء لمارغريت... أنا واثق أن شيئاً قد حدث لمولي"... وقد وجدناها على نتوء صخري تحت الجرف. كانت قد ضُربت بصخرة وبالحجارة. لم تكن ميتة، ولكنها كانت قد نزفت كثيراً، ولم نكد نعرف ماذا يمكن أن نفعل. لم نجرؤ على تحريكها وشعرنا أن علينا أن نستدعي طبيباً على الفور، ولكن قبل أن نتمكن من فعل ذلك أمسكت بزوجها وقالت وهي تشهق محاوِلةً التنفس: "نعم، كانت دولي. لم تكن تعرف ماذا تفعل. لم تعرف يا أليستير. يجب ألاّ تجعلها تعاني مقابل ذلك... إنها لم تعرف أبداً الأمور التي تفعلها أو سبب فعلها لها... إنها لا تملك دفع ذلك... لم تستطع أبداً تمالك نفسها. يجب أن تعِدني يا أليستير... أظن أنني أموت الآن. كلا... كلا، لا وقت لاستدعاء طبيب، ولن يستطيع الطبيب فعل شيء. لقد كنتُ ملقاة هنا أنزف، وأنا قريبة جداً من الموت... أعرف ذلك، ولكن عِدني... عدني بأنك ستنقذها. عِدني بأنك لن تترك الشرطة تعتقلها. عِدني بأنها لن تُحاكَم بسبب قتلي ولن تُسجن مدى حياتها مجرمةً. خبِّئني في مكان ما بحيث لا يُعثر على جثتي. أرجوك، أرجوك؛ إنه آخر شيء أطلبه منك. أنت الذي أحببته أكثر من أي شيء في هذه الدنيا... لو استطعتُ العيش من أجلك لفعلت، ولكني لن أعيش. يمكنني أن أشعر بذلك... لقد زحفتُ لمسافة قصيرة، وكان هذا كل ما استطعتُ فعله. عِدني... وأنتِ يا زيلي، أنت تحبينني أيضاً، أعرف ذلك. لقد أحببتِني وكنتِ

طيبة معي واعتنيتِ بي دوماً. وقد أحببتِ الأطفال، ولذلك يجب أن تنقذي دولي. يجب أن تنقذا دولي المسكينة. أرجوكما، أرجوكما. من أجل كل الحب الذي جمع بيننا، يجب أن تُنقذ دولي".

قال بوارو: وبعدها، ما الذي فعلتماه؟ يبدو لي أنكما اتفقتما بينكما دون شك.

- نعم. فقد ماتت، ماتت بعد نحو عشر دقائق من كلماتها الأخيرة تلك. وساعدته، ساعدتُ الجنرال رافنزكروفت في إخفاء جثتها في مكان أبعد قليلاً على طول الجرف. حملناها إلى هناك، حيث كانت صخور وأحجار كبيرة، وغطينا جثتها بأفضل ما نستطيع. لم يكن من طريق لذلك المكان في الواقع، وكان على المرء أن يتسلق على أربع... وقد تركناها هناك. كل ما ظل أليستير يردده -مرةً تلو أخرى- هو: "لقد وعدتها، ويجب أن أفي بوعدي. لا أعرف كيف أفعل ذلك، لا أدري كيف يمكن لأي امرئ أن ينقذها. لا أدري... ولكن...". حسناً، لقد فعلناها. كانت دولي في البيت، وكانت خائفة يشلها الرعب، ولكنها أظهرت -في نفس الوقت- نوعاً مخيفاً من الرضا. قالت: "لقد عرفتُ دوماً، عرفت منذ سنين طويلة أن مولي كانت حقاً شريرة. لقد أخذَتكَ مني يا أليستير. كنتَ ملكي أنا... ولكنها أخذتك مني وحملتك على الزواج بها، وكنتُ أعرف دوماً. ولكني الآن خائفة. ما الذي سيفعلونه بي... ماذا سيقولون؟ لا يمكن أن أُحتجز مرة أخرى. لا أستطيع، لا أستطيع؛ سوف أُجن. أنت لن تتركني أُحتجز. سوف يأخذونني بعيداً، وسيقولون إنني مذنبة بالقتل. لم يكن ذلك قتلاً. لقد اضطررتُ -فقط- للقيام بذلك. أحياناً أضطر للقيام بأشياء... أردتُ أن أرى الدم... ومع ذلك لم أستطع الانتظار

لرؤية مولي تموت، بل هربت. ولكني عرفتُ أنها ستموت... كنت آمل فقط ألاّ تعثرا عليها. لقد سقطت من فوق الجرف فقط. سيقول الناس إن ذلك كان مجرد حادث".

قال ديزموند: إنها قصة رهيبة.

قالت سيليا: نعم، قصة رهيبة، ولكن من الأفضل أن نعرف، من الأفضل أن نعرف، أليس كذلك؟ لقد بَعُد العهدُ حتى لا يمكنني أن أشعر حتى بالأسف عليها؛ أعني على والدتي. أعرف أنها كانت رائعة، وأعرف أنه لم يكن فيها أي أثر للشر؛ بل كانت خيراً كلها... وأعرف، أو أستطيع أن أفهم لماذا لم يُرد والدي الزواج بدولي. فقد أراد الزواج بأمي لأنه أحبها ولأنه اكتشف -وقتها- أن في دولي شيئاً غير طبيعي. شيئاً سيئاً ومنحرفاً. ولكن كيف... كيف فعلتما كل ذلك؟

قالت زيلي: لقد اخترعنا الكثير من الأكاذيب. كنا نأمل ألاّ يتم اكتشاف الجثة بحيث يمكن -فيما بعد- نقلها ليلاً إلى مكان تبدو فيه كما لو كانت قد وقعت في البحر. ولكننا فكرنا بعدها في قصة المشي أثناء النوم. كان ما يتعين علينا عمله بسيطاً تماماً. قال أليستير: "إن الأمر مخيف، ولكنني قطعتُ عهداً... لقد أقسمتُ لمولي وهي تُحتضر؛ أقسمتُ أن أفعل ما طلبته مني. توجد طريقة، طريقة ممكنة لإنقاذ دولي، لو استطاعت هي -فقط- أن تقوم بالدور المطلوب. لا أدري إن كانت قادرة على فعل ذلك". سألتُه: "على فعل ماذا؟"، فقال: "على أن تتظاهر بأنها مولي وأن دوروثي هي التي مشت في نومها ووقعت مما أدى إلى مقتلها".

وقد تمكنا من ذلك. أخذنا دولي إلى بيت صغير فارغ كنا نعرفه وبقيتُ أنا معها هناك لبضعة أيام، وأذاع أليستير إن مولي قد نُقلت إلى المستشفى إثر معاناتها من الصدمة بعد اكتشافها أن أختها قد وقعت عن الجرف وهي تمشي أثناء نومها ليلاً. ثم أعدنا دولي إلى البيت.. أعدناها باعتبارها مولي، وهي تلبس ملابس مولي وتضع باروكة مولي. وقد أحضرتُ باروكتين إضافيتين... منها تلك الباروكة ذات الخصلات الملفوفة التي أخفت شكلها بشكل جيد تماماً. وقد كانت الشقيقتان متشابهتين فعلاً وكان صوتاهما متشابهين؛ فتقبّل الجميع -بسهولة تامة- أنها مولي، واقتنعوا بأنها تتصرف بشيء من الغرابة بين الحين والآخر لأنها ما زالت تعاني من الصدمة. بدا الأمر كله طبيعياً تماماً، وكان ذلك هو الجزء الرهيب من القصة...

سألتها سيليا: ولكن كيف استطاعت الاستمرار في دورها؟ لا بد أنه كان دوراً بالغ الصعوبة.

- لا، لم تجده صعباً؛ إذ كانت قد حصلت على ما تريده. حصلت على أليستير.

- ولكن ماذا عن أليستير... كيف استطاع تحمل ذلك؟

- لقد أخبرني كيف ولماذا يوم رتّب لعودتي إلى سويسرا. أخبرني بما يتعين عليّ فعله، ثم أخبرني بما يعتزم هو فعله. قال: "شيء واحد يمكنني فعله... لقد وعدتُ مارغريت بأنني لن أُسلِّم دولي للشرطة، وأن أحداً لن يعرف بفعلتها، وأن الأطفال لن يعرفوا أبداً أن لهم خالة قاتلة. لا حاجة لأن يعرف أحدٌ -أبداً- أن دولي قد ارتكبت جريمة. لقد مشت في نومها ووقعت عن الجرف

الصخري... حادث مؤسف، وسيتم دفنها في قبر تحمل شاهدته اسمها الخاص".

سألتُه إذ لم أتحمل ذلك: "كيف يمكنك أن تسمح بحدوث ذلك؟"، فقال: "بسبب ما سأفعله أنا... يجب أن تعرفي به".

ثم مضى ليقول: "يجب أن يتم وقف دولي عن الحياة؛ لأنها إن بقيت قرب الأطفال فإنها ستحصد المزيد من الأرواح... المسكينة التعِسة، إنها لا تصلح للعيش. ولكن يجب أن تفهمي يا زيلي بأنني -بسبب ما سأفعله- يجب أن أدفع حياتي أنا أيضاً... سوف أعيش هنا بهدوء لبضعة أسابيع مع دولي وهي تُمثل دور زوجتي... وبعدها ستقع مأساة أخرى".

ولم أفهم ما الذي يقصده فقلتُ له: "حادث آخر؟ المشي أثناء النوم مرة أخرى؟"، فقال: "كلا. إن ما سيعرفه العالم عن الأمر هو أننا -أنا ومولي- قد انتحرنا كلانا، ولا أحسب أن السبب سيُعرف أبداً. قد يظنون أن ذلك كان بسبب اقتناعها بأنها تعاني من السرطان أو أنني أنا الذي أظن ذلك، ويمكن أن تثور جميع أنواع التفسيرات. ولكن يجب عليك أن تساعديني يا زيلي. أنت الشخص الوحيد الذي يحبني حقاً ويحب مولي والأطفال، فإن كان يتعين على دولي أن تموت فإنني الشخص الوحيد الذي يجب أن يفعل ذلك. لن تشعر بالخوف؛ سأطلق النار عليها ثم على نفسي، وستظهر بصماتها على المسدس لأنها كانت تمسك به قبل فترة قصيرة، وستكون بصماتي عليه أيضاً. لا بد من تنفيذ العدالة، وعليّ أن أكون المُنفِّذ. الأمر الذي أريدك أن تعرفيه هو أنني أحببتهما كليهما... وما زلتُ أحبهما.

أحببتُ مولي أكثر من حياتي، وأحببتُ دولي لأنني أشفق عليها كثيراً بسبب ما كُتب عليها من قَدَر. تذكّري ذلك دوماً".

نهضت زيلي وجاءت إلى سيليا قائلة: أنت تعرفين الحقيقة الآن. لقد وعدتُ أباك بألاّ تعرفي أبداً... وقد أخلفتُ وعدي. لم أقصد أبداً أن أكشف ذلك لك أو لأي شخص آخر، ولكن السيد بوارو جعلني أرى رأياً آخر. إنها قصة رهيبة جداً.

قالت لها سيليا: إنني أفهم كيف شعرتِ. وربما كنتِ مُحقة من وجهة نظرك، ولكنني... ولكنني سعيدة بمعرفة ذلك لأن حملاً ثقيلاً يبدو وكأنه قد انزاح الآن عن كاهلي.

قال ديزموند: لأننا نعرف الحقيقة الآن، أنا وأنت. لقد كانت مأساة بالفعل. وكما قال السيد بوارو فإنها كانت مأساة حقيقية لشخصين أحبا بعضهما بعضاً. قُتل أحدهما، وقام الآخر بالاقتصاص من القاتل من أجل الإنسانية وليمنع المزيد من المعاناة. يمكن للمرء أن يغفر له إن كان مخطئاً، ولكن لا أظنه كان مخطئاً حقاً.

قالت سيليا: لقد كانت دوماً امرأة مخيفة. حتى عندما كنتُ طفلة كنتُ أخاف منها دون أن أعرف سبباً لذلك... ولكنني أعرف الآن السبب. أظن أن والدي كان رجلاً شجاعاً بحيث فعل ما فعل. لقد قام بما طلبته منه أمي، ما توسلت به ليقوم به وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ أنقذ شقيقتها التوأم التي كانت تحبها دوماً بعمق. إنني أود أن أعتقد... آه، يبدو هذا قولاً سخيفاً مني.

ثم نظرت بارتياب إلى هيركيول بوارو وقالت: ربما لا ترى

أنت ذلك، أعني ما هو مكتوب على شاهدة قبرهم: «في الموت لم ينفصلوا». هذا لا يعني أنهم قد ماتوا معاً، ولكني أظن أنهم اجتمعوا فيما بعد. والداي اللذان أحبا بعضهما بعضاً كثيراً، وخالتي المسكينة التي سأحاول أن أشعر بعطف تجاهها أكثر مما سبق لي قط أن شعرت، خالتي المسكينة لم يكن لزاماً عليها أن تعاني بسبب أمر ربما لم تكن تملك تجنبه.

ثم قالت وقد تحول صوتها إلى نبرته المعتادة: ولكن تذكروا أنها لم تكن لطيفة. إنك لا تملك إلاّ النفور من الناس إن كانوا غير لطفاء. ربما كان بوسعها أن تكون مختلفة لو أنها حاولت ذلك، ولكن ربما لم يكن ذلك بمقدورها. وإن كان الأمر كذلك فعلى المرء أن يفكر بها كشخص مصاب بالطاعون في قرية مثلاً، لا يسمح له الناس بالخروج، ولا يُطعمونه، ولا يستطيع الاختلاط بغيره من الناس لأن القرية كلها ستُصاب وتموت... شيء من هذا القبيل. ولكني سأحاول الشعور بالأسف عليها. أما أمي وأبي فلم أعد قلقة بشأنهما بعد. لقد أحب كل منهما الآخر حباً جماً، وأحبا دولي المسكينة البائسة.

قال ديزموند: أظن -يا سيليا- أن من الأفضل أن نتزوج الآن بأسرع ما يمكن. سأقول لك شيئاً واحداً: إن والدتي لن تسمع أبداً شيئاً عن هذه القضية. إنها ليست أمي الحقيقية، وهي ليست بالشخص الذي يمكن لي ائتمانه على سر من هذا النوع.

قال له بوارو: إن لدي أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن والدتك بالتبني كانت حريصة على الدخول بينك وبين سيليا ومحاولة التأثير عليك بفكرة مفادها أن سيليا ربما تكون قد ورثت عن أبيها أو أمها شيئاً

من الخصائص الفظيعة. لعلك تعرف (أو قد لا تعرف، ولا أجد سبباً يمنعني من إخبارك) بأنك سترث من المرأة التي كانت أمك الحقيقية، والتي توفيت منذ زمن غير بعيد تاركة كل أموالها لك. سوف ترث مبلغاً كبيراً جداً من المال عندما تبلغ الخامسة والعشرين من عمرك.

قال ديزموند: أدرك تماماً أنني -إذا تزوجتُ سيليا- سأحتاج لهذا المال لأعيش منه بالطبع. أعرف أن أمي الحالية بالتبني حريصة جداً على المال، وكثيراً ما أُقرضها مالاً الآن. وقد اقترحت عليّ -قبل أيام- أن أرى محامياً قائلة إنه لمن الخطير جداً الآن -وقد بلغتُ الحادية والعشرين- أن أبقى دون وصية أتركها، وأحسب أنها ظنت أنها ستحصل على المال. ربما كنتُ قد فكرتُ بترك كل ما أملكه تقريباً لها، ولكننا سنتزوج الآن طبعاً أنا وسيليا، وسأوصي بأموالي لزوجتي القادمة... كما أنني لم أرتح للطريقة التي حاولت فيها أمي أن تؤلبني على سيليا.

قال بوارو: أظن أن شكوكك صحيحة كلياً. وأحسب أنها يمكن أن تبرر ذلك لنفسها بقولها إنها كانت تريد مصلحتك، وإن أصل سيليا أمر ينبغي لك أن تعرفه لتعرف إن كنت ستُقدم على أية مجازفة، ولكن...

قاطعه ديزموند قائلاً: حسناً، ولكن... أعرف أنني عاقٌّ قليلاً. فهي -في نهاية الأمر- التي تبنتني وربتني وقامت بكل تلك الأمور، وأحسب أنني سأترك لها بعضاً من المال لو توفر لي منه القدر الكافي. وسيكون لنا -أنا وسيليا- ما يتبقى منه، وسنكون سعيدين

معاً. صحيح أن أموراً ستُشعرنا بالحزن أحياناً من وقت لآخر، ولكننا لن نقلق بعد الآن، أليس كذلك يا سيليا؟

- بلى، لن نقلق ثانية أبداً. أظن أن أمي وأبي كانا شخصين رائعين. لقد حاولت أمي رعاية أختها طوال حياتها، ولكني أحسب أن الأمر كان ميؤوساً منه إلى حدٍّ ما. لا يمكنك أن توقف الناس عن أن يكونوا كما هم حقاً.

قالت زيلي: آه، يا طفليّ العزيزين! اغفرا لي مناداتكم طفلين، فأنتما لستما كذلك. أعرف أنكما رجل وامرأة ناضجين، وأنا سعيدة جداً إذ رأيتكما ثانية وإذ أعلم أنني لم أُسبب أي أذى فيما فعلتُه.

ذهبت سيليا إليها وحضنتها قائلة: أنت لم تسببي أي أذى إطلاقاً، ومن الرائع أن نراك يا عزيزتي زيلي. لقد كنتُ دوماً مغرمة بك إلى أبعد الحدود.

قال ديزموند: وأنا أيضاً كنتُ مغرماً بك عندما عرفتك وكنتُ أعيش في البيت المجاور لكم. كانت لديك ألعاب رائعة تلعبينها معنا.

ثم التفت الشابان وقال ديزموند للسيدة أوليفر: شكراً لك يا سيدة أوليفر. لقد كنتِ بالغة اللطف، وأسهمتِ بالكثير من العمل... يمكنني تقدير ذلك. شكراً لكَ يا سيد بوارو.

قالت سيليا: نعم، شكراً لك. إنني ممتنة جداً.

ثم غادرا فيما راقبهما الآخرون يبتعدان. قالت زيلي لبوارو:

حسناً، يجب أن أغادر الآن. ماذا عنك أنت؟ هل سيتعين عليك أن تخبر أحداً بهذه القصة؟

- يوجد شخص واحد قد أُفضي له بذلك سراً؛ ضابط شرطة متقاعد. لم يعد في الخدمة الآن، بل هو متقاعد تماماً، وأظن أنه لن يشعر بأن من واجبه أن يتدخل فيما محاه الزمن الآن. ولو كان ما يزال في الخدمة فربما كان الأمر مختلفاً.

قالت السيدة أوليفر: إنها قصة فظيعة... فظيعة. وكل أولئك الناس الذين تحدثتُ معهم. نعم، إنني أفهم الآن، لقد تذكروا جميعاً شيئاً ما؛ شيئاً كان مفيداً يرينا ماذا كانت الحقيقة، رغم أنه كان من الصعب جمع كل تلك الملاحظات معاً... إلاّ بالنسبة للسيد بوارو الذي يستطيع -دوماً- جمع الخيوط معاً والخروج بتفسير من أكثر الأمور غرابة... مثل الباروكات والتوائم!

مشى بوارو إلى حيث كانت تقف زيلي مراقِبةً المنظر أمامها وقال: هل تلومينني على مجيئي إليك وإقناعك بفعل ما فعلتِه؟

- لا، بل إنني سعيدة. لقد كنتَ على حق؛ فهذان الشابان رائعان جداً، وأظنهما متناسبان تماماً، سيكونان سعيدين. إننا نقف هنا حيث عاش عاشقان ذات يوم، وحيث مات عاشقان... إنني لا ألومه على ما فعله. ربما كان ذلك خطأً (وأحسب أنه كان خطأً بالفعل)، ولكنني لا أستطيع لومه. إنني أرى أنه كان تصرفاً شجاعاً، حتى وإن كان خطأً.

- لقد أحببتِه أيضاً، أليس كذلك؟

- بلى، أحببتُه دوماً... بمجرد أن أتيتُ إلى البيت. أحببتُه بكل صدق، ولا أظنه عرف بذلك. لم يكن بيننا شيء أبداً. لقد وثق بي وكان يحبني. لقد أحببتهما كليهما، هو ومارغريت.

- بقي شيء أود سؤالك عنه: لقد أحب دولي كما أحب مولي، أليس كذلك؟

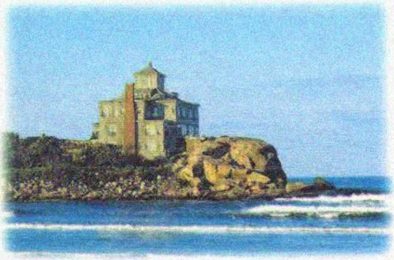
- تماماً، حتى النهاية. أحبهما كليهما... ولذلك كان مستعداً لإنقاذ دولي. لماذا أرادت مولي منه ذلك؟ ومَن التي أحبها أكثر؟ لا أدري. هذا شيء ربما لا أعرفه أبداً. لم أعرفه أبداً... ولن أعرفه.

نظر بوارو إليها لحظة، ثم التفت وعاد لينضم إلى السيدة أوليفر قائلاً: سنعود أدراجنا إلى لندن. يجب أن نعود إلى الحياة المعتادة وننسى المآسي وقصص الحب.

قالت السيدة أوليفر: يمكن للأفيال أن تتذكر. ولكننا بشر، والبشر -لحسن الحظ- ينسون.

* * *

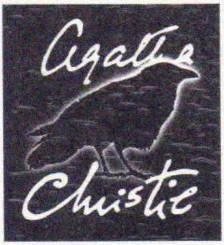
Agatha Christie



Elephants Can Remember

هيركيول بوارو

POIROT





٧٣ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

ذاكِرَةُ الأفْيال

وقف هيركيول بوارو على المنحدر الصخري مشرفاً على الصخور أسفل منه وأمواجُ البحر تتكسّر عليها.

هنا، حيث يقف، وُجِدت جثتا رجل وزوجته. وهنا، قبل ثلاثة أسابيع من تلك الحادثة، مشت امرأة خلال نومها فوقعت عن الصخور ميتة.

لقد مضت على هذه الأحداث أعوام طويلة، فلماذا يسعى أيٌّ كان ليكشف حقيقة ما حدث؟

ولماذا وقعت هذه الأحداث؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2561-3
9782195725561

US $ .00

سعر البيع ريالاً